مختصر كتاب الدكتور شوقي ضيف

الحضارة الإسلامية

من الكتاب و السنة

اختصار

د. مصطفي حلمي



مختصر كتاب الدكتور شوقي ضيف:

الحضارة الإسلامية من الكتاب والسنة

اختصار
د. مصطفى حلمي
أستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٨١٦٣
الترقيم الدولى: 8-350-253-977

الدار العربية للكتاب
٣ ش منشـــا - مـحـــرم بك -
الإسكندرية ت/ ٠٣٣٩٠٧٩٩٨

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد :

مع كثرة ما صدر من كتب عن الحضارة الإسلامية فى تجلّياتها المختلفة -الدينية والتشريعية والإنسانية والأخلاقية والعالمية -فإن هذا الكتاب الذى بين يدىّ القارئ هو الوحيد مهم بينها -فيما أعلم- الذى حرص مؤلفه الدكتور شوقى ضيف -رحمه الله تعالى- على اختيار عنوانه باسم (**الحضارة الإسلامية من الكتاب والسنّة**)، وبذلك استهدف غرضين :

الأول: تقديم المشروع الإسلامى للنهضة المرجوّة بأصوله المعتمدة من الكتاب والسنّة بأسهل السبل وأقومها ، بعد أن أفلست المشاريع المستوردة من الغرب والشرق طوال نحو قرنين من الزمان ، فكانت سببًا فى انتكاساتنا وتدهورنا لأننا -مخطئين- اتخذناها سبلاً للنهضة ، وألقينا وراء ظهورنا بالدعائم التى اتخذها الأجيال أساسًا لحضارتها منذ عصر النبى ﷺ وصحابته -رضى الله عنهم- وكان بمثابة الشعلة المضيئة لأمة الإسلام .

الثانى: بذكّرنا جميعًا -كأفراد- بمسئولية كل منا ودوره ليعيد حضارتنا إلى مجدها التليد ، ويرفع من شأن أمتنا الإسلامية كما وصفها الله -عز وجل- ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وقد جمع المؤلف -رحمه الله تعالى- بكتابه معالم النهضة المرتقبة والمرجوّة ، وأقامها على أسس عقدية واجتماعية وأخلاقية ؛ كما جلاّها بكافة شعبها وأدلتها لكى تصبح حافزاً لنا لتصحيح العقائد ، والارتقاء بالأخلاق والسلوك إلى القيم الرفيعة التى وردت بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ ؛ ومن ثمّ أصبح الطريق المستقيم واضحًا أمام

كل فرد ليغير ما بنفسه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾؛ ومن ثم فإن المسئولية ملقاة على كل فرد مسلم ولم يعد مقبولاً أن يلقى كل منا التبعة على غيره، بل عليه نفسه أولاً، ثم التغيير فى محيط أسرته ومجتمعه وفقًا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣].

ونرى كيف كان الدكتور شوقى ضيف -رحمه الله تعالى- حريصًا أيضًا على استنهاض همم المسلمين المعاصرين لكى يسلكوا سبل الآباء والأجداد فيقول: (والمسلمون -فى عصرنا- جديرون بأن يعودوا إلى التماسك فى حياتهم بتلك الأسس جميعًا كما تمسك بها آباؤهم الأولون، فدان لهم العالم وفتحت لهم الأمم ديارها فى الهند وأواسط آسيا شرقًا إلى المغرب الأقصى وإسبانيا غربًا، وتعايشوا مع سكان تلك الديار جميعًا معيشة كريمة قرونًا متعاقبة عمّ فيها السلام والأمن والرخاء للبشرية)(١).

وقد آن الأوان كما يرى الدكتور محمد عمارة أن تجديد الفكر الإسلامى هو الطريق الوحيد لنجاة الأمة، ومع أنه طريق شاق، إلا أنه المنقذ للأمة الإسلامية من ثقافة الانحلال الحديثة، والإفلات من فخ العولمة الذى يهدف إلى الانحسار فى قالب الحضارة الغربية المهيمنة اقتصاداً وقيماً وثقافة، ويقول: (إن مأزقنا الحضارى الراهن، يجب ألا ينسينا أننا عشنا العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون، بينما عمر الغرب كعالم أول لم يتجاوز القرنين من الزمان)(٢)، ويرى أن الثقافة الإسلامية ينبغى أن تملأ النفس وتغذى الوجدان الإسلامى، حتى لا تملأ العولمة فراغنا الثقافى والروحى بقيم الانحلال وثقافة الحداثة اللادينية)(٣).

وبنفس هذا الحرص يحذرّنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى من الاستمرار فى طريق التغريب؛ إذ يقول رحمه الله تعالى: (بدأت معالم أزمة الحضارة الغربية الحديثة تتّضح

---

(١) ص ١١ من الكتاب.

(٢) د. محمد عمارة، مقالة بعنوان (الإنسان والمجتمع بين الرؤية الإسلامية).

(٣) (العولمة الغربية) ص ١٩١٤ مجلة (الأزهر) رمضان ١٤٣٧هـ- يونيو ٢٠١٦م.

منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، وأخذنا ندرس الأزمات التى أصبحت جزءًا من بنيته، خصوصًا منذ منتصف الستينيات فهى النقطة الزمنية التى اكتملت فيها معظم ملامح النموذج الحضارى المعرفى الغربى، وتحققت معظم حلقات المتتالية الغربية الحديثة، ولم تعد مجرد أيدلوچية يتم التبشير بها، أو مجموعة من الأفكار يتم الدعوة إليها، وإنما أصبحت بناءً حضاريًا ماديًا متماسكًا ظهرت نتائجه الإيجابية المباشرة العاجلة المقصودة -كما تبدت نتائجه السلبية غير المباشرة الآجلة وغير المقصودة ثم بدأت معالم أزمة الحضارة الغربية الحديثة تتضح منذ منتصف القرن التاسع عشر[1]، إذ فقدت كثيرًا من إحساسها بمكانتها الخاصة فى التاريخ ومركزيتها وعالميتها، وهذا أمر طبيعى ومتوقَّع مع تصاعد أزمات هذه الحضارة، ابتداءً من حربيها العالميتين، وانتهاءً بمشكلاتها المتنوعة الكثيرة، مثل تآكل مؤسسة الأسرة. وانتشار الإيدز والمخدرات، وتراكم أسلحة الدمار الكونى، والأزمة البيئية، واغتراب الإنسان الغربى عن ذاته وعن بيئته، وهى كلها أمور كان لا يتحدث عنها إلا الشعراء فى شعرهم، والروائيون فى رواياتهم، والعلماء فى دراساتهم العلمية الرصينة التى لا يقرؤها سوى غيرهم من العلماء، ولكنها مع نهاية الستينيات أصبحت أخبارًا يومية تتناقلها الصحف والإذاعات والمجلات)[2].

ثم ينبّه دعاة التغريب إلى ضرورة الوعى بما صارت إليه أحوال الحضارة الغربية فى مراحلها التاريخية، وأخذ يعرض بالتفصيل الأزمات الخانقة التى أصبحت تعانى منها فى وقتنا الحاضر، فيقول: (ومن المفارقات التى تستحق التسجيل أن دعاة التغريب واللحاق بالغرب فى عالمنا العربى لا يزالون يدورون فى إطار عقلانية القرن الثامن عشر وعلوم القرن التاسع عشر، ويكررون تفاؤل الغرب بخصوص مستقبله فى الوقت الذى سقطت فيه عقلانية القرن الثامن عشر بالنسبة لكثير من المفكرين الغربيين وظهر لهم مدى تصورها، وتآكلت -من منظورهم- السببية البسيطة التى تستند إليها علوم القرن التاسع عشر، وتخلى الكثير منهم عن تفاؤلهم بخصوص حضارتهم التى لم تعد تشعر بالثقة الكاملة بنفسها، كما كانت تفعل.

ويبدو أن الدكتور ضيف قد لاحظ أيضًا مبكرًا حالة التردّى حضارة فى الغرب فأخذ

(١) د. عبد الوهاب المسيرى (العالم من منظور غربى) ص ١١٥ دار الشروق بمصر ط١ ٢٠١٧م.

(٢) نفسه.

يذكّر الأمة الإسلامية بما منحها الله تعالى من مقوّمات عزّها وسؤددها، وأساس ازدهارها وقوّتها ومجدها، فكانت سببًا فى انتصاراتها على أعدائها، ثم ظهورها على شعوب الأرض بالعدل بتطبيق شرع الله عز وجل.

وقد تحققّ ذلك فى عصر النبوة والخلافة الراشدة، ثم فى عصر أهل القرون المفضلة الأولى والذين اتبعوهم بإحسان إلى عصر قريب وظل قائمًا بين مدّ وجذر، حتى جاء اليهودى الدونمى أتاتورك فأصاب الحضارة الإسلامية فى مقتل بإلغائه الخلافة العثمانية، عام ١٩٢٤م، وإقصاء شريعة الله عز وجل، وفرض قوانين الغرب الجائرة على الشعب التركى، محاولاً نزعه عن دينه!

لذلك لخّص الأستاذ فهمى هويدى (الانقلاب التركى التغريبى على يد أتاتورك) فى أسطر قليلة ولكنها معبّرة أصدق تعبير، فقال: (إن الانقلاب الذى أحدثه كمال أتاتورك على الخلافة الإسلامية فى تركيا، اقترن بحملة تشويه وتحريض الناس بكل الوسائل على التخلى عنه... كان خطاب الكماليين -ويبدو أن أغلبهم كانوا يهودًا مثله وهم من طائفة «الدونمة» -في أنقرة يتحدث عند إسلام آخر كان يختلف عن ذلك الذى صنع الحضارة العظيمة وأحدث النقلة النوعية المشهودة فى مسيرة البشرية... وكان هدفهم إزاحة الشريعة وطمس كل ما هو إسلامى، تكريسًا لعلمانية الدولة التى أريد لها أن تقوم فى تركيا على جثّة الدين)[1].

ومما قاله الدكتور شوقى ضيف عن عالمية الإسلام وطاقته المدخّرة:

(ويدل بوضوح على ما فى عالميّة الإسلام من طاقات مدّخرة عظيمة كانت تحميه دائمًا من الانهيار، أنه بعد اكتساح التّتار للإسلام فى بغداد، اكتسحتهم عالميّة الإسلام دينيًا فاعتنقوه جميعًا، وتكوّنت منهم دولة إسلامية كبرى، وبالمثل فى أثناء منازلة إسبانيا والغرب للإسلام فى الأندلس واكتساحهما له حربيًا، اكتسحهم علميًا وحضاريًا، وتكوّنت فى شرقى أوربا دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى)[2].

---

(١) فهمى هويدى (إحقاق الحق) ص ٥١١، ٦٦١ دار الشروق ط٣ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) د. شوقى ضيف (الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة) ص ٦٨.

ثم ختم عبارته بروح التفاؤل ومستيقنًا بسنّة الله تعالى فى نصر هذه الأمة. قائلاً: (ولذلك نظن رغم ما حدث لعالمية الإسلام من ضعف سياسى لدولتها واستعمار الغرب لها زمنًا أنها -بإذن الله تعالى- ستسترد قواها كاملة وتزدهر من جديد)[1].

كذلك يؤكد الارتباط الوثيق بين الحضارة الإسلامية والكتاب والسنة.

وقد ظلت العلاقة بينهما وطيدة وبخاصة فى عصر النبى ﷺ والخلافة الراشدة [2]، ثم تراخت فى العصور الأخيرة إلى أن انقطعت تمامًا بفعل كمال أتاتورك كما أسلفنا فكان ذلك سببًا فى تدهور أحوال البلاد الإسلامية وتكالب الأمم الأخرى عليها بالاستعمار العسكرى والاقتصادى والثقافى وكان الأخير أشد خطرًا، وأقوى أثرًا.

وإذا لخصنا القضية فى عصرنا الحديث لاتضح لنا أن سبب الهزائم أمام قوى الغرب الكاسحة إلى أن بعض أولى الأمر منّا -تقليدًا لكمال أتاتورك- أهملوا كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وفضلوا عليهما النظام العلمانى المستورد من بلدان الغرب -ظنًا منهم أن هذا هو طريق التقدّم واللحاق بركب الحضارة- فما كانت النتيجة؟

تجسّدت النتيجة فى الهزائم العسكرية المتوالية وتضخم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والسكانية، وأصبحنا نعانى من اضطراب حياتنا الاجتماعية، مع التفكك الأسرى والانفلات الأخلاقى المدمّر، فضلا عن الاستبداد وانتشار الفساد[3].

---

(١) نفسه ص ٧٣.

وانظر أيضًا ص ٣٦؛ فإنه يتوقع بإذن الله تعالى استرداد القوة والازدهار من جديد.

(٢) يقول الدكتور حسين مؤنس: (ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسى المستقى من شريعتهم وسنة رسولهم ﷺ، لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط) الحضارة ص ١١٠.

(٣) وقد صدرت مؤلفات عديدة تصوّر مدى الانحدار الذى نعانيه فى السنوات الماضية، نذكر منها:

- قبل الكارثة، للدكتور عبد العزيز مصطفى كامل.
- ضياع أمة، للدكتور محمد عباس.
- شاهد على الحزب الوطنى، للدكتور صلاح قبضايا.
- مقالات محظورة، للأستاذ فهمى هويدى.
- مذكرات حرب أكتوبر ٧٣، للفريق سعد الدين الشاذلى.
- مصر والمصريون فى عهد مبارك، للدكتور جلال أمين.
- اقتصاديات الفساد فى مصر ١٩٧٤ -٢٠١٠، عبد الخالق فاروق.
- محاوراتى مع السادات، أحمد بهاء الدين.

كذلك استخلص الدكتور شوقى ضيف من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ صفة (عالمية الإسلام)؛ إذ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

أضف إلى ذلك حديث الرسول ﷺ الذى رواه الإمام البخارى فى باب خاتم النبيين إذ قال ﷺ: **«إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللَّبنة؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»** [1].

وظلّ يؤكد الدكتور شوقى ضيف الارتباط بين حضارة الإسلام والعمل بالكتاب والسنة؛ ليوجّه أمة الإسلام إلى أن ما تحققّ فى ماضيها الشامخ، بوسعها تجديده مرة أخرى لو سلكت سبيل المسلمين من قبل بالعمل بكتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾..

وقد ضمّن هذا المعنى بمقدّمة عنوان كتابه الذى تعمَّد قاصداً تسميته (الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة) معبرًا بذلك بصدق عن المخرج الوحيد لأزمة حضارتنا..

قال فى المقدمة: (وقد أرسى الله ورسوله ﷺ فى الإسلام **أسس حضارة إسلامية قويَّة لسعادة البشرية** وهى تتوزع بين أسس عقيدية وأسس اجتماعية وأسس أخلاقية، مع السموّ بالإنسان عن كل ما يشين حياته من المحظورات والموبقات. ولو أن هذه الأسس الإلهية انتظمت -فى عصرنا- حياة الأمم لتوطدت فيها أركان الإسلام، ولعمّت

---

(١) د. شوقى ضيف (الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة) ص ٦٨، دار المعارف بمصر، ١٩٩٧م.

فى جميع البقاع أخوّة إنسانية لا تقف عند جماعة دون غيرها من الجماعات ولا عند وطن دون غيره من الأوطان ولا عند قارة دون غيرها من القارات بل كانت تلك الأسس الإلهية هى التى ميزت حضارة الإسلام عن غيرها من الحضارات كما أثبت ذلك الأستاذ محمد أسد بمنهج المقارنة كما يلى :

نشأة حضارة الإسلام بالمقارنة بغيرها من الحضارات:

بناء على دراسة المهتدى للإسلام محمد أسد لتاريخ الحضارات يذكر أننا لا ندرى -على وجه التحديد- كيف بدأت هذه الحضارات كلها على اختلافها وتنوعها- ويضرب مثلا على ذلك بالحضارة الغربية الحديثة، فإن كل ما ندريه عنها أنها تطورت شيئًا فشيئًا من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقى هو المسيحية، بعد أن عدلته وحوّرته طبقًا لحاجات الغرب واستعداداته وظروف حياته، ولكننا لا نستطيع أن نحدد على وجه دقيق متى اتخذت هذه الحضارة الجديدة طابعها المحدّد المميّز . . وليست حضارة الرومان ذاتها أكثر وضوحًا حيث أصولها الأولى إلى من نزل بإيطاليا من أقوام قبل الإيطاليين يُدعون أترسكيين، وأصولهم ترجع غالبًا إلى آسيا الصغرى . . بينما يرجع بعض أصول حضارة الرومان إلى اليونان ومن تبقى منهم فى آسيا الصغرى وإلى حضارة أخرى سميت حضارة المناويين كما جرى اصطلاح المؤرخين إلى تسميتهم بهذا الاسم، وحضارة المناويين حضارة مبهمة معقدة تمركزت فى جزيرة كريت واستمدّت جذورها من تراث المصريين وحضارتهم على أصح الأقوال.

وما قيل عن حضارة الرومان نستطيع أن نقوله كذلك على حضارة الهندوس الموغلة فى أحشاء الماضى حتى تصل إلى السامريين.

ولا تخرج حضارات بابل وإيران وآشور كما سبقت الإشارة إليه من حضارات،

بل إن القول لينسحب على ما شاهد البشر من حضارات ؛ إذ إننا مهما أوغلنا فى التنقيب والبحث فيما سلف من حضارات البشر فلن نجد توقيتًا معيّنًا نستطيع أن نحدده بدءًا لحضارة ما، أو تاريخ لمولدها، ولا أن نعيّن حدًّا فاصلاً يميّز بين حضارة ولّت وأخرى أشرق عليها النور وتبدّت للوجود[1] .

ويقصد بذلك حضارة الإسلام التى انبثقت من نور الوحى الإلهى ووضع أسسها خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ (ففى عشر سنين تم توحيد الأمة العربية التى كانت أعرق أمم الأرض فى الشقاق والعداء، وإنما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأييده عز وجل لرسوله ﷺ كما قال: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٢، ٦٣] وبما أعده الله تعالى له من إتمام مكارم الأخلاق وما وفقه وأرشده إليه من حسن السياسة)[2] .

ويعلقّ الإمام رشيد رضا على ذلك بقوله (فليدلنا علماء التاريخ العام على نبى من الأنبياء أو حكيم من الحكماء، أو ملك من الملوك الفاتحين والمشترعين، ربّى أمة من الأمم فى عشر سنين، فجعلها أهلا لفتح الأمصار، والسيادة على الأمم الحضرية، وساسها بالعدل والرحمة وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالإقناع وحسن القدوة)[3]

وبعد أن عددّنا مزايا الكتاب، نرى إضافة رأى الإمام رشيد رضا من حيث نشأة الحضارة الإسلامية، ومن حيث استمراريتها أيضًا. فقد أحدث القرآن الكريم ثورة وانقلابًا فى الأمة العربية فسائر الأمم، وهو الكتاب الذى أنزله الله تعالى على قلب رجل أمىّ نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الأخلاق ﷺ[4] .

---

(١) محمد أسد (ليوبول ڤايس) مقال بعنوان (أصول حضارة الإسلام) ص ١٤٩ مجلة (المسلمون). غرة ربيع الأول ١٣٧١هـ ٣٠ نوفمبر ١٩٥١م

(٢، ٣) محمد رشيد رضا (الوحى المحمدى -ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام)- ص٢٦٧، مكتبة القاهرة ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

(٤) رشيد رضا (الوحى المحمدى) ص ١٠٩ . ط مكتبة القاهرة ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م.

(وقد أصدرت الدار العربية بالإسكندرية: مختصراً له هذا العام.

هذا بالإضافة إلى ميزة ثانية تنفرد بها عن بقايا الحضارات، وهى أنها تظل باقية إلى قيام الساعة، فلن تندثر.

كذلك يؤيد هذا الطابع الفريد ما قاله ج. هـ. دينيسون فى كتابه «العواطف كأساس الحضارة» [ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى. لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت، ولم يك ثم ما يُعتّد به مما يقوم مقامها. وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام. أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام. وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرّب إليها العطب حتى اللباب.. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل وُلد الرجل الذى وحّد العالم جميعه، ﷺ[1].

ومما يثير الانتباه والفخر معًا ما اكتشفه مؤرخنا الكبير الدكتور حسين مؤنس عن مقارنته بين الحضارات فى تدهورها أيضًا؛ إذ أسفرت المقارنة أن أغلب الحضارات ينتهى أمرها إلى التصدّع والانحلال، ثم تقوم جماعة جديدة بعناصر حضارية قليلة، ولكنها تغتذى ببقايا الحضارة الذاهبة، وتنشأ من ذلك حضارة جديدة كما حدث للحضارة الرومانية عندما انحلت وقامت على أساسها حضارة الغرب الأوروبى... وكذلك الدولة الفارسية عندنا انحلت وتلاشت وورث بقاياها الدولة الإسلامية.. وحضارة الهند انحلت وعلى أساسها قامت حضارة الإسلام فى الهند... وحضارات العالم الجديد من أمثال الأندية والمايا التى تلاشت تمامًا وذابت حضاراتها فى كيان الحضارة الغربية التى غزتها وقضت عليها. ثم يقول الدكتور حسين مؤنس (**ونستثنى من ذلك كله حضارة الإسلام**؛ لأن أساسها ليس عنصراً بشريًا يناله الضعف والبلى ولكن أساسها العقيدة وهى لا تزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها هى اللغة العربية، لغة القرآن، وبفضله عاشت وقدّر لها أن تنجو من الضياع. وبفضل

---

(١) مولاى محمد على (الإسلام والنظام العالمى الجديد) - ترجمة أحمد جودة السحّار.

الإسلام والعربية ظلّت حضارة الإسلام حيَّة؛ لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها، وما دامت العقيدة حيَّة فى عالم الإسلام، فاللغة العربية حيَّة أى أن عنصرىّ الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان لا ينال منها كرّ الغداة ومرّ العشى وتعاقب الأجناس وتغير الظروف)(١).

أما عن منهج الدكتور شوقى فى الكتاب فقد التزم عند عرض كل أساس إلهى من أسس الحضارة الإسلامية أن استهلّه بآيات من القرآن الكريم، وأتبعها بأحاديث من سنّة الرسول ﷺ تبيّن معانيها بتأييد إلهى محكم.

ومن مصادره كتب التفسير -وخاصة تفسير ابن كثير- وبالمثل كتب السنّة الشريفة، وخاصة من كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووى، وكتاب (الموطأ) لمالك، (والمسند) لابن حنبل، وكتب الصحاح الستّة وفى مقدمتها صحيح البخارى ومسلم.

هذا، وقد ختم مقدّمة الكتاب بقوله فى تواضع: (وكل ما كتبته وعلّقت به فى الكتاب إنما هو محاولة بدائية فى بيان أسس الحضارة الإسلامية. ولا شك فى أنه ستتلوها محاولات وبحوث خصبة أكثر استفاضة وعمقًا.

والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل، وهو حسبى ونعم الوكيل. القاهرة فى ١٥ شوال سنة ١٤١٧هـ):

رحمه الله تعالى وغفر له، وأسأله عز وجل أن يجعل ما كتبه فى ميزان حسناته، وأن يعمم فائدته للقراء جميعًا، وأن يجعل عملى المتواضع بتلخيصه خالصًا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ١٣ شوال ١٤٠٣٩هـ = ٢٠١٨/٦/٢٧م.

---

(١) د. حسين مؤنس (الحضارة ص٢٧٣) عالم المعرفة - الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

هذا وقد اعتمدنا فى التلخيص على طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٧م.

الوحى إلى رسول الله ﷺ

- القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١][*].

- الأحاديث:

١- عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن فترة الوحى: «بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصرى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملونى[١]، فدثرونى[٢]، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ[٣] فَاهْجُرْ﴾ ثم تتابع الوحى. [رواه البخارى ومسلم].

الأحاديث:

٢- عن عروة بن الزبير أن السيدة عائشة أم المؤمنين -رضى الله عنها- قالت: أول ما

(*) يقول ابن كثير (هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله عزوجل، وهو أنه تعالى يقذف فى روح النبى ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبّان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح الله القدس نفث فى روعى: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»، وقوله: «أومن وراء حجاب»، كما كلّم موسى عليه السلام، فإنه سأله الرؤية بعد التكليم - فحُجب عنها. تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧- ٢٠٣/ ٢٠٤ ط الشعب) تحقيق محمد إبراهيم البنا- ومحمد أحمد عاشور- وعبد العظيم غنيم.

(١) زملونى: غطونى بالثياب.

(٢) دثرونى: غطونى.

(٣) الرجز: عبادة الأوثان.

بُدِئ به رسـول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصـادقـة[1] فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق[2] الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء[3]، فكان يخلو بغار حراء[4] فيتحنث[5] فيه (وهو التعبد الليالى ذوات العدد) قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك.

ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق[6]، وهو فى غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى[7] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال لى: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجـهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاد[8] حتى دخل على خديجة بنت خويلد زوجته، فقال: زمّلونى[9] زمّلونى زمّلونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

ويقول الإمام ابن القيم إن هذه الآيات من سورة «العلق» هى أول ما أُنزل عليه ﷺ كما ورد بصحيح البخارى ومسلم والترمذى، وهذا قول عائشة رضى الله عنها والجمهور(*).

●●●

(١) فى البخارى (الصالحة).

(٢) فلق: ضياء.

(٣) الخلاء: الخلوة.

(٤) غار: كهف، وحراء جبل على بعد ثلاثة أميال من مكة على يسار الذاهب إلى منى.

(٥) يتعبّد.

(٦) فجأه الحق: جاء بغتة.

(٧) غطنى: عصرنى عصراً شديداً.

(٨) فى صحيح سلم: ترجف بوادره، وهى ما بين المنكب والعنق.

(٩) زملونى: غطونى بالثياب.

(*) الإمام ابن القيم (زاد المعاد فى هدى خير العباد) ﷺ ص ٣٥، تحقيق د. خليل شيحا- دار المعرفة- بيروت ط ٢ ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

السنة النبوية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

٢ - ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

٣ - ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

٤ - ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

الأحاديث:

١ - من أحاديث العمل بالسنة قول رسول الله ﷺ: «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين عضوا علها بالنواجذ**»[1] (رواه الترمذى وأبو داود).

٢ - وعن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» (رواه البخارى ومسلم وابن حنبل والترمذى).

٣ - عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ[2] والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس، فشربوا منه وسقو وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت**

---

(١) النواجذ: الأضراس.

(٢) الكلأ: العشب: رطبه ويابسه.

كلأ. فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى كتاب الفضائل).

٤- عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «من كذب علىّ معتمدًا فليتبوأ مقعده من النار» (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى المقدمة).

والله -تقدس اسمه- فى الآية الأولى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أى القرآن الكريم. وما فيه من الشريعة الإسلامية ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بيانًا دقيقًا ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من أصول الدين وأحكامه التى ذكرت فيه مجملة، فالصلاة والزكاة مثلاً ذكرتا فى القرآن مرارا مجملتين مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، والرسول ﷺ هو الذى بين الصلوات الخمس: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكيفية كل منها وما يكون فيها من تكبير لله والقرآن وذكر الله وتسبيحه واختتامها بالتحيات، كما بين الرسول ﷺ القواعد فى الزكاة وأنصبتها من الزروع والأنعام والأموال وتوزيعها على الفقراء المستحقين لها.

وسُمِّى بيان الرسول ﷺ لأحكام القرآن ونواهيه باسم الحديث وباسم السنة، والحديث لغة الجديد ضد القديم، وفى اصطلاح المحدثين كل ما روى عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلقى مثل صفته، بأنه كان أبيض مشربًا بحمرة، أو وصف خُلُقى مثل نعته بالحلم والكرم والعفو والصفح عند المقدرة، وأضاف بعض المحدثين إلى ذلك سيرته ﷺ الطاهرة قبل البعثة. والمراد بالتقرير أن يفعل أحد فعلاً أو يقول قولاً أمام الرسول ﷺ ويسكت الرسول ﷺ ولا ينكره. والسنة أصلها اللغوى العادة والطريقة، وفى اصطلاح المحدثين العادة أو الطريقة الشرعية التى جرى عمل المسلمين بها فى حياة الرسول ﷺ، وعادة تكون حديثًا للرسول ﷺ فيما أمر ونهى عنه وندب إليه قولاً أو فعلاً؛ ولذلك يقال: أصول الشرع: الكتاب والسنة أى القرآن والحديث. وهى بذلك -مثل الحديث- مبينة للقرآن الكريم وشارحة له ومصورة

لأحكام الشريعة عمليًا» ولمبادئ الإسلام الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية. والرسول ﷺ يوصى المسلمين فى الحديث الأول أن يعضوا عليها بالنواجذ، أى يحرصوا عليها وعلى ما تحمل من أوامر الشريعة ونواهيها، فإنها مبينة لها وموضحة. -

ويقول الله -جل شأنه- فى الآية الثانية للمؤمنين: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى فى أى شىء من أصول الدين وفروعه وأحكامه ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى إلى القرآن الكريم ﴿وَالرَّسُولِ﴾ أى إلى الرسول ﷺ وسنته. ورده إلى الرسول ﷺ فى حياته بعرضه عليه، أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فبعرضه على أقواله وأفعاله التى تحصيها وتستوعبها السنة. والآية توجب على المسلم الاعتداد بالسنة أصلاً أساسيًا فى الدين، ومن ينكرها ولا يعتد بها مطلقًا يعد خارجًا على أصول الإسلام؛ ولذلك أكمل الله الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وكأن من لا يعترف بالسنة لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أو المعاد. وحذر الرسول ﷺ من إنكار السنة، فقد روى أبو داود فى سننه عن أبى رافع أن النبى ﷺ قال: «**لا ألفين**[1] **أحدكم متكئا على أريكته**[2] **يأتيه الأمر مما أمرت أو نهيت عنه، فيقول: لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه**». أى أنه ينكر السنة وما جاء بها من الأحاديث، ويقول: نكتفى بالقرآن وما فيه من أحكام، وهو بذلك ينكر صريح السنة التى تعد جزءًا لا يتجزأ من الدين الحنيف.

•••

---

(١) ألفين: أجدن.

(٢) الأريكة: مقعد منجد.

الإسلام - الإيمان

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

٢- ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٣- ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٤- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

الأحاديث:

١- عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**» (رواه البخارى فى كتاب الإيمان وكذلك مسلم).

٢- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة،**

وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»[1] قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان؟ قال الرسول ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشره» قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرنى عن الساعة؟ قال: «المسئول عنها ليس بأعلم من السائل»، قال: فأخبرنى عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة[2] رعاء[3] الشاة يتطاولون فى البنيان». ثم انطلق (الرجل) فلبثت مليًا[4]. ثم قال: «ياعمر أتدرى من السائل»؟ قال الله ورسوله أعلم، قال الرسول: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان واللفظ لمسلم).

٣- عن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع[5] وسبعون شعبه[6] أو بضع وستون، وأفضلها قول لاإله إلا الله» (رواه البخارى، ومسلم فى كتاب الإيمان).

٤- عن العباس بن عبد المطلب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا» (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

والآية الأولى تقرر أن الدين عن الله الإسلام أى الدين الكامل، وأصل معنى الدين الجزاء، ثم أطلق على عقيدة جماعة من الناس أو أمة، ومن ذلك قوله تعالى على لسان الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ والإسلام علم على دين محمد ﷺ وشريعته، وسمى أتباعه باسم المسلمين، وهى تسمية ربانية كما فى قوله جل شأنه فى سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وتتكرر فى القرآن كثيراً.

(١) سبيلا: قدرة.

(٢) العالة: الفقراء.

(٣) رعاء: رعاة.

(٤) مليًا: فترة أو زمنًا.

(٥) بضع: العدد من ثلاثة إلى تسعة.

(٦) شعبة هنا: خصلة.

والإسلام من السلام ومعناه السلامة والأمان، واشتق منه أسلم إسلامًا بمعنى خضع وانقاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أى اخضعوا وانقادوا له. ثم عم استعمال أسلم فيمن دخل فى الدين الحنيف وأطاع الله ورسوله ﷺ، ومنه كلمة الإسلام بمعنى الدين المحمدى. والآية الأولى تجعله الدين المقبول عند الله.

والآية الثانية تقرر أن من يعتنق دينا غير الإسلام بعد مجيئه وتبليغه له ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾، فرسالة محمد ﷺ عامة لجميع البشر، وهو ما لم يسبقه إليه رسول، إذ جميع الرسل بنصوص القرآن الكريم وآياته أرسلوا إلى أقوامهم فحسب، أما محمد ﷺ فأرسل إلى البشر جميعا كما قال -جل شأنه- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: إن الإسلام بُنى على خمسة أركان هى: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان، والإسلام -بذلك- يشتمل على توحيد الله واعتناق الرسالة النبوية، وأعمال العبادة وهى: الصلاة وما فيها من تلاوة القرآن ومن التكبير والتسبيح، والزكاة وما يؤديه المسلم من ماله للصالح العام وللفقراء والمساكين، والحج المفروض على المستطيع ماديًا وصحيًا وما فيه من نسك وذكر لله وعبادة، وصوم شهر رمضان ﴿ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ تبتلاً لله. والإسلام -بذلك يطلق على أعمال العبادات فى الدين الحنيف، كما يوضح ذلك أيضًا الحديث الثانى حين سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإسلام ما هو؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة؟ وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.

والإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها لما جاء به الرسول ﷺ؛ وسأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ فى الحديث الثانى عن الإيمان: ما هو؟ فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. والحديث يجعل الإيمان خاصًا بالاعتقاد القلبى بالله وتوحيده، وما فى العالم الغيبى من الملائكة الذين ينزلون بالوحى على قلوب الرسل، والاعتقاد القلبى بالرسل وما جاءوا به من كتب سماوية ختامها القرآن الكريم، وأيضًا باليوم الآخر، وأن الناس مبعوثون بعد موتهم

للحساب على أعمال العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج. وفرق القرآن الكريم بين الإسلام بمعنى الدخول فى الدين الحنيف وبين الإيمان وهو التصديق القلبى فى قوله تعالى بسورة الحجرات: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى دخلوا فى الإسلام ولم يستحكم فى قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وتوسِّع الآية الثالثة معنى الإيمان، إذ تجعل البر أى الخير الكامل فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، ثم تضيف إلى ذلك الصدقة على ذوى الرحم واليتامى والمساكين وابن السبيل الغريب والسائلين المحتاجين، ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى فى فداء الأسرى وتحرير العبيد، وفى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لصالح المجتمع، والوفاء بالعهد والصبر ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أى البؤس والفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أى الضرر صحيا وغير صحى، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى فى جهاد المشركين وقتالهم، ويختم الله الآية بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى حققوا الإيمان القلبى فى العقيدة والأعمال الدينية. وبذلك يلتقى الإيمان فى الآية بالإسلام وعباداته العملية وكل ما جاءت به شريعته من مبادئ خيرة فى تربية المسلم الخلقية والاجتماعية، وهو ما جعل الرسول ﷺ يقول فى الحديث الثالث: الإيمان بضع وسبعون شعبة أى خصلة، وذكر من خصاله وشعبه توحيد الله، وفى رواية أخرى جعل من شعبه إماطة الأذى وتنحيته عن طريق المسلمين، وأهم من ذلك أنه جعله فى الحديث الرابع مطابقًا للإسلام إذ قال: من ذاق طعم الإيمان والمتاع به رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولا. وبالمثل يلتقى الإسلام بالإيمان فى مثل قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى أسلمت نفسى لله وجعلتها ملكًا له أنا ومن اتبعنى، مما يقتضى اكتمال العبودية لله وتمام الإيمان والإخلاص القلبى له والتصديق الكامل لكل ما غيب عنا وأنبأنا به القرآن.

وبهذا المعنى وهو أن الإسلام يشمل الإيمان والتصديق القلبى أطلقه الله على الدين

الحنيف، وجعله علمًا عليه فى آية سورة المائدة الرابعة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أى شريعتكم وكل ما ارتبط بها من عقائد وأعمال وأوامر ونواه، بحيث أصبحت كاملة لا ينقصها شيء ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بنصركم على أعدائكم وانتشار دينكم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ منذ اليوم وهو يوم نزول الآية فى حجة الوداع، وهو إعلان ربانى واضح بأن اسم الدين الحنيف الإسلام، وسيظل اسمه على الدهر إلى أبد الآبدين.

●●●

الصلاة- الزكاة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ [المائدة: ٦].

٢- ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٣- ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

٤- ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الأحاديث:

١- عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله آلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»** (رواه فى كتاب الطهارة أبو داود، والترمذى والنسائى).

٢- عن ابن عمر -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ[١] بسبع وعشرين درجة»** (رواه الإمام مالك فى الموطأ وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى وابن ماجة).

---

(١) الفذ: المنفرد.

٣- عن ابن عمر -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ حين بعث معاذاً -رضى الله عنه- إلى اليمن قال له: «**ادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم**» (اوه البخارى فى باب وجوب الزكاة).

٤- فى حديث قدسى قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله -عز وجل- يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى: قال ابن آدم: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه**» (رواه مسلم).

والآية الأولى فى شرع الوضوء والتيمم خلفاً له استعداداً للصلاة والإخلاص فيها لله، ولذلك عُدَّ الوضوء والتيمم السابقان لها جزءاً لا يتجزأ وفريضة مكتوبة لا تصح الصلاة بدونهما. وواضح أن الوضوء يرمز إلى أن الإسلام يحرص على نظافة المسلم؛ إذ لا يزال يتوضأ لكل صلاة طوال اليوم، وهو والتيمم الذى تذكره الآية يومئان إلى أن المسلم يأتى الصلاة عن نية خالصة لوجه ربه. وقوله تعالى: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾ أى إذا عزمتم على أدائها فاغسلوا الأعضاء التالية، والوضوء قبل الصلاة واجب على المحدث، أما غيره فلا يجب عليه. وقد الرسول الله ﷺ يوم فتح مكة الصلوات الخمس بوضوء واحد، وكان يتوضأ عند كل صلاة فى غير هذا اليوم استحبابا، وكان ابن عمر -رضى الله عنهما- يداوم على الوضوء لكل صلاة اقتداء به، والوضوء كما ذكرت الآية غسل الوجوه والأيدى إلى المرافق والمسح بالرءوس وغسل الأرجل إلى الكعبين، وما زاد على ذلك من المضمضة والاستنشاق سنة عند مالك والشافعى وأبى حنيفة، وواجب عند ابن حنبل، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: «**مَنْ أسبغ** (أى أتمّ) **الوضوء وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد عبده ورسوله ﷺ فتحت أبواب الجنة الثمانية ليدخل فيها من أيِّها أراد**». ويقول الله: إن التطهر واجب بعد الجنابة ﴿**وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ**﴾ أى أحدثتم ﴿**أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ أى أفضيتم إليهن ﴿**فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً**﴾

للوضوء فى هذه الأحوال ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أى اقصدوا وجه الأرض الطيب من التراب فى الوجه واليدين على هيئة مخصوصة .

ويأمر الله -تقدس اسمه- فى الآية الثانية المؤمنين بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى . والصلاة شعار عقيدة الإسلام وأهم أركانه بعد الإيمان بالله ورسوله ، وهى خمس صلوات يوميًا : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وكل صلاة إنما هى تكبير لله وتلاوة لفاتحة الكتاب وما فيها من الإيمان بوحدانية الله وصفاته وبالبعث والمعاد ، والاستعانة به ، والهداية إلى أعمال البر والخير ، مع تسبيحه مراراً ، ومع السلام على على رسوله والصلاة عليه . وهى راحة لنفس المسلم وطمأنينة ، وفى الحديث أن الرسول ﷺ كان كلما حزبه[1] أمر فزع إلى الصلاة لتفرّج عنه ما نزل به . من شأن الإخلاص فى أدائها أن يدفع المسلم إلى أن يحيا حياة طيبة يستشعر فيها الفضائل التى حض عليها الدين الحنيف . وإن أدركه ارتكاب لبعض الخطيئات والآثام غسلتها صلاته المتكررة خمس مرات يوميًا ، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ فى حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة : **«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه[2] شىء»**؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، قال ﷺ : **«فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا»** . وهو تمثيل رائع ، فالصلوات الخمس كنهر جار متدفق على أبواب المسلمين ، وكما أن النهر يغسل الدرن والوسخ الحسىّ ، فإنّ نهرَ الصلوات الخمس الربانى يغسل الوسخ والدرن المعنوى من الذنوب والآثام ويمحوها محواً .

والصلاة الوسطى فى الآية اختلف فيها فقيل : هى الصبح لتوسطها بين صلاة الليل المغرب والعشاء وصلاة النهار : الظهر والعصر ، وأيضًا فإن الله خصّها بالذكر فى قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] وهو قول عمر وابنه عبد الله والسيدتين عائشة وحفصة وعلى والإمامين مالك والشافعى . وقيل : بل هى العصر لتوسطه بين الصبح والظهر والمغرب والعشاء ، وهو قول ابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس والإمام أبى حنيفة . ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ المراد بالقيام هنا فى الصلاة ، وقانتين

أى خاشعين متذللين. وعن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قوله: مهما ركعت للصلاة حتى يصبح جسمك محنيًا كالسَّرْج، ومهما صمت حتى تصبح مشدودًا كوتر القوس فإن الله لن يقبل أعمالك حتى تضم إليها التذلل.

وكان الرسول ﷺ يحضُّ بقوة على صلاة المسلمين فى المساجد أو بيوت الله، من ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من أنه قال ﷺ: **«من تطهَّر** (أى توضأ) **فى بيته، ثم مضى إلى بيت** (أى مسجد) **من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة»**. **وكان يقصد بذلك أن ينتظم المسلم -ما استطاع- فى صلاة الجماعة بالمساجد**، لأن فى ذلك دعما للإخاء والمساواة الصادقة بينه وبين المسلمين، إذ يقف معهم فى الصلاة خاشعًا ضارعًا لربه، يكبر معهم ويركع ويسجد متوجهًا بقلبه إلى الله مستعينا به ومستغفرًا دون أى شعور بالتفاوت بينه وبين أحد من إخوته المسلمين، ومن أجل هذه الغاية من توثيق رابطة الأخوة بين المسلمين نوَّه الرسول ﷺ بصلاة الجماعة أفضل فى المساجد مرارًا وتكرارًا بمثل قوله ﷺ فى الحديث الثانى: **«إن الصلاة فى الجماعة أفضل من صلاة المنفرد وحده بسبع وعشرين درجة»، وقيل إن الجماعة فى الحديث أعم من أن تكون صلاتها فى المسجد أو فى غيره حيث كانت.**

والقرآن الكريم يقرن الزكاة بالصلاة فى الآية الثالثة وفى كثير من الآيات، وهى مثل الصلاة فريضة مكتوبة على كل مسلم، إذ أراد الله للمسلمين أن يكونوا أمة يسود فيهم البر والتعاطف بين المسلم وأخيه وبين المسلم والمصلحة العامة للأمة، فهو لا يعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضًا للجماعة، ومن أجل ذلك وُضع فى الإسلام نظام وعدَّتها الشريعة ركنًا أساسيًا فى الدين الحنيف، فواجب على كل مسلم أن يقدم للفقراء من ماله سنويًا حقًا مكتوبًا معلومًا عليه، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ حديثه الثالث؛ إذ يوصى معاذ بن جبل حين بعثه إلى أهل اليمن أن يأخذهم بالرفق واللين، فيدعوهم أولا إلى الشهادة بوحدانية الله، وأنه ﷺ رسول منه إلى الناس، فإن آمنوا بذلك فقل لهم: إن الله افترض عليكم خمس صلوات، فإن آمنوا بذلك وأدّوا الصلاة فقل لهم: إن الله افترض عليكم صدقة (أى زكاة) تؤخذ من أغنيائكم وترد على

فقرائكم. وارتضوا الزكاة كما ارتضوا الصلاة، ودخلوا فى دين الله أفواجًا. ومعروف أن الزكاة فى الإسلام هى: العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع فى دين الله دون مئونة، ونصف العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع بالآلات، وربع العشر فى رؤوس الأموال وبالمثل فى عروض التجارة.

والإسلام -بذلك- يقيم ضربًا من العدالة الاجتماعية فى الأمة، إذ جعل واجبًا على المسلم الغنى أن يرد ماله على الفقير وأشباهه المذكورين فى آية مصارف الصدقات بسورة التوبة، وسنفصل القول عنهم بحديثنا عن الصدقة فى غير هذا الموضع. وبذلك يترابط الأغنياء فى الأمة مع الفقراء وأشباههم ترابطًا اقتصاديًا، وهو ترابط أوجبه الإسلام كما رأينا؛ ولذلك كان أبو بكر خليفة الرسول ﷺ الأول مصيبا كل الإصابة حين رأى قتال مانعى الزكاة من العرب؛ إذ رأى فى ذلك نقضًا لركن من أركان الإسلام الخمسة وخروجًا على الدين الحنيف. ولما راجعه عمر بن الخطاب فى عزمه على قتالهم قائلاً: كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله»**، فرد عليه أبو بكر قائلاً: أليس قال: إلا بحقِّها. لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وجعلهم أبو بكر خارجين عن الإسلام مرتدين. ونشبت حروب الردة، وانتصر أبو بكر. وكان ذلك تثبيتا للإسلام ورسالته الدينية، وهى مفخرة عظيمة له على مدار الزمن، وأرفقها بالفتوح الإسلامية وإرسال الجيوش للجهاد فى سبيل الله، وهى مفخرة عظيمة ثانية له.

ويقول الله -عز وجل- فى الآية الرابعة: ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ أى يُسْلفه أو يقدم له سلفا صدقة مفروضة وهى الزكاة أو صدقة مندوبة، وسماها الله قرضًا لما سيقدم لصاحبها من الجزاء المضاعف عليها، ونعت الله القرض بالحسن يريد أنه لا يخالطه أذى من رياء أو تفاخر، ووعد المقرض بأنه سيضاعف جزاءه ﴿ **أَضْعَافًا كَثِيرَةً** ﴾ ويقول: إنه ﴿ **يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ** ﴾ أى إنه يقبض الصدقات، ويبسط أو يتوسع فى الجزاء عليها ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ يوم القيامة فترون جزاءها العظيم. ولما تلا الرسول ﷺ الآية

على الصحابة قال له أبو الدحداح الأنصارى : أو يريد الله منا القرض؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك ، فناوله يده ، قال : فإنى قد أقرضت ربى -عز وجلَّ- حائطى (بستانى) وكان فيه ستمائة نخلة . فبشره الرسول ﷺ بالجنة بشرى عظيمة . وآيات كثيرة يعد الله فيها المسلم الذى يبذل الصدقة المفروضة وهى الزكاة والصدقة المندوبة بالجزاء العظيم يوم القيامة ، وبالمثل أحاديث كثيرة تحث على الصدقتين ، مثل الحديث القدسى الرابع الذى يقول الله فيه لبعض عباده يوم القيامة : طلبتُ منك الطعام فلم تطعمنى إذ طلبه منك عبد من عبادى فلم تطعمه ، وكأن من يطعم فقيراً جائعًا يطعم الله . وما أعظمها من منَّة على عباده الفقراء والمساكين .

●●●

الصيام - الحج

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢- ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٣- ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

٤- ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الأحاديث:

١- عن أبي هُرَيْرة أن رسول الله ﷺ قال: (في حديث قدسي).. **قال الله: كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيامَ فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة[١]، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم،**

(١) جنة: وقاية من الشهوات.

والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وللصائم فرحتان يفرحهم: إذا أفطر فرح، وإذا لقى ربه فرح بصومة (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الصوم).

٢- وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم كم ذنبه» (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الصوم).

٣- وعن أبى هريرة: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول ا؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ›: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال ﷺ: ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه» (رواه مسلم فى كتاب الحج).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «من حج لله يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (رواه البخارى فى كتاب الحج).

والله -تقدس اسمه- يقول فى الآية الأولى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وهو الشهر التاسع القمرى فى السنة العربية التى تفتتح بالمحرم، وقد تشرف بإنزال القرآن فيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وإرشادا لهم إلى الدين الحنيف كى يؤمنوا به رسوله ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أى ودلائل وحججا بينة واضحة على صحة ما جاء به ﴿مِّنَ الْهُدَىٰ﴾ المضىء المنافى للضلال المظلم ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق المرسل به محمد ﷺ والباطل الوثنى الذى عبده العرب قبل الإسلام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ أى حضره فى بلده أو موطنه، وقيل: شهده أى رأى هلاله الذى يثبت بدءه كما أوضحت ذلك السنة بحديث: «صوموا لرؤيته (أى الهلال) وأفطروا لرؤيته (أى فى أول شوال) فإن غم عليكم (أى لم تروه) فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا». ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أى إن صيام شهر رمضان فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة.

والصيام فى اللغة الإمساك، وفى الشرع الإمساك عن الطعام والشراب من الفجر

إلى غروب الشمس، رياضة روحية للمسلم البالغ على ترك الشهوات والملذات فترات طوال شهر، ويتجه فيه بقلبه إلى ربه آملاً أن يسمو إلى مرتبة التقوى التى يحثه القرآن دائمًا على بلوغها وتلك إحدى فوائد الصيام، فهو إعلاء للروح، وتطهير للنفس من شهواتها وملذاتها، ومحاولة لبلوغ المسلم مرتبة التقوى المنشودة، وهو غذاء قوى لتمرينه على الصبر وتحمله لمشاق الحياة فى السلم والحرب. ومن شأن جوع الأغنياء وظمئهم فيه يجعلهم يعطفون ويشفقون على إخوانهم الفقراء فى الأمة، فيمدون لهم يد العون والمساعدة بالمال والطعام، وبذلك يتوطد ما يريده الإسلام لأتباعه من الإخاء الحقيقى والمساواة مثلما وطدتهما الزكاة والصلاة. ويريد الله بعباده المسلمين البالغين فى الصيام اليسر قائلاً: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وبذلك أُعفى المريض والمسافر والمرأة فى عادتها الشهرية من الصيام، على أن يؤدوا فى غير رمضان هذا الصيام فى أيام أُخر بعدد أيام إفطارهم. واختلف الفقهاء فى المرض ومقداره، وأولى الآراء أنه المرض الذى يسبب مشقة للصائم، إذ أطلق الله المرض ولم يحدده، أما السفر فإن شاء الإفطار كما رخصت له الآية أفطر، وإن شاء صام لأحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ فى ذلك. ويصور الحديث الأول -وهو حديث قدسى- مدى ما للصيام عند الله من ثواب عظيم، وفيه يقول الله: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لى وأنا أجزى به جزاءً عظيمًا**». ويقول الله فى هذا الحديث القدسى: «**الصيام جنة**» أى وقاية من التورط فى الآثام الدنيوية ومن عذاب الله فى الآخرة ومن الأمراض التى يسببها الإفراط فى الملذات والمأكولات. ويطلب الله من المسلم فى صيامه أن يحافظ على سموه الروحى، فلا يرفث أى لا يتكلم بكلام فاحش لزوجته أو غيرها، وأن لا يصخب فيعلى صوته غضبًا أو استياء، وإن سبه أحد وشتمه أو نازعه وخاصمه فليقل له إنى صائم، لعله يزدخر ويكف عن سبه ومخاصمته، ويقسم الرسول ﷺ بأن خلوف الصائم أى رائحة فمه المتغيرة من جوعه أطيب عند الله من رائحة المسك. وللصائم فرحتان: فرحة عاجلة فى الدنيا حين يفطر، وفرحة آجلة لما سيرى من ثوابه

حين يلقى ربه . ومعروف أنه رخص للشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم أن يفطر ويطعم عن كل يوم أفطره مسكينًا .

ورمضان وحده هو الذى فيه الصوم ويستحب صوم ستة أيام من شوال بعده لقوله ﷺ : **«من صام رمضان ثم أتبعه ستة من شوال كان كصيام الدهر»** ولا يدخل فيها يوم العيد . كما يستحب صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء . ويقول الله -جل شأنه- فى الآية : **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾** [البقرة : ١٨٥] واليسر دائمًا صفة أساسية فى الشريعة الإسلامية . وذكر الله ذلك عقب فريضة الصيام لما فيها من المشقة ، إيماء إلى أنه أراد بها اليسر على المسلم إذ خص شهرًا من شهور السنة بتلك الرياضة الروحية تطهيرًا لجسمه ، وسموًا بإقباله على الله ، ولفتًا قويًا إلى عون إخوانه من الفقراء والأرامل والمساكين . ويقول الله : إنه رخص للمريض والمسافر الإفطار على أن يصوما أيامًا أخرى بدلاً منها فى غير رمضان إكمالا لعدة الشهر . وحرى بالمسلمين أن يكبروا الله ويعظموه لما شرع لهم من فريضة الصيام التى تصفِّى قلوبهم وتشد أزرهم بعون المحتاجين من أمتهم وتعودهم تحمل المشقة فى الجهاد وغير الجهاد .

ويحدد الله فى الآية الثانية فترة الصوم فى اليوم وأنها تبدأ من الفجر حين يمتد بياض النهار على سواد الليل وعبر القرآن عن ذلك تعبيرًا رائعًا بقوله : **﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾** .

●●●

آيات الله الكونية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤].

٢- ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

٣- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣-٤].

٤- ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١-٣].

الأحاديث:

١- عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنه لما نزلت آية آل عمران ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ بكى الرسول ﷺ ليلتها طويلاً ثم قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**» (رواه ابن كثير فى تفسير الآية).

روى البخارى لسنده عن ابن عباس قال: بث عن خالتى ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد ونظر إلى السماء فقال: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ ثم قام فتوضأ واستعن، فصلى إحدى عشر ركعة، ثم أذن بلال فصل ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس (تفسير ابن كثير جـ٢، صـ ١٦٢.

وفى رواية عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ قام يصلت فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه غبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: ويحك يا بلال، وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل عليه فى هذه الليلة ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (تفسير ابن كثير جـ٢، صـ ١٦٤).

٢- عن على بن أبى طالب قال رسول ﷺ: «**لا عبادة كالتفكر**» (رواه ابن حبان).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك ربًا وخالقًا اللهم اغفر لى، فنظر الله إليه، فغفرله**». (رواه الثعلبى).

●●●

عالمية الإسلام

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦].

٢- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

٣- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١].

٤- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال الرسول ﷺ: **«إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»** (رواه البخارى فى خاتم النبيين ﷺ).

٢- عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: **«بُعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود».** (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٣- عن جابر بن عبدالله قال رسول ﷺ: **«كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت عامة»** (رواه البخارى ومسلم).

٤- عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال رسول ﷺ: **«إنى قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض»** (رواه البخارى فى باب علامات النبوة).

والله فى الآية الأولى يقول فى أثناء ردوده على أهل الكتاب: إننا لا ننسخ من آيات الكتب السماوية ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى نؤخرها؛ إذ أصل (ننسها) ننسئها، وأبدلت الهمزة

ياء تسهيلاً وحذفت؛ لأن الفعل معطوف على فعل مجزوم وهو (ننسخ). وأصل المعنى اللغوى للنسخ: الإزالة بشيء آخر، والمراد بالنسخ والتأخير فى الآية نسخ الآيات والأحكام فى الكتب الإلهية وتأخيرها. والآية ترد على ما كان يقوله بعض اليهود والنصارى من أن محمداً ﷺ لو كان رسولاً حقًّا ما نسخ القرآن كثيراً من أحكام التوراة والإنجيل. وفاتهم أن رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات النبوية، وأنها نسخت لمصلحة البشر المكلفين بعض شرائع التوراة والإنجيل، لنزولها فى عصور وظروف سابقة. يقول الله فى سورة الرعد: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أى عصر وزمن ﴿كِتَابٌ﴾ أى شريعة، إذ تقتضى الحكمة الإلهية أن تختلف كتب الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور والمجتمعات، و﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أى أن الله جل شأنه- ينسخ ما يشاء نسخه من آيات الشرائع وأحكامها، ويثبت ما يشاء إثباته بدلاً منها مما فيه مصلحة الجماعة البشرية ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى أن عنده علمه الأزلى بما يصلح للناس فى كل عصر وزمن.

ويشهد لنسخ الله آيات وأحكامًا فى التوراة والإنجيل قوله تعالى فى سورة الأعراف عن اليهود والنصارى الداخلين فى الإسلام بأنهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى المأكولات الطيبة ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى ما تستقذره النفوس من المطعومات وكل شيء ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى التكاليف الشاقة التى كلفوا بها فى التوراة والإنجيل. والآية الكريمة تذكر بوضوح أن القرآن الكريم ينسخ بشريعته آيات وأحكامًا متعددة فى التوراة والإنجيل كانت ترهق اليهود والنصارى. ويشير الرسول ﷺ إلى ذلك بلطفه الرائع فى الحديث الأول قائلاً ﷺ: إن مثله ومثل الأنبياء قبله فيما نسخ من شرائعهم وبدَّل وغيَّر من أحكامها مثل رجل يبنى بيتًا جميلاً وترك موضع لبنة منه، فأخذ الناس يطوفون بالبيت ويتعجبون: لِمَ تُرِك مكان هذه اللبنة خاليًا يقول الرسول ﷺ: «أنا اللبنة وأنا خاتم

(١) الإصر والأغلال: السلاسل والقيود.

النبيين». فأى لطف هذا التصوير لأخبار اليهود والنصارى الذي صور فيه شريعتيهما كلبنة بجانب شريعتيهما، وهو إنما أقام بشريعته صرحًا أروع وأبهر، ويصرح القرآن مرارًا بأنه يصحح ويصلح ما أدخله أحبار اليهود وعلماء الديانات السابقة على الكتب الإلهية من تحريفات، يقول فى سورة البقرة: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾. ويضيف القرآن أنه ينقذ أصحاب الكتب الإلهية من اختلافاتهم المريرة التى ولدت بينهم العداوة والبغضاء، كما نرى فى قوله تعالى مخاطبًا نبيه فى سورة النحل: ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ والقرآن بذلك يصلح نفوس أهل الكتاب بما يرفع من الخلافات بينهم فى حقائقهم الدينية، كما يصلح ما حرفوه من نصوص كتبهم الربانية. وقد أنزل القرآن وأنزلت شريعته رحمة بالناس لإنقاذهم من ضلالاتهم ومن خلافاتهم وافتراءاتهم على الرسل، ورحمة بما دعا إليه الله من الخير والبر والعدل، ومن رعاية الفقراء والأيتام والأرامل، ومن اجتناب الآثام والظلم والبغى والعدوان، إنه أعظم شريعة أنزلت إلى البشر لسعادتهم، وبذلك نفهم بوضوح قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ فى سورة المائدة: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ **بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ فهو مصدق للديانات الإلهية السابقة، أى أنه يؤيد بعض ما جاء فى الشرائع السابقة ويهيمن عليها أى يسيطر. ويؤكد الله هيمنة القرآن على الديانات السابقة بقوله فى سورة التوبة: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ أى لتكون هيمنة على الديانات[1] كلها وسلطان، فيصلح ما دخلها من تحريف وزيف وإضافة، وينسخ ما جاء فيها من أحكام مؤقتة روعى فيها مصلحة أقوام فى بعض العصور والأزمنة الماضية.

ويخاطب الله -عز اسمه- فى الآية الثانية رسوله ﷺ آمرًا له بأن يقول للناس جميعًا عربًا وغير عرب بأنه رسول الله ﷺ إليهم لا إلى العرب وحدهم بل إلى الجميع. وأكد

(١) الأدق وصفها بالشرائع السابقة؛ لأن دين الله واحد هو الإسلام.

ذلك الرسول ﷺ مرارًا، بمثل قوله ﷺ فى الحديث الثانى: «**بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود**»، والمراد بالأحمر الأبيض إذ العرب تسمى الأبيض أحمر أى أنه بعث إلى البشر جميعًا. وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قوله ﷺ فى الحديث الثالث: «**كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**». ويتردد فى القرآن الكريم أن الله -تقدس اسمه- أرسل كل رسول إلى قومه، فنوح أرسل إلى قومه وهود أرسل إلى عاد، وصالح أرسل إلى ثمود، ولوط أرسل إلى قومه، وشعيب أرسل إلى أهل مدين، وعيسى أرسل إلى بنى إسرائيل. ويقول الله فى سورة الروم: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ**﴾ فكل الرسل أرسلوا إلى أقوامهم ما عدا محمداً ﷺ فإنه أرسل إلى جميع البشر عربًا وغير عرب.

ويقول الله جل شأنه فى الآية الثالثة: إنه أرسل محمداً ﷺ ليكون نذيراً للعالمين، كما يقول فى سورة الأنبياء لنبيه ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾. وكلمة العالمين تتردد فى القرآن كثيراً، ومعناها العالم، فهو رحمة ونذير وبشير للعالم جميعه ويكرر الله فى سورة يوسف وص والقلم والتكوير أن القرآن - بما يحمل من شريعته- ذكر للعالمين أى للعالم جميعه. فهو ليس -كما يقول أعداء الرسول ﷺ ودينه الحنيف- سحراً ولا كهانة ولا أساطير الأولين، إنما هو ذكر ومواعظ تهدى البشر جميعًا إلى الدين القويم الذى يسعدهم فى الدنيا والآخرة.

والله -تبارك اسمه- فى الآية الرابعة يقول لرسوله ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾ أى إنا لم نرسلك لقريش والعرب فقط، بل أرسلناك للناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها لتبلغهم رسالتك ﴿**بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ لهم تبشر من آمن بك، فوحد الله واعتنق شريعتك وما فيها من أوامر ونواه ربانية، بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيمًا أبديًا، وتنذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض رسالتك وشريعتك بأن مصيره إلى عذاب النار الأليم. وإيمانا من الرسول ﷺ بعالمية دينه، وإنه قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض. ونراه بعد اعتناق أهل الجزيرة العربية للإسلام فى السنة الثامنة للهجرة يرسل جيشًا لغزو الروم، وبلغ مؤتة فى جنوبى الشام ولم يكتب له النصر وعاد. وفى

السنة التاسعة للهجرة يرسل كتاباً إلى كسرى الوثنى ملك إيران وآخر إلى قيصر المسيحى إمبراطور بيزنطة والروم يدعوهما إلى اعتناق الإسلام، وفى نفس السنة خرج بنفسه على رأس جيش لإعلام الروم برسالته وبلغ تبوك، ورأى أن يعود. وقبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أعد جيشاً ثالثاً لغزو الروم، وأنفذ الخليفتان أبو بكر وعمر فكرته وفتحت إيران واستولى المسلمون على مصر والشام أهم ولايتين لبيزنطة، كما استولوا فيما بعد على البلاد المغربية من بيزنطة وروما، ولم يكونوا غزاة فاتحين، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف وانتشر شرقاً وغرباً.

وهذه العالمية للإسلام فرض الله معها على الرسول ﷺ والمسلمون أن يتعايشوا فى ديارهم مع جميع من بها من أصحاب الديانات والملل إلهية وغير إلهية تعايشا سديدا على نحو ما سنبسط ذلك فى حديثنا عن الحرية الدينية والتسامح الإسلامى اللذين كفلا لجميع أصحاب الملل دون أى استثناء مع المحافظة لأصحاب كل ملة ودين على معابدهم وأموالهم وحقوقهم وأداء شعائرهم بحرية تامة. وكان المسلمون منذ جيلهم الأول فى عصر الخلفاء الراشدين يتعايشون هذا التعايش الجماعى مع أصحاب الكتب السماوية ومع الصائبة عبدة الكوكب فى شمال العراق، ومع المجوس عبدة النار فى إيران.

ومضى المجتمع الإسلامى بهذا التعايش الجماعى بين كل الأجناس والعناصر المكونة له حتى إذا شغف العرب بالاطلاع على ما لدى الأمم الأجنبية من معارف وثقافات تجرد لهم عشرات إن لم يكن مئات ينقلونها ويترجمونها لهم إلى العربية، وتموج بهم صفحات كتاب الفهرست لابن النديم، وقد بدأوا ذلك منذ أواسط القرن الأول الهجرى. وتكاثرت للمسلمين جموع النقلة والمترجمين فى القرنين التاليين من فرس وهنود وسريان، حتى لم يبق كتاب مهم لدى الهنود والفرس إلا نقل إلى العربية ونقلت الفلسفة اليونانية، وما كان لدى اليونان وغيرهم من العلوم. وانصهرت كل هذه الثقافات فى الفكر العربى وانطبعت بعالمية الإسلام وروحانيته، على نحو ما يتضح فى الفلسفة الإسلامية عند الكندى معاصر المأمون الذى يفتتح سلسلة الفلاسفة

الإسلاميين العالمين، وقد ساند المنطق منذ القرن الثانى العلوم اللغوية والشرعية. وأخذت تزدهر من حينئذ عالمية الإسلام فى العلوم وفى الآداب وفى الفكر العربى الإسلامى وفلاسفته: الرازى والفارابى فى القرن الرابع الهجرى، وابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس. ويشغل المشرق بالصليبيين فى القرن السادس ثم بالتتار. وتظل للإسلام عالميته الضخمة فى الأندلس من كنوز فلسفية وعلمية عربية، فوفد كثيرون منهم على قرطبة وطليطلة وتعلموا العربية. ونقلوا هذه الكنوز إلى اللاتينية، ويقول ألدوميلى الإيطالى فى كتابه «العلم عند العرب»: «ترجمت كل كتب العلماء العرب العظماء إلى اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد» وهو فضل عظيم لعالمية الإسلام على الغرب إذ كان منارة له فى مسالكه إلى حضارته الحديثة.

ويدل بوضوح على ما فى عالمية الإسلام من طاقات مدخرة عظيمة كانت تحميه دائمًا من الانهيار أنه بعد اكتساح التتار للإسلام فى بغداد اكتسحتهم عالمية الإسلام دينيًا فاعتنقوه جميعًا، وتكونت منهم دولة إسلامية كبرى، وبالمثل فى أثناء منازلة إسبانيا والغرب للإسلام فى الأندلس واكتساحهما له حربيًا اكتسحهم علميًا وحضاريًا، وتكونت فى شرقى أوروبا دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى. ولذلك نظن رغم ما حدث لعالمية الإسلام من ضعف سياسى لدولها واستعمار الغرب لها زمنًا أنها -بإذن الله- ستسترد قواها كاملة وتزدهر من جديد.

•••

الشورى - الإجماع

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢- ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

٣- ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٤- ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

الأحاديث:

١- عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه- قلت: يا رسول الله يحدث بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال ﷺ: «**اجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأى واحد**»(روته كتب التفسير).

٢- عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «**إن أمتى لا تجتمع على ضلالة**» (رواه ابن ماجة فى سننه والترمذى).

٣- عن عمر -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**من أراد أن يسكن بحبوحة[1] الجنة فليلزم الجماعة**» (رواه الشافعى فى الرسالة وابن منظور فى اللسان).

٤- عن أبى ذر- رضى الله عنه -قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة[2] الإسلام**» (رواه أبو داود فى سننه).

---

(١) بحبوحة: وسط.

(٢) قيد: قدر. ربقة الإسلام: عقده وعهده.

والآية الأولى تأمر رسول الله ﷺ بمشاورة أصحابه فى الأمر، أى فى كل ما يهم مصالح الأمة من شئونها فى الحرب والسلم، واختلف الفقهاء فى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ هل هو أمر للرسول ﷺ وحده أو هو أمر له وللأمة، والصحيح أنه أمر عام له وللأمة الإسلامية. واختلفوا أيضًا هل المشاورة واجبة على أولى الأمر أو مستحبة فقط؟ والصحيح أنها واجبة. وكان الرسول ﷺ يلتزمها مع صحابته فى الأمور المهمة المتصلة بمصلحة الأمة، من ذلك أنه لما أتاه الخبر بخروج جيش لقريش لحماية قافلة أبى سفيان الواردة من الشام بعروض التجارة استشار أصحابه فيما يصنعون: هل يتجهون للقاء القافلة أو للقاء جيش قريش؟ وتكلم بعض المهاجرين مؤثرًا لقاء الجيش، واستمر رسول الله ﷺ فى مشورته يريد أن يسمع رأى الأنصار. وبادر سعد بن معاذ الأنصارى- رضى الله عنه- قائلاً: يا رسول الله والله لو استعرضت[1] بنا هذا البحر (يريد البحر الأحمر) لخضناه معك، فسر بنا يا رسول الله حيث شئت على بركة الله. فسار رسول الله ﷺ للقاء الجيش القرشى حتى نزل على أقرب ماء من مياه بدر، واستشار أصحابه: أين يكون المنزل؟ وأشار الحباب بن المنذر بالتقدم حتى تحجز قريش عن ماء بئر بدر، وأخذ الرسول ﷺ برأيه، ودارت الدوائر على الجيش القرشى. وشاور الرسول ﷺ الصحابة فى غزوة أحد: هل يلقون الجيش القرشى داخل المدينة أو خارجها؟ وأشاروا بالخروج ونازلوه معه خارج المدينة. وشاورهم فى غزوة الأحزاب: هل يصالح قائدى غطفان بثلث ثمار المدينة لينصرفا عن الغزوة بمن معهم من الأعراب؟ وأبى ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيما الأنصار وأخذ بمشورتهما. وعلى هذا النحو كان يكثر من مشاورة أصحابه فى الحرب والسلم، وخاصة مشاورة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وبذلك كان يجعل الأمر من شئون الأمة ومصالحها شورى، وأوصى بها الصحابة بعده كما فى الحديث الأول. وطبعًا الشورى لعهد الرسول ﷺ إنما كانت فيما لم ينزل فيه قرآن ووحى من أمور التشريع الإلهى، مما يتصل بمصالح الأمة حربًا وسلمًا.

---

(١) استعرض بهم البحر: عرضهم عليه.

وكما تذكر الآية الأولى وجوب المشاورة بين الرسول ﷺ وأصحابه. تنوّه الآية الثانية بالشورى الدائمة بينه وبينهم فى كل ما يهم من الأمور حتى يتبين الرأى الصائب. ومعروف أن المهاجرين والأنصار تشاوروا بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فيمن يخلفه، ولم يلبثوا أن أجمعوا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وقد جعل الرسول ﷺ الشورى أصلاً من أصول الحكم فى الشريعة الإسلامية، وكان ينبغى أن يأتسى به حكام الأمة وينمّوها على مر العصور، إذن ما احتجنا إلى أن نأخذها عن الغرب فى عصرنا الحديث وما وضع لها من أنظمة.

وكما حث القرآن الكريم والحديث النبوى على الأخذ بالشورى فى مصالح الأمة حثا أيضًا على الإجماع، بحيث إذا أجمعت الأمة على رأى وجب الأخذ به. وهو بذلك يعد المصدر الثالث فى التشريع الإسلامى بعد كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وذهب الفخر الرازى إلى أن الآية الثالثة نص فيه، وأن الله يقول فيها: لا تكونوا مثل اليهود والنصارى الذين تفرقوا فى أصول دينهم شيعا وكفر بعضهم بعضا ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ والدلائل التى كان من شأنها أن تحول بينهم وبين التفرق والاختلاف والتناحر الشديد. والله -جل شأنه- يدعو الأمة على أنه حجة شرعية يجب العمل به على مسلم إلا ما كان من مخالفة بعض الخوارج والشيعة فى ذلك. والأحاديث التى تؤيد عصمة الأمة الإسلامية من الخطأ فى رأيها كثيرة، من ذلك الحديث الثانى: لا تجتمع أمتى على ضلالة، وقوله ﷺ: **«يد الله مع الجماعة»**، أى أنهم فى حمايته وتعمهم وقايته، ومثل ذلك قوله ﷺ: **«عليكم الجماعة»**، وقوله ﷺ: **«سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على ضلالة فأعطانيه»**، وقوله: **«ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»**. ومن ذلك الحديث الثالث الذى يجعل فيه سكنى وسط الجنة لمن لزم الجماعة ولم يشذ عليها. وذهب كثير من الفقهاء، إلى أن الإجماع الذى يعتد به إنما هو إجماع المجتهدين من الفقهاء فهم الذين ينعقد بهم الإجماع دون العامة، فموافقتها -مثل مخالفتها- لا يعتد بها فى الإجماع. غير أن الأحاديث النبوية السالفة تثبت العصمة

للأمة جميعًا خاصة وعامة، فلا يلزم أن تكون ثابتة للمجتهدين من الفقهاء وحدهم، بل هى ثابتة لجميع الأمة مما يترتب عليه أن يكون الاحتجاج بالإجماع قطعيًا عند دخول العوام فيه وظنيًا بدونهم، كما ذهب إلى ذلك الآمدى فى كتابه «الإحكام» وهو الصواب.

ولكن ما الأمور التى يدور فيها إجماع المسلمين؟ هى أمور كثيرة تتصل بحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وحفظ الدين إنما هو المحافظة على الشريعة وفروضها، وحفظ النفس هو المحافظة على الكرامة وحقوق الحرية فى العمل والفكر والقول، وحفظ العقل هو المحافظة عليه من كل ما يضره من مثل الخمر والمخدرات والقمار، وحفظ النسل هو المحافظة على إطعامه وتربيته تربية سليمة وتعليمه تعليمًا سديداً. وحفظ المال. وكل ذلك من حق الأمة أن تبدى الرأى فيه إذا كانت تدفع إلى ذلك مصلحتها، وطبيعى أن ما يرجع إلى حفظ الدين ثابت وأنه لا مدخل للإجماع فيما نص عليه الكتاب والسنة «نصًا قاطعًا» لا يحتمل التأويل.

وتشدد الآية الرابعة فى الأخذ بما اتفقت عليه الأمة وانعقد إجماعها عليه؛ إذ تذكر أن من يشاقق الرسول ويخالفه من بعد ما اتضح له هدى الدين الحنيف ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ أى نتركه وشأنه ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾. وإذ كان من لا يتبع سبيل المؤمنين وإجماعهم جزاؤه جهنم فإن اتباعهم واجب وبعبارة أخرى يلزمه هذا الاتباع فيما أجمعوا عليه. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الرابع: إن من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع عقد الإسلام وعهده، وهو تشريف للأمة الإسلامية لا يماثله تشريف؛ إذ ضمن لها الرسول ﷺ فى أحاديثه العصمة من الخطأ.

•••

الاجتهاد

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

٢- ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

٤- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

الأحاديث:

١- عن أم سلمة أم المؤمنين- رضى الله عنها- قال رسول الله ﷺ: **«إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلَى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فإنما أقطع له قطعة من النار»** (رواه مالك وابن حنبل والبخارى ومسلم فى كتاب الأقضية).

٢- عن معاذ بن جبل- رضى الله عنه- حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن أنه قال له: **بم تقضى؟** قال: «**بكتاب الله**»، **فإن لم تجد** قال: **أقضى بما قضى به رسول الله ﷺ**، قال: «**أجتهد رأيى لا آلو**[1]»، قال: «**الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسوله ﷺ**». (رواه الآمدى فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام ٤/ ٤٢).

٣- عن عمرو بن العاص- رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» (رواه البخارى فى كتاب الاعتصام).

---

(١) لا آلو: لا أقصر.

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» (رواه أبو داود فى كتاب الملاحم).

والآية الأولى تذكر أن الله -جل شأنه- أنزل القرآن على رسوله ﷺ بالحق الواضح الذى يحكم به بين الناس ، أى أنزله عليه بالأحكام الكلية التى تندرج فيها الأحكام الفرعية فى قضايا الناس، ويؤكد الله ذلك بقوله : ﴿**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾. واستدل الإمام الشافعى وفقهاء الأمة بهذه الآية على وجوب الاجتهاد فى فهم الشريعة. وجعله الشافعى رابع الأصول التى يرجع إليها فى الشريعة. والثلاثة قبله: الكتاب/ السنة/ والإجماع.

والله- فى الآية -قد وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ، وهو موجه إليه وإلى أمته كما فى كثير من آيات التنزيل، وبذلك الاجتهاد فريضة شرعية عامة، وعرفه الغزالى فى كتابه «المستصفى» بأنه بذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة فيما لم يأت فيه نص أو دليل قطعى كالصلوات الخمس فلا اجتهاد فيها. والاجتهاد دائمًا ليس فى الأصول إنما هو فى الفروع، كما نعرف عند أئمة المذاهب الفقهية الأربعة. ومجتهد الأمة الأول الرسول ﷺ، وكما يحدث أحيانًا للمجتهد من الخطأ حدث الخطأ لرسول الله ﷺ فى اجتهاده إزاء أسرى غزوة بدر من قريش. فقد طلبوا منه أن يفاديهم بالمال ولا يعودوا إلى حربه، فاستشار أصحابه- عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ -فأشارت عليه جماعة بالفداء فى مقدمتهم أبو بكر الصديق، قال: يا نبى الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وخالفه عمر قائلاً: يا رسول الله أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. واختار الرسول ﷺ رأى أبى بكر، فأخذ منهم الفداء، فأنزل الله عليه معاتبًا له ولمن ارتضى الفداء قوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ**﴾ أى حتى يغلظ فى الأذى وشدة الجراحة والقتل. ويقول

الله عقب الآية: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من أموال الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**لو نزل علينا عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر**». ويدل بوضوح على اجتهاد الرسول ﷺ، وأنه قد يخطئ فيه الحديث الأول الدال على أنه قد يسمع من الخصم لحنًا من القول أفصح وأبين فى الحجة من صاحبه فيحكم حكمًا مخطئًا وهو ما لم يحدث لأنه كان يلهم الحكم الصائب.

وفيما قدمت ما يدل على مشروعية الاجتهاد لجميع المسلمين، ويؤكد ذلك حديث معاذ الثانى الذى سأله الرسول ﷺ: بم يقضى أهل اليمن؟ فأجابه بكتاب الله ثم بسنة رسوله ﷺ، فإن لم أجد فيهما مستنداً اجتهدت برأيى غير مقتصر، واستحسن الرسول ﷺ منه هذه الإجابة. ومضى الصحابة يجتهدون بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومن أكثرهم اجتهاداً عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد منع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم من أشراف العرب إذ أعز الله الإسلام وأغنى عنهم، ومنع زواج المتعة، وأحدث صلاة التراويح، وأبطل قطع يد السارق عام المجاعة إلى غير ذلك من اجتهاداته. وتوزع الصحابة فى الفتوح الإسلامية وكان منهم مجتهدون كثيرون، وبالمثل فى التابعين، حتى لم يكد يخلو قطر من مجتهدين، وإذا تعدد المجتهدون فى قطر لم يكن أحد منهم يتعصب لرأى له ضد زميل عملا بقوله ﷺ: «**اختلاف أمتى رحمة**»، وكأنه لم يدع للاجتهاد فحسب، بل دعا أيضا لقبول اختلاف الرأى فى الاجتهاد.

والآية الثانية فى اختلاف أصحاب الديانات السماوية، والله جل وعز يقول: لكل منهم جعلنا شرعة ومنهاجا، وكأنه بذلك يجعل لكل مجتهد شرعة ومنهاجا يلتزمه، وقد عم التسامح إزاء الرأى الآخر لبعض الفقهاء، مما فسح للاجتهاد واختلافاته إذ جميعها اختلافات فرعية لا تمس أصول الإسلام على نحو ما هو معروف فى المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة التى نشأت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة. والاختلافات الكثيرة كلها لا تخرج عن شرع الإسلام وأصوله، وبذلك حفظ الاجتهاد الشريعة بالفتاوى الكثيرة التى أبداها فقهاء الشريعة فى النوازل والأحداث المستجدة، وفى ذلك يقول الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل: «نعلم قطعيًا ويقينًا أن الحوادث والوقائع فى

العبادت والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعيًا أيضًا أنه لم يرد فى كل ، حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضًا. والنصوص (أى القرآن والحديث) إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وكان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى عُلم قطعًا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».

وما زال الاجتهاد شائعًا ومعمولاً به بين فقهاء الأمة حتى عصر السيوطى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، وله كتاب فى الدفاع عن الاجتهاد سماه: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض». واتسع التقليد فى العصر العثمانى وبعده. وعاد الاجتهاد حرا منذ الشيخ محمد عبده، وهو بلا ريب فرض كما يقول السيوطى وأصل من أصول الشريعة الأربعة، إذ هو الرابع للكتاب والسنة والإجماع. وقد شاع الحديث الثالث عن النبى ﷺ فى الحقب الماضية وجعلوه عامًا بمعنى أن كل مجتهد -حاكما أو غير حاكم- إن أجتهد وأصاب فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد. وواضح أنه يحث بقوة على الاجتهاد.

والآية الثالثة تنص -بوضوح- على قاعدة الضرورة فى الشريعة، وهى فى الذبائح المحرمة، غير أنه ينبغى تعميمها لتفضيل فى كثير من المسائل التى تحدث للمسلمين فى عصرنا بعد أن تعقدت معيشتنا، وتعقد اقتصادنا، وتعقدت وسائل الإنتاج، فما يراه فقهاؤنا من علماء الاقتصاد مما يعد ضرورة ينبغى أن نقبله- بناء على اجتهادهم- لأنه لا مناص منه ولا مفر.

والآية الرابعة يقول الله -تبارك اسمه- فيها: ما كلفكم الله من حرج أو ضيق لا تطيقونه وما ألزمكم بشىء يصعب عليكم إلا أوجد لكم منه -باجتهادكم- فرجًا، وهى وما يماثلها فى القرآن من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ تفتح للمسلمين أبواب الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية على مصاريعها، كما يفتحها الحديث الرابع القائل فيه رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث للأمة كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، والتجديد أعم من الاجتهاد إذ يشمله ويشمل تجديد شخصيتها وما يتصل بها من الفضائل.

اليُسر

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

٣- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

٤ - ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين يُسر ولن يُشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا»** (رواه البخارى فى كتاب الإيمان).

٢- وقال رسول الله ﷺ: **«أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»** (رواه البخارى أيضًا فى كتاب الإيمان).

٣- وقال رسول الله ﷺ: **«إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء»** (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى).

٤- عن السيدة عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ **شيئًا فرخَّص فيه، فتنزه عنه قوم.** فبلغ ذلك الرسول فخطب، فحمد الله ثم قال: **«ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»** (رواه البخارى فى كتاب الأدب).

أنزل الله -تبارك اسمه- في الآية الأولى بشراه للمؤمنين بأنه يريد بتشريعاته لهم اليسر، ولا يريد لهم العسر عقب رخصته لهم بالإفطار فى رمضان للمرض والسفر وما يماثلهما من الأعذار، لأنه يريد بالمسلمين اليسر. واليسر معناه السهولة، وكأن الله قد ذكر الرخصة المذكورة فى الآية، وأعقبها بهذا البيان العام فى الشريعة الإسلامية، وأن أيام الصيام تقضى حين يعود المؤمن لحياته الطبيعية فيقضيها متتابعة أو متفرقة. ومما يسره له فى السفر القصر فى الصلاة، بحيث يصبح كل من الظهر والعصر والعشاء ركعتين، ويصلى العصر مع الظهر والعشاء مع المغرب، كل ذلك تيسيراً على المسافر. وإذا وجد المصلى الماء توضأ، وإن لم يجده بأن كان مسافراً فى الصحراء أو على متن طائرة تيمم بضرب يده على تراب أو على خشب أو على شىء مما يخرج من الأرض، وراء هذه التيسيرات تيسيرات لا تكاد تحصى فى التشريع جديرة بأن يكتب عنها كتاب مستقل. وبحق يقول الرسول ﷺ لأصحابه: «**يسروا ولا تعسروا**»، فإن الدين - كما يقول فى الحديث الأول- بنى على اليسر، وفى وصيته لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى حين أرسلهما أميرين إلى اليمن: «**بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا**» حتى يجتمع الناس إليهما ويستمعوا إلى القرآن: هدى الله، فيهتدوا. وينصح الرسول ﷺ فى الحديث الأول أن لا يشدد أحد فى الدين ويحاول التعمق فيه حتى لا يغلبه الدين ويعجز عن مشادّته ومقاومته لكثرة وجوه العبادة فيه، والرسول، لذلك يدعو المؤمن أن يترفق بنفسه، وله فى ذلك مواقف مشهودة مع بعض الصحابة، منها أن ثلاثة منهم تعاهد أولهم أن يظل يصلى لربه ليلاً ونهاراً، وتعاهد الثانى أن يظل صائماً الدهر فلا يفطر، وتعاهد الثالث أن لا يتزوج أبداً حتى يخلص لعبادة ربه. فذهب الرسول ﷺ إليهم، وسألهم عما تعاهدوا عليه فشهدوا بذلك على أنفسهم، فقال لهم: أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء. وهذه شريعتى وسنتى فمن رغب عنها فليس منى. فانتهوا عما كانوا قد عزموا - وأصروا- عليه. وقصته مع عبد الله بن عمرو بن العاص مشهورة، فقد أخبر الرسول

ﷺ أنه يقول: والله لأصومنّ النهار وأقومنّ الليل مصليًا ما عشت، فاستدعاه لبرسول ﷺ وقال له: «**هل قلت ذلك؟** قال عبد الله: نعم قد قلته يا رسول الله. قال: **فإنك لا تستطيع أداء ذلك فصم وأفطر ونم وقم أى صلّ، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر.** قال عبد الله: إنى أطيق أفضل من ذلك: قال الرسول ﷺ: **فصم يومًا وأفطر يومين**، فقال عبد الله: إنى أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **لا أفضل من ذلك**».

والآية الثانية كالآية الأولى تجعل التخفيف فى أمور الشريعة مُراعى، يراعيه الله كما يراعى التيسير، رفقًا بالأمة الإسلامية ورفقًا بأفرادها؛ إذ الإنسان خلق -كما نقول الآية- ضعيفًا، والله لذلك يخفف عن المسلمين ويرفق بهم وبالمثل رسوله. فمن ذلك أن بعض المصلين خلف معاذ ابن جبل شكوا إلى الرسول ﷺ من تطويله فى صلاته بهم، فقال له أفتَّان أنت؟ والشريعة الإسلامية -بذلك- تُعد أفضل الشرائع السماوية لقيامها على اليسر والتخفيف. وشهد الرسول ﷺ فى الحديث الثانى قائلا: إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، والحنيفية: الشريعة الإسلامية القائمة على ركنين عظيمين من التخفيف والتيسير على المؤمنين. ومما يصور ذلك الحديث النبوى الثالث الذى يدعو فيه الرسول ﷺ من يؤمون الناس فى الصلاة إلى أن يأخذوا أنفسهم فيها بالتخفيف إشفاقًا على من وراءهم، فإن بينهم الضعيف والسقيم والكبير المسن.

والآية الثالثة تبين بدورها فضل الشريعة الإسلامية وأن الله لم يجعل فيها من حرج أو ضيق، بل جعلها قائمة على السهولة والتيسير والتخفيف، وبذلك كانت شريعة عالمية بحق، فهى سهلة ميسورة بكل فروضها ومقاصدها على أهلها وعلى من يعتنقها من الأمم وأصحاب الملل الأخرى. وكان الرسولﷺ يعرض رخصًا فى الشريعة، وكان بعض الصحابة يرى أن لا يأتيها طلبًا للمشقة على نفسه إرضاء -فيما يظن- لربه، فكان الرسول ﷺ يضيق بتصرفهم، ويبلغ به الضيق أن يخطب فيهم ناهيًا من يمتنعون عن بعض رخصه، ويصور ذلك الحديث الرابع إذ بلغه أن قومًا يتنزهون عن

إحدى رخصه، فلامهم لومًا شديداً قائلاً إنه يأتى هذه الرخصة وهو أعلمهم بربهم وأشدهم له خشية. وكان ما يزال يحبِّب الصحابة فى إتيان الرخص التى منها الله لهم تسيراً عليهم ورفقًا لهم ومحبة، وكان ﷺ يقول: «**إن لله يحب من عبده أن يأتى رُخصه**».

ولعل فى ذلك كله ما يشهد -بصورة واضحة- أن الشريعة الإسلامية تقوم على اليسر، وأنه يعد أصلاً أصيلاً فيها كما شهدت بذلك الآيات والأحاديث السابقة وآيتا سورة الشرح: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ والسورة فى خطاب الرسول ﷺ، وقد يكون العسر فى الآيتين خاصًا به وأنه لا بد أن يعقبه يسر، والأولى أن يكون عامًا له ولأمته، ويرجح ذلك أنها لما نزلت قال الله ﷺ: «**أبشروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين**»، وكأن تعريف العسر فى الآيتين جعله عسراً واحداً، بينما بتنكير اليسر تعدد، فأصبح يسرين، وكأن كل عسر فى الشريعة الإسلامية يقابله يسران، فما أيسرها وأجلها من شريعة!

•••

التوسط

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢- ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٣- ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: ٢٨].

الأحاديث:

١- قال ﷺ: «**خيار الأمور أوساطها**» (رواه المفسرون واللغويون).

٢- عن أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- أن الرسول ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها (كثرة) قال ﷺ: **مَهْ** (أى اكْفُفْنَ) **عليكن** (من العمل) **بما تُطقن فوالله لا يملُّ الله** (من الثواب) **حتى تَمْلُلن** (من العمل) **وأحب الدين إلى الله ما داوم صاحبه عليه** (رواه البخارى فى كتاب الإيمان.

٣- عن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون. قالها ثلاثًا..**» والمتنطعون: المتعمقون فى الدين المتشدِّدون فى غير موضع التشدُّد (رواه مسلم فى كتاب العلم وابن حنبل فى مسنده).

٤- قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى**» (رواه البخارى فى كتاب الإيمان).

ويقول الله -تقدس اسمه- فى الآية الأولى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ** ﴾ مشيرًا إلى تعظيم ما سيذكر بعد اسم الإشارة وهو أنه جعل المسلمين ﴿ **أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ والوسط اسم للموقع بين طرفى مواقع مختلفة كقولنا: وسط الجزيرة ووسط الوادى ووسط الحقل، وهو

أيضًا اسم لما بين طرفي شيء مثل : وسط الحبل ووسط الغرفة ووسط الدار ، ومن ذلك واسطة العقد ، وهي الجوهرة النفسية التي تتوسط درر العقد . وفسرت الكلمة في الآية بأنها تعني خيارًا من الخير لقول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وأريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات وأداءها أحسن أداء . وقيل : بل المراد بكلمة (أمة وسطا) أنها أمة عادلة تلتزم التوسط في كل شئونها على نحو التزامها للعدل المتوسط بين الشفقة والقسوة . فهي تتمسك دائمًا في الأخلاق بالتوسط والعدل . فتتمسك مثلاً بالكرم المتوسط بين الإسراف والشح ، وبالشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن ، ويحق يقول الرسول ﷺ في الحديث الأول : «خيار الأمور أوساطها» ويقول فخر الدين الرازي في تفسير الآية : ويجوز أن يكون وسطًا بمعنى أنهم متوسطون في الدين بين الإفراط والتفريط ؛ لأنهم لم يغلوا كما غلا النصارى فجعلوا المسيح ابن الله ولا فرطوا كما فرط اليهود ، فبدّلوا وحرّفوا التوراة وقتلوا أنبياءهم واستخفوا برسلهم .

وقد كرر الرسول ﷺ طلب هذا التوسط من أمته الإسلامية في دعوته المستمرة إلى صحابته من الرجال والنساء أن لا يسرفوا ويشتطوا في عبادتهم لربهم على نحو ما نجد في الحديث الثاني ، فقد دخل على زوجته السيدة عائشة ، فوجد عندها امرأة ، فسألها عنها ، وأجابته قائلة : إنها تذكر إكثارها من الصلاة ، فقال : مَهْ زجرًا عن هذا الإكثار ، وربما كان يزجر السيدة عائشة لمدحها المرأة بكثرة في صلاتها ، وقال : عليكن من العمل والصلاة بما تستطعن الدوام عليه ، فإن الله لا يمل من الثواب ، بينما تمللن من العبادة ، وقال ﷺ : «إن الله يحب من عبده مداومته على عبادته ولو كانت قليلة» ، يريد الرسول ﷺ يقول للسيدة عائشة وصاحبتها : إن دوام العبادة القليلة أكثر ثوابًا عند الله من العبادة الكثيرة التي تشق على صاحبها أو صاحبتها ، فيضطران إلى قطعها أو تقطيعها ، فقليل دائم في الصلاة أو في العبادة خير من كثير لا يدوم . والرسول ﷺ بذلك يريد للمسلم أن يرفق بنفسه في عبادة ربه ، ولا يقسو عليها . ومرّ بنا حديث عبدالله بن عمرو مع الرسول ﷺ حين علم أنه يريد أن يصوم الدهر ونهيه عن ذلك ،

ولهذا الحديث روايات مختلفة، منها أنه علم أنه يصوم النهار ويقوم (أى يصلى) الليل، فقال له الرسول ﷺ: لا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم (أى صَلِّ) فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك (زُوارك) عليك حقًا، ويحسبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشرة أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر. وكان الرسول ﷺ ما يزال ينصح المتعمقين فى الدين أن يخففوا عن أنفسهم، ومن قوله لهم الحديث الثالث: «هلك المتنطعون». وكرر هذا القول ثلاث مرات، والمتنطعون هم الذين يشددون على أنفسهم فى الدين، فيبالغون ويفرطون، والسداد التوسط من غير إفراط ولا تفريط أو من غير مبالغة ولا تقصير.

ومن أحاديث الرسول ﷺ المتداولة المشهورة حديثه الرابع: إن هذا الدين متين أى قوى، فأوغل فيه برفق، ولا تحمل على نفسك ولا تكلفها وتشق عليها بما لا تطيقه، فتعجز، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أى بعيرًا أبقى، والمنبت: الذى أتعب بعيره حتى عطب ولم يستطع السير، فبقى فى الطريق منقطعًا، استعار الرسول ﷺ لمن يتعب نفسه فى العبادة حتى لا يستطيع المضى فيها عجزًا وعدم استطاعة. وكان قد آخى بين سلمان وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذّلة أى ليس مزدانة لزوجها، فقال لها: ما شأنك؟ أى لماذا أنت متبذلة، فقالت له: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع لسلمان طعامًا، فقال له: كُل فإنى صائم، قال له سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل معه، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم (يتهجد) فقال له سلمان: قُم الآن، فصليا جميعًا، وقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه، وأتيا النبى ﷺ، وذكر سلمان ذلك له، فقال الرسول ﷺ: «صدقَ سلمان». روى هذا الحديث البخارى. وفى بعض الروايات أنه قال لأبى الدرداء: سلمان أفقه منك، ويقول الله للرسول ﷺ فى سورة طه: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ والشقاء فى الآية فرط التعبد فهو لم ينزل القرآن ورسالته العظيمة على الرسول ﷺ ليكون سببًا فى شقائه أو شقاء المؤمنين وتعبهم وعنائهم المفرط، بل أنزلناه ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الله ويعبده دون عناء أو مشقة مفرطة، أو بعبارة أخرى دون إفراط فى العبادة أو تفريط.

والله ورسوله بذلك يدعوان المسلمين إلى التوسط فى العبادة دون إرهاق أو عناء شاق.

والله -تقدس اسمه- فى الآية الثانية يأمر المسلمين بالمحافظة على أداء الصلوات وما فيها من تحميده وتسبيحه، وأداء الصلاة الوسطى بين فروض الصلوات الخمس وفى الحديث: إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة فى أول وقتها، وخص الله من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، واختلف فيها: هل هى صلاة الصبح لتوسطها بين صلاة الليل: المغرب والعشاء، وصلاة النهار: الظهر والعصر، وقيل: هى صلاة العصر لتوسطها بين صلاة الصبح والظهر وصلاة المغرب والعشاء، والأصح أنها صلاة الصبح وهو قول عمر وابنه عبدالله وعلى والسيدة عائشة، والسيدة حفصة، وهو قول الإمامين مالك والشافعى، واحتج الشافعى بقول الله فيها: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ والقنوت لا يكون إلا فى صلاة الصبح، ثم هى التى تكثر فيها المعوقات وخاصة النوم، وهى التى امتدح الله فيها قراءة القرآن بقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

والآية الثالثة تشير إلى قصة بستان كان صاحبه يتصدق بكثير من تمره وعنبه على المساكين، فلما مات رأى أبناؤه منع هذه الصدقة وجَنْى ما فيها من التمر والعنب قبل طلوع الشمس، حتى لا يتعرض لهم أحد المساكين، وسلط الله على البستان ما أحرقه فلما ذهبوا إليه لجَنْى الثمار بهتوا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أى خيرهما: أأحثكم على تسبيح الله وشكره. وعرفوا أنهم كانوا ظالمين لعزمهم على حرمان المساكين، وأخذوا يتلاومون. وإنما ذكرنا هذه الآية والتى قبلها لصلتهما بمعنى التوسط، فالصلاة الوسطى تتوسط صلوات اليوم، والأوسط خير إخوته وأعدلهم.

●●●

الحرية الدينية - التسامح

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

٣- ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

٤- ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

الأحاديث:

١- عن ابن عباس أن رجلاً مسلمًا من الأنصار كان له ابنان نصرانيان، فقال للرسول ﷺ: «ألا أستكرههما (أي على الإسلام) فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه على رسوله ﷺ الآية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (رواه ابن كثير في تفسيره).

٢- عن ابن عباس: كان الرسول ﷺ يأمر بأن لا يتصدق المسلمون إلا على أهل الإسلام حتى نزلت آية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألهم من كل دين (رواه ابن كثير في تفسير الآية).

٣- في الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً**» (رواه مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه).

٤- عن ابن عباس: كان الأسراء في بدر من قريش مشركين، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء (رواه ابن كثير).

الآية الأولى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ المراد بالدين فيها الإسلام وحكمها عام، فلا يكره أحد على الدخول فيه، إذ الإسلام يكفل للناس الحرية الدينية، فلا يجبر أحد على الدخول فيه مكرهًا قهرًا، بل يترك الناس وما اختاروا لأنفسهم. وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للحرية الدينية، وفى ذلك يقول الله لرسوله ﷺ منكرًا عليه شدة حرصه على إيمان أهل مكة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى أنه ينبغى أن يترك للقرشيين حريتهم فى اتباع الإسلام فإنه واضح بدلائله وبراهينه، ولا يحتاج إلى كثرة الحث من الرسول ﷺ على الدخول فيه. وشق ثان لهذه الحرية الدينية فى الإسلام هو معاملته لأهل الكتاب من النصارى واليهود بالحسنى، وتوضح ذلك معاهدة الرسول ﷺ نجران وفيها يقول:

«لنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم (كنائسهم) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يغير أُسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية. ومن سأل منهم حقًا فلهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين».

وهى وثيقة فى عهد الرسول ﷺ ظلت تحمل قواعد التعامل السمحة للمسلمين مع أهل الكتاب فى جميع الأقطار الإسلامية شرقًا وغربًا، فمعابدهم تحترم ويؤدون شعائرهم الدينية بحرية كاملة دون أى إزعاج لهم. ويزيدنا بيانًا فى هذا التسامح الإسلامى عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- لأهل إيليا (بيت المقدس) النصارى وفيه يقول:

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (كما طلبوا). وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية.. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين».

والجزية التى كانت تفرض على أهل الكتاب فى الأقطار الإسلامية إنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد وكانوا يعفون منه، ولذلك كانت لا تؤديها المرأة ولا الشيخ ولا الصبى ولا الرهبان، وكانت زهيدة إذ لم تكن تزيد عن دينار -غالبًا. وهذا العهد للخليفة عمر بجانب معاهدة الرسول لنصارى نجران ظلا معًا القواعد المتبعة فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب شرقًا وغربًا طوال العصور الإسلامية إلى العصر الحديث. وتروى أحاديث مختلفة عن التعامل بالحسنى مع أهل الكتاب وأن لا يؤذيهم المسلمون أى إيذاء أو يضروهم أى ضرر.

والآية الثانية نزلت بإباحة الصدقة على الكفار، وكان الرسول ﷺ ينهى المسلمين عن التصدق على فقرائهم أملاً فى أن تدفعهم حاجتهم إلى اعتناق الإسلام، وكأنه يريد منهم أن يسلموا قسراً أو إجباراً، فتزلت الآية تلفت الرسول ﷺ إلى أن واجبه إنما هو تبليغ الدعوة إلى الإسلام والإرشاد إليه، أما إسلام الناس ودخولهم فى دينه فراجع إلى حريتهم واختيارهم دون قهر أو إلجاء. والله يقول للرسول ﷺ: إنك لست مكلفًا بهدايتهم فلا يمسّك حزن لعدم إسلامهم، ودع المسلمين يتصدقوا على فقرائهم، وهو تسامح عظيم معهم؛ إذ يطلب الله من الرسول ﷺ والمسلمين أن يتصدقوا على الفقراء من مشركى قريش أسوة بتصدقهم على الفقراء من المسلمين، ويقول: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى أن هدايتهم إلى الإسلام مفوضة إليه وهو لا يجعلها قهراً ولا إجباراً. ويحض الله على الصدقة عامة، فإن من ينفق فثواب إنفاقه راجع إليه ما دام يبتغى وجه ربه.

•••

العدل

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

٢ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

٣- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠].

٤ - ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

الأحاديث:

١ - قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر يعجل أن الله عقوبته فى الدنيا من البغى، مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة فى الآخرة**» (رواه ابن كثير فى تفسيره).

٢- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأولهم: إمام عادل**» (رواه مسلم فى كتاب الزكاة، والبخارى وابن حنبل فى مسنده والنسائى).

٣- قال رسول الله ﷺ: «**إن الله مع القاضى ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه**» (رواه ابن ماجة فى كتاب الأحكام).

٤ - عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن**» (رواه مسلم فى كتاب الإمارة).

والله فى الآيات الأولى يقول: إنه وضع الميزان أى العدل فى خلقه للسموات والأرض، بحيث أصبح قانونًا عامًا ينتظم به الكون وموجوداته، فكل شىء فيه خُلق بالعدل فى نفسه فلا يطغى فيه جزء على جزء، ومع غيره فقد وُضع مع الموجودات بقسطاس محكم غاية الإحكام، بحيث يسودها جميعًا قوانين عدالة عامة دون أى تفريط فى شىء أو إفراط. ويكفى أن ننظر إلى ما أنعم الله به على الإنسان من كفيه، فإنه لم يجعل الكف دون أصابع كخُفِّ البعير ولا جعلها ذات قدر واحد، بل جعلها متفاوتة فى القدر حتى ينتفع بها الإنسان فى الإمساك بالأشياء والقبض عليها، وهو معنى قوله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ أى سوّاه وأوجده فى صورة مقدرة تقديرًا محكمًا مضبوطًا لأداء ما خلق له، صورة سنتها إرادة الله وحكمته العليا، صورة كاملة، كما قال فى سورة طه إنه ﴿**أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ أى أنه أعطى كل شىء من الموجودات هيئته الخاصة وما يحتاجه، فتكونت بذلك الأجناس والأنواع والفصائل والأفراد، فى صور مقدرة تقدير عدالة محكمة غاية الإحكام.

ويقول الله فى الآية الثانية: ﴿**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ واختلف المفسرون فى كلمة الميزان فى الآية، فقيل: المراد بها العدل الذى أنزلناه فى القرآن والذى يدعوكم إلى الإنصاف فى المعاملة وأن لا ترتكبوا أى ظلم. وقال بعض المفسرين: المراد بالميزان فى هذه الآية والسابقة لها الميزان الحقيقى، والمراد بالطغيان الحيف فيما يوزن زيادة ونقصًا، فكل منهما طغيان واعتداء وبغى. والأولى أن يكون المراد بالميزان فى الآية العدل الذى جعله الله قانونًا وجوهرًا ثابتًا فى خلقه. ولو أن المعتزلة -فى العصر العباسى- تنبهوا إلى ذلك ما أتعبوا أنفسهم فى إثبات وجوب العدل على الله، وهو يلزم به نفسه لا فى الكون والحياة الدنيا فحسب، بل أيضًا فى الآخرة إذ يقول: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ وهى موازين عدالة إلهية دقيقة منتهى الدقة، وهى عدالة أراد الله للمسلمين وشريعتهم أن تعمّ لا فى موازين الشراء والبيع ومكاييلهما فحسب، بل أيضًا فى كل ما

يأتون ويصنعون من الأمور، بحيث لا يبغى قوى على ضعيف ولا قادر على عاجز ولا غنى على فقير، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا من البغى أى الظلم مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة فى الآخرة**».

والله -عز سلطانه- يأمر المسلمين فى آية سورة النساء إذا حكموا بين الناس فى القضاء أو فى المصالحات حكموا بالعدل الذى لا تصلح حياة الأمة والأفراد بدونه، إذ يصبح كل صاحب حق آمنًا مطمئنًا على حقه، أما إن كان الحاكم ظالمًا فإن حياة الأمة تصبح مدلهمة بشعة، وتغيب عن الناس الثقة والطمأنينة. وكيف يطمئنون أو يثقون فى سلطان حاكم باغ يقوم حكمه على الاستطالة والقهر. ولذلك شدَّد الرسول ﷺ مرارًا على أن يكون الحاكم عادلاً حتى يعيش الناس فى أمان واطمئنان ومساواة تجعلهم فى مأمن من كل عبث بحقوقهم ومن كل طغيان. ويروى أن إمبراطور بيزنطة أرسل إلى الخليفة عمر -رضى الله عنه- هدايا من الثياب، فلما دخل رسوله ﷺ المدينة سأل عن دار الخليفة، فدلوه عليها، ووجدها بيتًا صغيرًا وعليه باب قديم، وكان يظنها قصرًا. ولم يجده، وقيل له: إنه خرج إلى السوق لحاجة له ولمراقبته، فمضى يطلبه، وتصادف أنه وجده نائمًا فى ظل حائط، ولا حرس، فقال توًا: عدلت فأمنت فتنمت حيث شئت، وأمراؤنا ظلموا فاحتاجوا إلى الحراس والحصون. وبدون ريب إشاعة القاضى والحاكم للعدل فى الأمة يشيع فيها الرضا ويعصمها من الخوف والقلق، ويجعل حياتها رائقة مشرقة؛ ولذلك يشيد به الرسول ﷺ فى الحديث الثانى، ويقول: إن الإمام العادل واحد من سبعة يظلهم الله فى ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله. أما إذا عبث الحاكم بأمانة الحكم وقطع الصلة بينه وبين العدل فى حكمه، فلم يأمر صاحب الحق حقه، ولم يُسَوِّ بين الناس فيما لهم من حقوق، بحيث يرد إلى كل شخص ما يستحقه، حينئذ يصبح حاكمًا جائرًا، ويتخلى الله العظيم العادل عنه ويكله أو يتركه إلى نفسه، حتى يعرض عليه يوم القيامة، وهو يحمل ذنوب ظلمه على ظهره، ويعاقبه الله عقابًا شديدًا.

وفى آية سورة النحل يأمر الله بالعدل أمرًا عامًا كل مسلم، فعليه أن يكون عادلاً فى

كل ما يتصل بذاته من حقوق، فيؤديها، كما يؤدى بعدل جميع عباداته وجميع صور المعاملات للأقارب وللناس، أما لله فيؤدى له حقوق من العبادات ومن كل ما أمرنا به، وأما للأقارب فيكون باراً بهم، ولا بد أن يلتزم العدل فى عشرتهم، وعشرة زوجته وأبنائه، وعشرة أصدقائه وجيرانه. ولا بد أن يكون عادلاً بصفة عامة فى أقواله وأفعاله، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ ويطلب الله العدل حتى مع الأعداء إذ يقول: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ والشنآن شدة البغض، ومعه ومع العداء الشديد كما كان بين المسلمين والكفار يأمرنا الله بالعدل والإنصاف، ويسميه مراراً بالقسط مرادفه منا فى آية سورة الحجرات الرابعة، وهو بذلك يريد للمسلمين أن يصدروا فى كل أعمالهم عن هذه الصفة المثالية التى تجعل حياتهم حياة سلام وصفاء وأمن ورضا وطمأنينة، ويبشر الرسول ﷺ فى الحديث الرابع المقسطين العادلين فى حكمهم وأهلهم ببشرى عظيمة، إذ سيكونون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وهى بشرى ضخمة يستحقها هؤلاء العدول الجديرون بها من ربهم.

●●●

العلم

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٢- ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

٣- ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

٤- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

الأحاديث:

١- عن معاوية قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**» (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى كتاب الزكاة).

٢- عن أنس -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع**» (رواه الترمذى).

٣- عن أبى الدرداء قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سلك طريقًا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**». (رواه أبو دواد والترمذى).

٤- عن أبى أمامة قال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير**». (رواه الترمذى).

كان الله فى سورة التوبة قبل الآية الأولى يحرض المسلمين بقوة على الحرب لإعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الدين الحنيف ونشره، وعقَّب على ذلك فى هذه الآية بالحض على جهاد فريق منهم فى التفقه بالدين الحنيف وشريعته وتعاليمها ليكونوا هداة لقومهم الذين دخلوا فى الإسلام. وبذلك جعل القرآن التفقه فى الدين لتأييد الإسلام مساويًا للجهاد الحربى فى نشره وتثبيته، فهو جهاد سلمى بجانب جهاد المحاربين المدافعين عن الإسلام، جهاد لا يقلُّ عنه مثوبة وشرفًا، ويؤيد الرسول ﷺ الآية بقوله: إن من يُرد الله به خيراً فى دنياه وآخرته بفقهه فى الدين، من التفقه وهو فهم ما يخفى ويدق من الدين عن طريق مدارسة أحكامه الشرعية، مما جعل المدينة- فى عهد الرسول ﷺ وبعده- تتحول إلى دار تعليم كبرى لأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها. وكان الرسول يبعث ببعض صحابته معلمين إلى مدن الجزيرة العربية وقبائلها يعلمون المسلمين الجدد شريعة دينهم فى العبادات والمعاملات والسلوك القويم الخلقى والاجتماعى والإنسانى. وما إن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ونشأ عصر الفتوح من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى إلا ونجد المسلمين فى كل بلد يفتحونه يبنون فيه مسجداً ويتجرد نفر منهم لتعليم أهله الشريعة الإسلامية. وسرعان ما تعرَّب هذا العالم الشاسع ودخلت كثرة من سكانه فى الدين الجديد، وقامت فى بلدانه حركة تعليميه واسعة. وبذلك لم يكن الإسلام دينًا فقط بل كان أيضًا شريعة وعلمًا وتفقها وحضارة.

والأمر فى الآية الثانية موجَّه إلى الرسول ﷺ -والمسلمين معه- إذ كل أمر موجَّه إليه فى القرآن الكريم موجه أيضًا إلى المسلمين، والآية تأمر الرسول ﷺ والمؤمنين أن يدعوا الله دعوة مخلصة أن يزيدهم علما، وفى ذلك ما يُعْلى من العلم. والله -جلَّ شأنه- دائمًا يُعْلى منه إعلاء عظيما، وقد جعله ميزة عظمى لآدم أبى البشر، إذ قال للملائكة فى أوائل سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وعجزوا فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمرهم

بالسجود له ﴿فَسَجَدُوا﴾ . والله -بذلك- جعل منزلة علم آدم بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة بحمده وتقديسه مما يرفع مكانة العلم إلى أقصى الدرجات ، وهو ما دفع المسلمين إلى معانقة العلم فى جميع عصورهم .

والآية الثالثة تشير إلى أن علم الإنسان بالموجودات والحقائق محدود بل هو علم قليل ، ويتلطف الله بالمسلمين فى كتابه العزيز ، فيشير إشارات مختلفة إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية والطبية ، ومن إشاراته إلى العلوم الأولى قوله فى سورة البقرة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . والآية تذكر خلق الله للموجودات فى الكون سماء وأرضا وإلى جريان الفلك فى البحار بما يعود على الناس بالنفع من العروض والتجارات ، والرياح تدفعها وتهدى بالنجوم ليلاً فى مسيرتها . وتذكر الآية سقوط المطر من السحاب وإحيائه الأرض بعد موتها وما نشر الله فيها من الدواب . وفى آيات كثيرة يذكر الله شقَّ الأرض وإنباته للزروع فيها من كل صنف ويقول : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ويتكرر ذلك فى القرآن كثيراً كما تتكرر الإشارة إلى العلوم الفلكية والرياضية فى مثل قوله تعالى بسورة يونس : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ومنازل الشمس أو بروجها اثنا عشر بعدد شهور السنة ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون موزعة على منازل الشمس ، ويقول الله -جلَّ وعزَّ- : إنه جعلها كذلك ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أى لتعلموا حساب الأوقات من الأيام والليالى والشهور لمعرفة معاشكم وفروض دينكم من أوقات الصلاة والصوم والحج وغيرها . وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة إلى الطب ، وعُقِدت فى القاهرة مؤتمرات متعددة لبيان ما فى القرآن الكريم من مسائل الطب ، وبخاصة فى آيات سورة (المؤمنون) المعجزة الطبية الربانية التى تصور بدقة أطوار الجنين حتى يتخلق كائنًا حيًا . وهذه الإشارات الإلهية إلى تلك العلوم المختلفة هى التى جعلت العرب بعد الفتوح

الإسلامية يكبُّون على كل ما لدى اليونان والسريان والفرس والهنود منها فيترجمونها وينقلونها إلى العربية، ويضيفون إليها إضافات شتى جعلت لهم دوراً عظيماً فى تاريخ العلوم الإنسانية، دوراً علمياً حضارياً، باهراً، استحال منارات لأوربا في نضتها العلمية الحديث.

ويقول الله -عزَّ شأنه- فى الآية الرابعة: إنه لا يستوى العلماء والجهال، إذ يدرك الأولون الأشياء على حقائقها، بينما يضطرب الثانون إزاءها فلا يدركونها إدراكاً سليماً ويتميز العلماء بأنهم لا يقعون فى خطأ إذ يعصمهم علمهم منه، بينما الجاهل يخبط خبط عشواء. وتنكشف للعالم الحقيقة فيشعر إزاءها بأنس، وكلما اكتشف حقيقة لازمه هذا الأنس كما لازمته لذة العلم، وهى لذة معنوية تفوق أى لذة. وينوه الله بالعلماء مرارا وتكرارا فى القرآن الكريم من مثل قوله: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ وما أعظم تنويهه بهم وتكريمه لهم إذ ضمهم إليه فى سورة آل عمران وإلى الملائكة فى الشهادة بوحدانية الله وتفرده بالألوهية قائلا: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾. وينوه الرسول ﷺ بهم مراراً وتكراراً كما فى الحديث الثالث، إذ يجعل الطريق الذى يبتغون فيه علماً يُسْلِم مباشرة إلى طريق من طرق الجنة، بل إنه يقول: إن الملائكة تخفض أجنحتها لطالب العلم رضا بصنيعه، ويستغفر له كل من فى الأرض تكريماً وإعزازا. وما يزال الرسول ﷺ يصعد بالعالم درجات حتى ليجعل فضله يفوق فضل العابد، بل إنه ليجعل منزلته بالقياس إلى العابد الناسك كمنزلة القمر المنير بالقياس إلى سائر الكواكب.
وبالمثل الحديث الرابع الذى يجعل الرسول ﷺ فيه فضل العالم على العابد كفضله على أى صحابى، وهو شرف لا يدانيه شرف. ويقول أيضاً تشريفا له لا يماثله تشريفض. إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النمل فى حجرها والحوت فى البحر ليدعوان لمعلمى الناس العلم. فلا عجب بعد كل ما ذكرته من منزلة العلم والعلماء عند الله ورسوله ﷺ أن تشْغف أمة الإسلام بالعلم وأن يبهرها فتعيش له وتعيش به وتَنْقَضُّ على عالمه الرائع انقضاضاً، وسرعان ماتتملكه ويصبح عالمها قرونا متعاقبة.

العقلانية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٢- ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

الأحاديث:

١- عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات.. ألا وإن فى الجسد مُضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب**» (رواه البخارى فى كتاب الإيمان).

٢- قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد إلا وله أربع أعين: عينان فى رأسه يبصر بهما أمور دنياه، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمور دينه**» (رواه كنز العمال).

٣- مرَّ النبى ﷺ بقوم يتفكرون، فقال لهم: «**تفكروا فى آلاء الله.. ولا تفكروا فى ذاته**» (رواه اللالكائى فى السنة والبيهقى فى الشعب).

٤- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا فى أثنتين: رجل آتاه الله مالاً فأنفقه فى الحق، وآخر آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها**» (رواه البخارى فى كتاب الأحكام).

يقول الله فى الآية الأولى. إن فى إبداع خلق السموات التى تبدو كقبة زرقاء فوقنا وما فيها من كواكب ونجوم، وخلق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار وزروع، وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ظلمة وضياء ﴿**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ من ركوبها وحمل تجاراتهم، وإن فيما ﴿**أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ**﴾ بأنواع النبات والأشجار والأزهار ﴿**بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ أى بعد موت زروعها ﴿**وَبَثَّ فِيهَا**﴾ ونشر فيها أنواع الدواب، مع تصريف مهاب الرياح شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، وبالمثل تصريف السحاب المسخر المنقاد بين السماء والأرض من جهة إلى جهة لينزل بها ماءه، فتحيا ويعود إليها الحسن والنضارة. إن فى ذلك كله ﴿**لَآيَاتٍ**﴾ على قدرة خالق الكون الباهرة لما تشهد به من نظام كونى بديع محكم، صَنَعَه إله يتصف بتمام القدرة وتمام العلم وتمام التدبير وتمام الحكمة. وتطلب الآية من المسلمين أن يفزعوا إلى عقولهم ليتأملوا بدقة فى خلق هذا الكون العظيم. وما أشبه عقولهم بمصابيح تهديهم بعد التأمل وطول النظر فى الكون إلى أن له موحدًا يقوم على خلقه وبَثّ أنظمة وقوانين فيه تكفل له البقاء وأن يسير فى مجراه إلى الغاية التى أرادها موجده ومدبره ومبدعه، وهو مدبر واحد لا شريك له، إذ لو كان له شريك لاضطرب نظام العالم. ودائمًا الله فى القرآن الكريم يعرض نظام الكون المحكم على عقل الإنسان ليشهد شهادة عقلية بأن هذا النظام صنعه ودبَّره إله واحد فى ذاته وفى أفعاله الكونية، ويسمى الرسول ﷺ العقل كما فى الحديث الأول -وكما تسميه العرب- القلب، وتكرر هذا الاسم فى الذكر الحكيم، ويقول الرسول ﷺ: إنه إن صلح صلح الجسد كله وإن فسد فسد معه، فهو زمام حياته جسديًا وفكريًا ودينيًا. ويشيد الله به فى سورة الأحزاب مسميًا له باسم الأمانة، إذ يقول تقدس اسمه: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾ والأمانة

فى الآية هى العقل الذى ميز الله به الإنسان من سائر المخلوقات بما يهديه إليه من طرق الهدى فى اعتناق الإسلام . وهو الذى كفل للحياة الإنسانية أطوارها فى كل ما يتصل بها من الحضارة والعلوم، وهو الذى ميز الإنسان من جميع الموجودات والكائنات فى السموات والأرض بفكر حر سوَّى به حياته وهداه إلى كل ما يعمله بإرادته وبصيرته، بخلاف الجبال والجمادات والكائنات والحيوانات، فهى جميعًا تخضع لقوانين ملزمة جبرية دون أى اختيار أو إرادة .

وهذا العقل العظيم جعله الله فى القرآن الكريم الحكَمَ فى الإسلام وشريعته الإلهية داعيًا له دعوة كبرى تكررت فى سوره المختلفة مئات المرات لينظر الإنسان فى الكون نظرًا عقليًا، حتى يكون إيمانه بالإسلام عن عقل وبيِّنة، فيؤمن بوجود الله ويوحِّده عن بصيرة. والله عز شأنه - بذلك يجعل الإسلام دينًا عقليًا، وهو ما جعل الرسول ﷺ يقول فى حديثه الثانى : إن لكل شخص أربع عينين : عنين ظاهرتين فى وجهه كأعين الناس يبصر بهما أمور دنياه وشئونهما المختلفة، وعينين باطنتين للعقل يبصر بهما أمور دينه .

وينعى الله فى الآية الثانية حال المشركين، وأنهم لم ينتفعوا بنعمة القلوب أى العقول التى أهداها إليهم فى معرفته والإيمان بألوهيته ووحدانيته، ويقول : إنهم عطلوها عن التأمل فى ملكوت الله والتدبر، فلم تعد تفقه أو تدرك، وعطلوا أعينهم فلم تعد تنظر فيما خلق الله : اعتبار واتعاظ، وعطلوا آذانهم فلم تعد تنتفع بما تسمع من القرآن، ويقول الله إنهم كالأنعام لا عقول لهم ولا بصيرة ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ منها إذ لا تبلغ بها حياتها أن تسقط مثلهم فى مهاوى الضلال بما ألهمها الله معرفة مضارها كما ألهمها معرفة منافعها، أما المشركون فإنهم حجبوا عقولهم عن الاستدلال على وجود الله فهم أضلّ من الأنعام بما يترددون فيه من الهلاك، و﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عن الآخرة وما يُصَبّ على العصاة فيها من عذاب .

ويمر الرسول ﷺ بقوم فيسألهم : ماذا تعملون؟ فقالوا : نفكر فى الله، فقال لهم، كما فى الحديث الثالث - : تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته . والرسول ﷺ

محق؛ لأن العقول تقصر عن معرفة جوهره، وكثيراً ما حاول ذلك المفكرون والفلاسفة، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح، واعترفوا بأن الذات العلية فوق إدراكهم وأن ليس من المستطاع معرفة كنهه؛ ولذلك ينبغي الانصراف عن التفكير في ذاته إلى التفكير في خلقه الدال على وجوده ووحدانيته دلالة عقلية واضحة.

ويقول الله في الآية الثالثة لرسوله ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ وهي البراهين العقلية القاطعة كبرهان القرآن في سورة (المؤمنون) على وحدانية الله قائلا: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ والآية تستدل على نفي الشريك لله مطلقًا، إذ لو كان معه آلهة لا نفرد كل إله بما خلق وتصرف فيه بعيداً عن شركائه من الآلهة، ولغلب بعضهم على بعض، فلم يكن بيد أحدهم ملكوت كل شيء، تعالى الله وتنزه عما يشركون به. ويأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو بجانب البراهين العقلية بالوعظ. ويدخل القصص القرآني كله في الوعظ حتى لا يصيب المشركين من قريش والعرب ما أصاب الأمم البائدة التي كذبت رسلها فدمَّرها الله تدميراً، وبجانب الوعظ والبراهين العقلية يأمر الله رسوله ﷺ أن يجادل مشركي قريش والكفار مجادلة حسنى لينه لا غليظة، وعن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال ابن الزِّبَعرى: لأضمن محمداً ﷺ فجاء النبي فقال: يا محمد قد عُبد عيسى وعُبدَت الملائكة فهل هم حصبٌ أي حطب لجهنم، فقال النبي ﷺ: اقرأ ما بعده: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾. والطرق الثلاثة: البرهان العقلي والعظة والجدل بالتي هي أحسن كجدل القرآن لليهود والنصارى، هذه الطرق في الآية الكريمة تجمع طرق الاستدلالات العقلية المستخدمة في القرآن، بحيث يقال بحق: إن الإسلام دين عقلي أو عقلاني، ويشيد الرسول ﷺ في الحديث الرابع بمن آتاه الله الحكمة أو القوة البرهانية العقلية، فهو يعلم للناس بها قضايا الدين ومسائله، وهو يصدر عنها في قضائه وأحكامه بين الناس.

ويعجب الله -عزَّ شأنه- فى الآية الرابعة من كفار قريش الذين سافروا شمالاً ورأوا بعض القرى المدمرة فى طرقهم إلى الشام، وما كان من مصارع المكذبين لرسلهم وكأنهم لم يسافروا فيها، إذ لم يعتبروا ويتعظوا؛ لذلك تجعلهم الآية كأنهم لم يسافروا، وتقول بقية الآية: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فالخلل ليس فى أبصارهم، ولكنه فى عقولهم مما يجعلهم يتخبطون فى الشرك والضلال.

●●●

إبطال الخرافة والسحر والطِّيَرَة والكهانة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢].

٢- ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٣- ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨].

٤- ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ [الطور: ٢٩].

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**» (رواه البخارى فى كتاب التوحيد).

٢- عن جندب الأزدى قال رسول الله ﷺ: «**حدُّ الساحر ضَرْبُه بالسيف**» (رواه الترمذى).

٣- عن قبيصة بن المخارق قال رسول الله ﷺ: «**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**» أى السحر والكهانة (رواه أبو داود).

٤- قال ﷺ: مَن أتى عرافا أو كاهنا فسألة عن شىء فصدقه فيما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد (رواه مسلم فى كتاب السلام وأحمد فى سنده).

يقول الله فى الآية الأولى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ونظراء من الآلهة سواء كانت من الجمادات أو الطير أو الكوكب والنجوم، فقد كان منهم من يتعبد للشمس مثل عرب اليمن وكانوا يسمونها اللات. وكانوا يضمون إليها القمر ويسمونه ودًا، والزهرة ويسمونها العزى، وعبدوا هذا الثالوث وقدسوه. وكانت عبادة اللات شائعة فى

الحجاز، وكان معبدها فى الطائف، وكانت دومة الجندل تعبد وداً أو القمر بينما كانت عطفان تعبد الزهرة ويذكر الله بعض آلهتهم فى القرآن الكريم، من ذلك قوله فى سورة النجم: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾. ومناة كانت صخرة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ولعلها ترمز إلى إله الموت أو إله القضاء والقدر، ويقول تعالى على لسان المشركين: ﴿ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ وسُوَاع كان صنم هذيل، ويغوث صنم هوازن، ويعوق صنم همدان، وكان نسر صنم حمير، وهو يشير إلى الطائر المعروف باسمه. ووراء هذه الأصنام أصنام كثيرة للقبائل، وبلغت عدتها فى الكعبة عند فتح الرسول ﷺ لها: ثلاثمائة وستين صنماً. وكان لهم طقوس وشعائر وقرابين كثيرة يقدمونها لآلهتهم وأصنامهم وسدنتها. ويسمى القرآن هذه الخرافات فى دينهم الوثنى باسم الطاغوت، وقد اقتلع من نفوسهم سيطرة هذا الدين الحنيف وأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا معه أحداً، ويسأل ابن مسعود رسول الله ﷺ فى الحديث الأول: أى الذنوب أعظم عند رب العزة؟ فيجيبه أن تجعل له نداً فى عبادته، وهى عودة خاسرة إلى الوثنية وخرافاتها الكاذبة.

والآية الثانية تتحدث عن السحر والشياطين، وهم فيها غالبًا -شياطين الإنس، والآية تصف اليهود بأنهم اتبعوا ما يتلوه السحرة من كتب السحر ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أى فى عهده، يقولون: إن حكمه كان يقوم على السحر، وينقض الله قولهم قائلا: إن حكمه وملكه لم يكن يقوم على السحر وإلا كان كافرا ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ولكن كفر السحرة الذين يعلمون الناس السحر. والسحر: تمويه يأتيه الساحر بحيل فيما عُلم ظاهره وخفى سببه، والعرب كانوا يعتقدون أن السحر يقلب حقائق الأشياء ويطوع المسحور للساحر إلى غير ذلك من تخيلات وهمية. وقد حكم الله فى الآية على السحرة بأنهم كفروا وما كفر سليمان، وكأن هذا حكم الساحر فى الإسلام فهو كافر، ولذلك يقول الرسول ﷺ فى الحديث الثانى: «حدُّ الساحر ضَربه بالسيف» أى قتله. وقد أنكر المعتزلة وجود السحر؛ تجعل الشىء بسبب خفى يُرى بغير صورته الحقيقية، ويرى الإمام مالك أن الساحر لأنه فى حقيقته تمويه بحيل يأتيها الساحر يقتل ولا

يستتاب ؛ لأن السحر كفر وشرك ، وبالمثل قال أبو حنيفة ، وقال الشافعى : صاحبه يكفر ويستتاب . والإسلام بذلك يبطل السحر إبطالاً جازمًا ، والمقصود من يضرون الناس أو يفسدون علاقاتهم بإيهامهم قدرتهم على ذلك ، أما السحرة الذين يظهرون أحيانًا على المسارح باعتمادهم على خفة الحركة وخفة اليد فيما يعرضون من أشياء لتسلية الناس فليسوا من هذا الباب وليسوا مقصودين ، إنما المقصودون من يزعمون صلتهم بأرواح النجوم وأرواح الجن ، وأنهم يسخرونها لأغراضهم وأغراض من يقصدهم فى سحر إنسان أو موته أو سرقته أو تفرقة بينه وبين زوجته . ومن باب الكذب ما يروى من أن ربيعة بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله ﷺ ؛ إذ يقول الله فى سورة المائدة لرسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . . . وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فكيف يسحره يهودى والله عصمه من الناس جميعًا ، وهو خبر واضح البطلان .

والآية الثالثة جاءت فى قصة الرسل بسورة يس الدين أرسلوا إلى أهل قرية بهدى الله وتوحيده وعبادته فكذبوهم وأجابوهم هازئين : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى تشاءمنا . والتطير من الطيرة وهى التشاؤم ، وأصلها أن العرب كانوا فى الجاهلية إذا ارتحلوا نظروا فى السماء إلى ما يلاقيهم من الطير ، فإن مرَّ يمينًا كان علامة يُمْن وسموه السانح ، وإن طار يسارًا كان علامة شؤم وسموه البارح ، وإذا كان الطير جاثمًا أثاروه ليبصروا فى أى جهة يطير ويسمى ذلك زجرًا . وغلب استعمال كلمة التطير فى معنى التشاؤم . واستخدمها القرآن مرارًا بهذا المعنى كما فى الآية السالفة . وفى الحديث أن الطيرة شرك ، وإنما عُدَّت من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطير قد تجلب لهم خيرًا أو تدفع عنهم شرًا إذا عملوا بموجب اتجاهها فى طيرانها ، فكأنهم أشركوها مع الله فيما يصيبهم من نفع أو ضر . وضم الحديث الثالث إلى النهى عن الطيرة النهى عن العيافة وهى زجر الطير ، إذ كانوا يثرون طائرًا أو غرابًا ، فإن لم يطيرا سانحين تشاءموا ، وهى تابعة بذلك للتطير أو الطيرة والطَّرق الضرب بالحصى وإيهام الضارب له قاصدَه بأنه يعرف مراده ، ويمنيه الأمانى بكلام وهمى مثل كلام الغجريات وضربهن للودع ووشوشتهن له ، وكل ذلك منهى عنه فى الإسلام نهيًا قاطعًا ، بل محرم تحريمًا باتًا .

ويقول الله لرسوله ﷺ فى الآية الرابعة : إنك بنعمة الله وفضله وحمده لست بكاهن كما يقول الجهلة من كفار قريش ، والكاهن هو الذى يزعم أنه يعرف الأحداث والأخبار مما يقع فى مستقبل الزمان ، كما يعرف الأسرار المضمرة فى الصدور ، وكان فى الجاهلية كهنة متعددون مثل شِق وسَطيح ، وكانوا يلقون على الناس كلاما مسجوعًا مبهما يمكن أن يؤوَّل تأويلات مَختلفة ، كانوا يزعمون لهم أنه من كلام الجن ألقوه إليهم . وكان كل منهم يزعم أن له من الجن تابعًا يوده ويألفه ، ويسمى رَئيًا أى جنيًا يراه وينصره ، ولا جنى هناك ولا تابع ، إنما هى خواطر كانت تجيش بنفوسهم ، فيرصفونها فى أسجاع مبهمة يموهون بها على من يتعرض لهم بحاجة أو بسؤال ، زاعمين أن التابع جاءهم بها من الملأ الأعلى وللكهان فى الجاهلية أخبار وأقاصيص كثيرة توسع فيها الرواة وكلها من أكاذيبهم ، وشدد الرسول ﷺ فى النهى عن الكهانة لما يزعم أصحابها -زعمًا كاذبًا- أنها من علم الغيب ، إذ لا يعلم الغيب إلا الله . وبلغ من تحريم الرسول ﷺ لها ما ذكره فى الحديث الرابع من أن من أتى كاهنًا ليتنبأ له بشىء من الغيب فى الأمور المستقبلة فقد كفر بالشريعة الإسلامية وما أنزل عليه من القرآن الكريم ، وبالمثل من أتى عرافًا وهو المنجم الذى يدعى النظر فى النجوم بحسب مواقيتها ومسيرتها ، وأنه يستطيع أن يعرف بها أحوال الكون والناس مما يتصل بالغيب . وكل هذه الصور من العرافة والكهانة والعيافة والطيرة والسحرة نهى عنها القرآن الكريم والحديث النبوى ، وعداها منافية لعقيدة الإسلام التى تقصر علم الغيب على الله وحده ، وكما شددت فى إبطالها شددت فى إبطال الخرافات مرتقية بعقول المسلمين إلى منازل فكرية رفيعة .

●●●

القضاء - القدر

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

٢- ﴿ الْكَافِرِينَ ۝٥٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

٣- ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

٤- ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

الأحاديث:

١- قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب**[1] صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، **فذلك الرين الذى قال الله تعالى فيه:** ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾» (رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة).

٢- قال الرسول ﷺ: «**اللهم علمنى هدايتى واحفظنى من شر نفسى**» (رواه الترمذى).

٣- عن أبى ذر -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: فيما يرويه عن ربه (حديثًا قدسيًا): «**يا عبادى إنى حرمت على نفسى الظلم وعلى عبادى فلا تظالموا**» (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة، ورواه البخارى واللفظ لمسلم).

(١) استعتب: طلب العتبى والرضا.

اختلف المفسرون فى تفسير الآية الأولى اختلافات كثيرة مردها إلى أن منهم من أخذ بظاهرها، وأن الله -جل شأنه- ختم على قلوب الكفار بالضلال ختمًا، يشبه ما تدركه الأبصار من الختم على الأوعية، فلا يهتدون أبدًا إلى دين الله الحنيف. وكثير من المفسرين يرى أن الختم فى الآية مجاز عن أن قلوب الكفار لا تنفذ إليها الهداية، وبالمثل أسماعهم لا ينفذ إليها شيء من هدى القرآن حين سماعه، وأبصارهم كذلك عليها غشاوة لا تنتفع بما ترى من آيات الله فى الخلقة للكون، وبالمثل قوله تعالى فى سورة محمد: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ليس المراد -فى رأينا- أنه ضل أعمالهم حقيقة، إنما أراد أنه تركها بدون هداية منه، وبالمثل إضلال المشركين والكفار فى القرآن كله كآية سورة إبراهيم: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وآية سورة يس: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أى أنه تركهم دون هداية وإرشاد؛ لأنه منحهم العقل الذى يهديهم ويرشدهم ولم يهتدوا، يقول فى سورة الأنعام: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ فمن لم تهده البصائر فى القرآن وأعمى عينيه عنها تخبط فى الضلال، وتلك مسئوليته كما فى سورة يونس: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ذكر ابن كثير فى تفسير الآية الأولى تعليقًا على الحديث الأول أن الرسول ﷺ أخبر أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله والطبع. والختم -بذلك- ليس سبب ضلالهم، إنما هو نتيجة ضلالهم.

ولو أن الأسلاف تنبهوا إلى هذا المعنى ولم يطبقوه على آيات الختم والطبع وحدها فى مثل قوله تعالى عن الكفار: إنه طبع الكفر على قلوبهم فطبقوه أيضًا على آيات الإضلال ما أثيرت قضية القضاء والقدر، وهل الإنسان يصدر فى أفعاله عن إرادته أو عن إرادة الله. وانقسم المسلمون إزاء ذلك إلى جبرية يؤمنون خطأ بأن أعمال الإنسان قدر مكتوب عليه ولا حول له ولا قوة إزاءه، وإلى قدرية يؤمنون بأن الإنسان حر الإرادة، فالكفار اختاروا الكفر والضلال حسب إرادتهم ومشيئتهم.

وتؤيد الآية الثانية فكرة أن الختم والإضلال إهمال من الله للكفار الذين اتخذوا

دينهم لهواً ولعبًا، ويقول الله : إنه ينساهم يوم القيامة كما نسوا لقاءه فيه . والنسيان في الآية معناه الإهمال والترك، ويريد الله أن يحرمهم في هذا اليوم من رحمته جزاء لإهمالهم التصديق بالمعاد، وأنهم سيحشرون إلى ربهم حاملين ذنوبهم على ظهورهم . ويأس الرسول ﷺ للمؤمن إذا أذنب فيقول : إن علامة سوداء تتكون في قلبه، فإن تاب ونزع عنها وطلب الرضا من ربه جلا قلبه وطهره، وإن لم يرعو وأخذ يكثر من ذنوبه زادت هذه العلامة في قلبه حتى غطته، وذلك هو الرين في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ويقول الله في الثالثة : إنه أرسل إلى ثمود رسولهم صالحًا لإرشادهم وأيده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض، وبذلك وضع لهم كل الأسباب لهدايتهم، فلم يستجيبوا لله ورسوله، وأحبوا العمى أي الضلال واختاروه على الهدى الذي حاول الله أن يهديهم إليه، إذ رفضوا هذا الهدى وأبوه إباء شديداً، واختاروا لأنفسهم الكفر والضلال، فأهلكتهم بما اكتسبوا من الضلال والكفر بالله صاعقة سخرها الله لعذابهم عذاب ذل وهوان . ويؤكد الله مراراً أن الكفار الرافضين للإسلام يتبعون في كفرهم أهواءهم كقوله في سورة محمد ﷺ : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي أولئك الذين صمموا على الكفر متابعين في ذلك أهواءهم، فهم لم يُقهروا عليه، بل آثروه بمحض إرادتهم ومنتهى حريتهم . وهذه الآية -بدورها- تشهد بأن هدى الإنسان وضلاله في القرآن يرجعان إلى حريته المطلقة، فإما هدى ورشاد وإيمان بالله، وإما ضلال وتخبط وكفر به . فالمرجع في ذلك كله إلى الإنسان وعقله ونفسه، ولذلك يقول الرسول ﷺ في دعاء له : اللهم علمني هدايتي واحفظني من شر نفسي، أي لا تتركني إلى نفسي . واهدني حتى لا أضل ولا أنحرف عن طريقك المستقيم .

ويقول الله في الآية الرابعة : إنه خلق السموات والأرض بالحق أي بالعدل، وهو سيسود في جزاء المسلم الطائع لله والكافر لربه يوم القيامة، فكل منهما سينال جزاءه بمقدار ما كسبت يداه في الإيمان والكفر، والكسب ما يجنيه الشخص من عمله لنفع نفسه، والمراد به في الآية والقرآن عامة ما يكتسبه المسلم من العمل الصالح وما يكسبه

الكافر من العمل السيىء، فكل منهما سيأخذ جزاء ما قدمت يداه فى دنياه، وكرر الله ذلك فى القرآن مراراً، وأنه لن يظلم أحداً -كما قال فى سورة النساء- ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ وأيضًا كما قال فيها: ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾[1] وكيف يظلمون وهو أعدل العادلين الذى خلق الكون وكل ما فيه بعدل لا يماثله عدل. ويروى عن الرسول ﷺ فى حديث قدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى» ويكرر فى القرآن بمنه ورحمته ولطفه أنه لن يظلم أحداً أدنى ظلم يوم القيامة يقول فى سورة الزلزلة: ﴿ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾.

●●●

(١) نقيراً: النقرة فى ظهر نواة التمر.

التقوى

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٢- ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٣- ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

٤- ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

الأحاديث:

١- عن عدى بن حاتم الطائى قال رسول ﷺ: «**من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها فليأت التقوى**» (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٢- عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعلمون، فاتقوا الدنيا**» (رواه مسلم فى كتابه الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار).

٣- قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً بما به بأس**» (رواه الترمذى وابن ماجة).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: عرضه وماله ودمه،التقوى ههنا**» (رواه الترمذى).

يقول الله -جَلَّ شأنه- فى الآية الأولى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ من الزاد وأصله ما يحمله المسافر من الطعام فى رحلاته الدنيوية، استعير فى الآية لما ينبغى أن يحمله المسافر أو الراحل إلى الحياة الآخرة من أعمال البر والخير، ويقول الله: إن خير زاد إلى الآخرة للمسلم التقوى لله أى الوقاية والحذر من أى محرَّم يغضبه والعمل على مرضاته بأداء فروضه، ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب سأل أبى بن كعب عن المعنى الدقيق للتقوى فى القرآن الكريم فقال أبىّ: أما سلكت طريقًا ذا شوك قال عمر: بلى. قال أبىّ: فما عملت؟ قال عمر: شَمَّرت واجتهدت، قال أبىّ: فذلك التقوى.

وليست التقوى تجنب الذنوب: الكبائر والصغائر فحسب، بل هى أيضًا أداء ما يرضى الله من الطاعات والعبادات؛ ولذلك كان معناها الشرعى الذى تدل عليه نصوصها فى الذكر الحكيم هو: امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه بأداء ما فرضه وأوجبه على المسلم وترك ما حرَّمه وأجب الإنصراف عنه ظاهرًا وباطنًا وما يزال الرسول ﷺ يحبّب أصحابه فى تقوى الله والحذر من أن يأتى المسلم شيئًا يغضب ويسخطه عليه، ويقول ﷺ فى الحديث الأول: لو أن مسلمًا حلف على عمل شىء يظن أن فيه رضا ربه ثم رأى أن الانصراف عنه أتقى لربه فلينصرف ويكفر عن حلفه بصوم ثلاثة أيام أو بعتق رقبة، حتى لا يناله تقصير إزاء تقوى الله ورضاه.

والله - تقدَّس اسمه - يذكر فى الآية الثانية منَّته على الإنسان بأن ألهمه أن يتخذ لنفسه لباسًا ماديًا يستر به سوءاته وعوراته، وليس ذلك فحسب، فإنه ألهمه أيضًا أن يتخذ لنفسه (ريشًا) أى لباسًا فاخرًا يتزين به. ولما ذكر الله للناس -أو قل للمسلمين- اللباس الحسىَّ الفاخر أضاف ما أنعم به عليهم من اللباس المعنوى الباهر: لباس التقوى الذى يفتح أمامهم أبواب الجنة ليدخلوها، من أى باب شاءوا وأردوا. ويقول الرسول ﷺ لصحابته فى الحديث الثانى: إن الدنيا مغرية بطيباتها وما فيها من وجوه الترف والنعيم، وستقبل عليكم وتتملكونها فلا تغرنكم بلذاتها ومتعاتها، واعلموا أن الله مستخلفكم فيها ومراقب ما تعملون، فاتقوها واحذروا أن تنغمسوا فى شهواتها فتغضبوا الله الذى جعلكم خلفاءه فيها، وينبغى أن تحذروه وتمتثلوا أوامره ونواهيه.

ويذكر الله فى الآية الثالثة شعائره، وهى مناسك الحج، ويقول: إن تعظيمها من تقوى القلوب السليمة التى تلهم أصحابها هذا التعظيم الدينى الصادر عنها. والتقوى بذلك تميز روح المسلم والإسلام الصادق الذى لا يشوبه رياء؛ لأنها تصدر عن القلوب المخلصة لربها التى يحق لها أن تنعم بمتع الجنة لما يقترن بها من إخلاصها وطهارتها من كل إثم أو دنس. وبذلك نفهم إعلاء الله للتقوى فى الذكر الحكيم لأنها ليست امتثالا لأوامر الله ونواهيه فحسب، بل هى أيضًا شغف قلبى بتطبيقها لا يدانيه أى شغف، وهو شغف يجعل المسلم -كما قال الرسول ﷺ فى الحديث الثالث- يتحرج تحرجًا شديدا إزاء عمل لا يرى به بأسًا، ويتنابه شىء طفيف من الشك أن يكون به بأس، وهو بأس موهوم، فيدعه تقوى من الله وحذرًا منه وخشية. وينوه الرسول ﷺ فى الحديث الرابع بحقوق المسلم وحرمته على أخيه المسلم، ويقول ﷺ: إن عرضه أو شرفه وماله ودمه كل ذلك حرام على أخيه المسلم ماله ويهتف: التقوى هها فقد حرَّم الله على المسلم أن يمسَّ عرض أخيه المسلم أو أو ماله بأى صورة من الصور، فكما أن دمه حرام، ولا يستحل منه شيئًا لنفسه بأى طريقة من طرق الغصب، وبالمثل عرضه أو شرفه لا يتناوله إلا تناولاً كريمًا، فإن لم يتق الله وأخاه المسلم فى ذلك كله استحق سخط ربه وغضبه وعقابه.

والله -جَلَّ شأنه- يقول فى الآية الرابعة: إنه لا ينال شىء من لحوم الأضاحى فى الحج ولا شىء من دمائها، مشيرًا بذلك إلى ما تعوده العرب فى الحج زمن جاهليتهم من ذبحهم أضحياتهم لأهلهم وتلطيخهم لمناسك الحج بدمائها ونقطيع لحومها، ووضع شرائحها عليها أو نصبها حول الكعبة قربانًا لله فلا ينتفع بها أحد. والله بذلك يبطل هذه الصورة الوثنية الجاهلية، ويبقى على نحر الأضاحى أو ذبحها لينتفع الناس من الأقارب والأصحاب بالأكل منها، ولينتفع الفقراء والمساكين من أهل الحرم. وهو بذلك يبطل أن تقدم لحومها قربانًا إليه، فليس فى ذلك شىء من تعبده، إنما يعبد بالتقوى من الحجاج التى ينبغى أن تصحب نحر الأضاحى. وقد أكد ذلك فى قوله بنفس السورة: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ فذكر اسم الله هو المراد بمناسك الحج والنزول بها والطواف عندها، وبعبارة أخرى تقوى الله وما يتصل بها من المشاعر القلبية، إزاء الامتثال لأوامر الله ونواهيه امتثالاً يحقق للمسلم طمأنينة نفسية لا تماثلها ولا تعادلها أى طمأنينة؛ لأنها طمأنينة ربَّانيَّة.

التوكل

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ التوبة: ٥١].

٢- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [لأنفال: ٢].

٣- ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

٤- ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥].

الأحاديث:

١- عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبتُ**» (رواه مسلم فى كتابه الذكر والدعاء والتوبة).

فيتعهد الحب حتى تنشق الأرض عن نباته، ويتعهد النبات شهوراً حتى يؤتى حصاده وثماره، وبالمثل المتوكل صاحب البستان فإنه لا يتعهد نباته وشجره فيسيقهما ويصلح من شأنهما، حتى يجنى ثمار إصلاحه وعمله. وقال على بن أبى طالب: من ظن أن الطلب والاكتساب يناقض التوكل، فقعد فى بيته، كان العقل خارجًا وفى تيه الجهل داخلا، وينبغى لأهله أن يداووه.

وكما أن الله - تقدَّس اسمه- كرر الطلب إلى المسلمين فى القرآن الكريم وبالتوكل عليه حق التوكل كرَّر عليهم طلب السعى للكسب فى البر والبحر وقال مراراً وتكراراً؛ إنه سخر لهم الكون بأرضه وسمائه وشمسه وقمره ونجومه لينتفعوا به أكبر نفع ويستغلوه فى معاشهم أكبر استغلال. ونكتفى بعرض آية سورة الملك ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ﴾ براً وبحراً ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ فالله قد ذلل الأرض للإنسان فلم يجعلها صلبة لا تصلح للغرس ولا للبناء، ولم يجعلها رخوة بحيث لا تمسك إنسانًا ولا حيوانًا، ولم يجعلها حارة، تخنق الإنسان ولا شديدة البرودة . بل جعلها وسطًا بين الصلابة والليونة وبين الحرارة والبرودة؛ لتكون سكنًا للإنسان يضرب فيها معاوله للزرع وللأبنية، وجعل له خلالها الأنهار والعيون والآبار، وأنبت فيها البقول والأشجار تؤتى ثمارها كل حين وبساتين وحدائق من كل نوع .

ويقول: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أى فى جميع جوانبها حتى تفيدوا منها أكبر الفوائد ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ بأعمالكم وما تزرعون من البقول والحبوب والثمار والفواكه مختلفة الأنواع والألوان. والله بذلك وأمثاله -فى الذكر الحكيم- يطلب من المسلمين بجانب التوكل المخلص عليه اتخاذ الأسباب لكسب الرزق والمعاش. ويجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن التوكل على الله لا بد -كما قلنا- أن يقترن بالأسباب فى طلب الرزق والمعاش من مأكل ومشرب وغيرهما من سنن الحياة .

●●●

الخوف - الخشية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

٢ - ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١].

٤ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «مَن خاف أدلج[١]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة» (رواه الترمذى فى باب الزهد).

٢ - عن أبى أمامة قال رسول الله ﷺ: «ليس شيءٌ أحبَّ إلى الله من قطرتين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهرق فى سبيل الله» (رواه الترمذى فى كتاب الجهاد).

٣ - عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا يَلِجُ[٢] النارَ رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع[٣]» (رواه الترمذى فى كتاب الجهاد).

٤ - عن رسول الله ﷺ: قال لأصحابه: «إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية» (رواه البخارى فى غير موضع ومسلم فى الصيام).

---

(١) أدلج: سار فى أول الليل.
(٢) يلج: يدخل.
(٣) الضرع: مدر اللبن.

الآية الأولى فى المؤمنين المتقين وأنهم يدعون ربهم الذى يستجيب دائما لدعائهم ويقول: إنهم يبتغون إليه الوسيلة من قربه ويرجون منه الرحمة ويخافون عذابه. وقيل: الآية فى المشركين على أنها تهكم بهم واستهزاء، وحتى إن كانت فى المؤمنين فإنها تعريض بالمشركين، ويهمنا ما جاء فيها من خوف العذاب، وعذابه -كما قال فيها- يحذره الطائعون والعاصون. والخوف فى اللغة توقع مكروه بعلامات مظنونة أو متيقنة، وهو فريضة على كل مسلم إذ يقول تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ويقول فى سورة البقرة: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. والآية فيها تشديد على رهبة الله والخوف، بما فيها من قَصْر واضح، وفى سورة السجدة فى وصف المؤمنين أنهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. والخوف قسمان: مذموم ومحمود، فالمذموم خوف العاصى الآثم الذى لا يكف عن عصيانه، والمحمود هو الذى يعمل صاحبه الأعمال الطيبة، ويخاف ألا يتقبلها الله منه، ولذلك قيل: لا يُعَدُّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا. وهو ليس استشعارًا للفزع من عذاب الله، وإنما هو مراقبة المسلم لربه فى أقواله وأفعاله مؤمنًا بأنه سيحاسب يوم القيامة على ما قاله وعمله فى دنياه، وكأنه ضرب من قلق المسلم على مصيره فى آخرته مما يجعله يستشعر مخافة ربه. ويُروَى أن أبا بكر الصديق -رضى الله عنه- فكر ذات يوم فى البعث والقيامة والموازين والحساب وطى السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانقضاض النجوم، فقال: «وددتُ أنى كنت خُضراً من هذه الخضر تأتى علىّ بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق». وهى صورة رائعة لما أودع القرآن الكريم فى ضمير الصديق من الخوف الصادق من عذاب ربه، وهو المثل الكامل - بعد الرسول- للمؤمنين فى التقوى والعبادة وأعمال البر والصالحات، ومع ذلك يرهب الله ويخافه خوفًا شديدا. وفيه وفى أمثاله -أو قل فى أشباهه- من الصحابة المتقين بقول الله تعالى فى سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وتذكر الآية الثانية الخوف من مقام الرب، وكلمة مقام مصدر بمعنى القيام، ويمكن أن يكون المراد منها مراقبة الله للإنسان ووقوفه على كل ما يأتى من الأمور كما وصف

نفسه فى سورة الرعد بأنه ﴿ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بمعنى أنه رقيب ومطلع على كل ما يعمله الإنسان فى دنياه من خير أو شر ومجازيه به جزاءً عادلا ، لا يظلمه فيه مثقال ذرة . ويمكن أن تكون كلمة مقام فى الآية اسم مكان والمراد مكان الخلق وموقعهم للعرض يوم الحساب كما قال تعالى فى سورة المطففين : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وينبغى أن نعرف أن الله جَلَّ جلاله منزَّه عن القيام والوقوف والمكان، وكل ما جاء فى القرآن مما قد يفيد تشبيهًا أو تجسيدًا لله يؤوَّل ؛ ولذلك يمكن أن تؤوَّل كلمة مقام فى الآية بمعنى عظمة الله وجلاله فمن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ واستشعر عظمته وجلاله ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أى عن الملذات والشهوات ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أى مسكنه الدائم الأبدى فى الآخرة لما أدى لربه من العبادات والعمل الصالح، كما جاء فى الحديث النبوى الأول : مَن خاف أدلج أى من خاف عذاب ربه جَدَّ فى عبادته، حتى يبلغ الجنة . ويصورها الرسول ﷺ بأنها سلعة ربانية وأن على من يريد شراءها أن يقدم لربه ما يستحقه من عبادة مخلصة صادقة .

والآية الثالثة تنوِّه بمن يصلون ما أمر الله به أن يوصل من أواصر الأخوة بينهم وبين المسلمين وأواصر القرابة بينهم وبين ذوى الرحم، وهم المسلمون حقًا الذين ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ . والخشية أعلى درجة من الخوف، فهى خوف مع تجلة المخوف منه وتعظيمه، وهى أخص من الخوف، إذ الخوف توقع الإنسان ما يكره من أى شىء، ولذلك يذكر فى القرآن كثيراً مع العذاب، وهو فى الآية مذكور مع سوء الحساب أى العقاب . وخشية المسلمين من الله هيبة وإخلاص له وامتثال لطاعته وطلب لحسن العاقبة مع تذليل النفس وكسر سورتها، ومع إقبال على ما عند الله، ومع عبادته حق العبادة، ومع شدة الخشوع والاستكانة والتذلل، حتى ليذرفون الدموع إشفاقا على أنفسهم من لقاء ربهم أو من أن يكونوا مقصرين إزاء طاعته وعبادته . وينوه الرسول ﷺ بدموعهم من خشية ربهم قائلاً فى الحديث الثانى : إنه لا شىء أحب إلى الله من قطرتين : قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تسيل فى سبيل الله . والحديث الثالث : لا يدخل النار رجل ذرف الدمع من خشية الله، وأيَّد ذلك أو رأى أن يجعله أبديًا فقال :

حتى يعود اللبن فى الضرع أى ضرع الناقة الذى يُدره فإنه من المستحيل أن يعود إليه بعد الحلب كما لا يعود الوليد إلى بطن أمه.

والآية الرابعة تنوهٌ بمن يخشون ربهم بالغيبأى دون أن يروه. فيقبلون على عبادته مخلصين لعظمته. ويمكن أن يكون المراد بالغيب فى الآية عذاب الله، فهم يخشونه دون أن يروا عذابه الغائب عن أبصارهم وأبصار الناس. ويمكن أن تشمل كلمة ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ فى الآية كل ما غاب عن الإنسان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من عذاب النار ونعيم الجنة. وينبغى على المسلم أن يستشعر خشية الله فى سره وعلنه، وبحق يقول الرسول ﷺ فى الحديث الرابع: إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية. وعن ابن مسعود فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال له: اقرأ علىَّ القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أى أتباعك ﴿ بِشَهِيدٍ ﴾ قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان أى تسكبان الدمع سكبًا. وقيل إزاء هذا الحديث: إنه بكى لما تضمنت الآية من ذكر المحشر وشدة الهول فيه إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، وقيل: إنه بكى على المفرِّطين العاصين من أمته، وقيل بكى فرحًا لشهادته على أمته، وقيل: بل لفرط رأفته وشفقته على أمته. وفى بقية الآية الكريمة يعد الله من يخشونه بالغيب مغفرة، وهو يفتح أبواب مغفرته على مصاريعها فى القرآن لكل من أخلصوا فى عبادتهم له، وتضم الآية لمن يخشون ربهم مع المغفرة أجراً كبيراً هو الجنة ونعيمها الخالد.

•••

التوبة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣].

٢- ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١].

٣- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥].

٤- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨].

الأحاديث:

١- عن الأعز بن يسار المزني قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**» (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

٢- عن أنس بن مالك الأنصاري قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة**» (رواه البخاري ومسلم في كتاب التوبة واللفظ للبخاري).

٣- عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم**» (رواه مسلم في كتاب التوبة).

٤- عن أبي موسى الأشعري قال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**» (رواه مسلم وابن حنبل في مسنده).

والله -تقدس اسمه- يدعو المؤمنين أن يستغفروه كلما أذنبوا ذنبًا ويتوبوا إليه، والتوبة لغة معناها الرجوع، وشرعًا معناها الرجوع عن معصية الله إلى طاعته أو عما نهى عنه إلى ما أمر به، وهي واجبة إزاء كل ذنب سواء كان من الكبائر أو الصغائر. وإذا كان الذنب متعلقًا بحق من حقوق الله كترك الصلاة يجب على المذنب أن يكف عنه

وأن يندم أشد الندم على ارتكابه وأن يعقد عزمه أن لا يعود إليه أبداً. وإن كان الذنب متعلقًا بحق من حقوق الناس كأن كان مالا أو عقاراً وجب رده -مع التوبة- إلى صاحبه بعينه أو بما يماثله إن كان قد تلف أو حدث فيه تلف، وإن كان قصاص قتل مكّن أصحاب القتيل منه، إلا إن طلب منهم العفو، وقبلوا ذلك فأسقطوا حقهم. وإن كانت غيبة فى حق شخص غائب وقذفًا فى حقه وجب أن يسترضيه ويقول إنى نادم عليها ولن أعود إليها. وبالمثل شهادة الزور، وذنبها أعظمُ. وينصح الرسول ﷺ صحابته فى الحديث الأول باستغفار ربهم دائمًا، ويتطلف لهم -كعادته- ضاربًا بالمثل نفسه، وهو الرسول ﷺ محبوب ربه الشفيع لأمته.

ويقول الله تعالى فى الآية الثانية: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهو بذلك يطلب من المؤمنين أن يتوبوا إليه من جميع الذنوب مهما كانت كبيرة أو صغيرة، واختلف الأسلاف هل إذا تاب الشخص من بعض الذنوب دون بعض هل تقبل توبته فيما أذنب فيه أو لا تقبل؟ قال المعتزلة: إنها لا تقبل، وإنه لا بد من الكف عن سائر الذنوب والتوبة منها حتى تحقق التوبة فضلاً. ويتحقق صلاحه، وقال أهل السنة! إنها تقبل فيما تاب عنه، وتبقى عليه التوبة فى بقة الذنوب، وفى رأيى أن رأى المعتزلة أدق؛ لأن قبول التوبة معانه التوبة من الذنوب جميعًا. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثانى: «**أن الله أكثر فرحًا بتوبة عبده من أحدكم وجد بعيره بعد أن ضل منه فى فلاة،**» وفى رواية ثانية للحديث فى صحيح مسلم: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة مهلكة، فانفلتت الراحلة منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة واضطجع فى ظلها، وقد أيس من من راحلته. وبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها فرحًا**». والرسول صور فرحة الله بتوبة عبده تصويرا عظيمًا بفرحة رجل يسير فى فلاة مهلكة، وينزل عن ناقته لضرورة فتندُّ عنه، وعبثًا يستطيع اللحاق بها وعليها زاده ويأوى من شدة الحرارة إلى ظل شجرة، فيضطجع فيه، وقد أيس من راحلته ومن حياته، وغلبه النوم، واستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه وعليها زاده وطعامه وشرابه، ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من فرح هذا الرجل برجوع راحلته وزاده إليه**».

ويفتح لله -تبارك اسمه- فى الآية الثالثة الأبواب على مصاريعها لقبول التوبة من عباده، واختلف الأسلاف هل قبول الله -جل شأنه- للتوبة قطع أو ظنى، وذهب المعتزلة إلى أنه قطعى لأنه وعد من الله، ووعده- مثل وعيده- لا يختلف، ولو أن الله لم يقبل توبته لما تحقق وعده ولا تحقق للتائب عفوه. وذهب أهل السنة من الأشعرى والغزالى إلى أن قبول التوبة مقطوع به لتكراره فى الذكر الحكيم. وذهب آخرون إلى أنه ظنى، والأولى أنه يقينى ومقطوع به، ويقول الغزالى: إنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك فى أن كل توبة صحيحة هى مقبولة، إذ القلب خلق سليمًا فى الأصل فكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدرة ترهقه من غبرة الذنوب، وإن نور الندم يمحو عن القلب تلك الظلمة، كما يمحو الماء والصابون عن الثوب الوسخ. فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، أو أن الثوب يغسل والوسخ لا يزول، نعم فقد يقول التائب باللسان تُبتُ ولا يُقلع فذلك تقول القصدّر (غاسل الثياب وصابغتها) بلسانه: غسلت الثوب، وهو لم يغسله، فذلك قصار (لا ينظف الثوب). وكما أن الآية تفتح الأبواب لقبول التوبة من عباد الله، كذلك الحديث الثالث وما يقول الرسول ﷺ وفيغفر من أن المؤمنين لو لم يذنبوا لجاء الله بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله تعالى لهم.

ويطلب الله فى الآية الرابعة أن يتوب المؤمنون إلى الله توبة نصوحًا، وقال عمر بن الخطاب وأبى بن كعب: إن التوبة النصوح هى التى يتوب صاحبها من الذنب لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقيل: إن التوبة النصوح ينبغى أن تتضمن ثلاثة أشياء، هى: أن تشمل جميع الذنوب، وأن يُصرّ عليها التائب بعزيمة صادقة، وأن يجعلها خالصة لربه خشية وخوفًا من عذابه وعقابه، وبذلك تسحق جميع الذنوب سحقًا. ويصور الرسول ﷺ فى الحديث الرابع أن الله -تبارك اسمه- يبسط يده فى الليل ليترب مذنب النهار، ويبسط يده فى النهار ليتوب مذنب الليل، وبسط يد الله فى الليل والنهار كناية عن طلبه من المذنب توبته. وفى الحديث قال رسول الله ﷺ: **«من قال عشر مرات حين يصبح وحين يمسى: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه، ولو كانت رمل عالج[1]**، ومن قال: **سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غُفرت ذنوبه»**.

(١) رمل عالج: رمال كثيرة ببادية نجد.

الغفران

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

٢- ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

٣- ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

٤- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

الأحاديث:

١- عن جابر -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: **«من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان، وفى نفس الكتاب وكتاب الإيمان فى صحيح البخارى حديث مع معاذ يماثله مع زيادة الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ).

٢- عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم»** (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٣- وعن أنس أيضًا قال رسول الله ﷺ فى حديث قدسى: **«قال الله تعالى: يا بن آدم! إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك كل ما كان منك ولا أبالى، يابن آدم لو بلغت**

ذنوبك عنان[1] السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب[2] الأرض خطايا ثم لقيتنى ولم تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» (رواه الترمذى).

٤- وعن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ فى حديث قدسى يحكيه عن ربه تبارك وتعالى، قال الله: «أذنب عبدى، فقال: اللهم اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى دنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنب. قال الله: اعمل ما شئت فقد غفرت لك» (رواه مسلم فى التوبة، ورواه البخارى فى التوحيد، واللفظ المسلم).

والله -تقدس وتبارك اسمه -فى الآية يقول: إن من يعمل سوءًا أى عصيانًا يعصى به ربه وأوامره ونواهيه، أو يظلم نفسه بكثرة معاصيه ثم يستغفر الله يجده ﴿غَفُورًا﴾ واسع المغفرة ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده، يستغفر لهم ويعفو عنهم، كما قال فى سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾. والفواحش المعاصى الكبيرة، وظلم النفس بارتكاب كبائر الإثم، فمن اقترفوا الذنوب الكبيرة، وذكروا الله أى أوامره ونواهيه، فاستغفروا الله لذنوبهم ولم يصروا عليهما بل عزموا على الإقلاع عنها، فإن الله يغفره، إذا ندموا على إتيانها ولن يعودوا إليها. والله فى القرآن الكريم يفتح أبواب مغفرته لعباده مهما أنفا من الكبائر والمنكرات، ماداموا اعترفوا له بذنوبهم واستغفروه بنية صادقة، ولا يخيب له استغفارًا ولا رجاء، مهما كانت آثامهم فأبواب مغفرته مفتوحة دائمًا.

ويقول رب العزة فى الآية الثانية: إن من يرجو لقاء ربه مؤمنًا بالبعث والحساب وأن

(١) عنان السماء: ظاهرها المرئى.

(٢) بقراب الأرض: بما يقارب ملئها.

الله سيوفيه جزاءه على أعماله ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ يبتغى به وجه ربه . وفى الحديث أن أعمال الناس تعرض بين يدى الله يوم القيامة فيقول الملائكة : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة عن الأول : يا رب ، والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى . والعمل الصالح والإيمان بالبعث لا يكفيان بل لا بد من الإيمان بوحدانية الله ، وأن لا يشرك العبد بعبادته أحداً . فذلك هو أصل الإيمان ويتفرع عنه الاعتقاد بالبعث والعمل الصالح . ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول : إن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، وفى حديث له : من قال لا إله إلا الله وجبت له الجنة . ويقول فى حديث معاذ : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ صدقًا من قلبه إلا حرَّمه الله على النار .

ويقول الله -تقدَّس سمه- فى الآية الثالثة : إن المؤمنين الذين يتلون القرآن الكريم ويؤمنون بشريعته ، ويقيمون الصلاة أعظم العبادات البدنية ، وينفقون مما رزقناهم من الأموال سراً وعلانية ، ابتغاء مرضاة الله ، يرجون بكل تلك الأعمال أن تكون تجارة رابحة عند الله ، وأن ينالوا بها ما يستحقون من الأجر والثواب وأن يغفر لهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ . ويكرر الرسول ﷺ فى أحاديثه أن المسلمين -كما فى الحديث الثانى- مهما أخطأوا حتى لو ملأت خطيئاتهم ما بين السماء والأرض ، ثم أنابوا إلى الله واستغفروه فإنه سيغفرها لهم . ويقول الله فى الحديث القدسى الثالث : يا ابن آدم إنك ما استمررت تدعونى وترجو مغفرتى فإنى أغفر كل ما أذنبت ، ولا أبالى ، ويقول - عز سلطانه- : إن ذنوب ابن آدم لو بلغت ظاهر السماء المرئى أى ما بين السماء والأرض ثم استغفر الله فإنه يغفرها له . ويقول الله جَلَّ شأنه إن ابن آدم لو أتاه بما يملأ الأرض ذنوبًا واستغفره ولقيه لا يشرك بعبادته أحداً ليأتينه بما يملؤها مغفرة .

والآية الكريمة الرابعة تدعو جميع العصاة من المؤمنين والكافرين إلى طلب المغفرة من .

●●●

آداب السلام - المصافحة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦].

٢- ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الأنعام: ٥٤].

٣- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا﴾ [النور: ٦٩].

٤- ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [هود: ٦١].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٢- عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ مرَّ فى المسجد يومًا وعصبة من النساء قعود، ، فألوى[1] بيده بالتسليم (رواه الترمذى فى الاستئذان وابن ماجة فى الأدب).

يعلم الله -جل شأنه- المسلمين فى الآية الأولى أدب لقاء بعضهم بعضًا فيأمرهم إذا التقوا حيًّا الأخ أخاه بتحية يجب أن يحييه بتحية أحسن منها أو على الأقل يردها عليه بما يماثلها، والله فضل أن تكون أحسن منها. وهو أدب عظيم يعلمه الله للمسلمين، وهو امتداد لمبدأ الأخوة بين الأخ وأخيه فى الإسلام، فلا يتعالى مسلم شريف أو ثرى على مسلم من العامة أو على مسلم فقير، فقد أصبح المسلمون متساوين، ولا شريف ومشروف ولا سيد ومسود ولا غنى وفقير، فأى مسلم حياه أخوه المسلم يجب أن يبادر إلى تحيته بتحية مماثلة أو بتحية أحسن منها. ومعروف أن

التحية فى الإسلام هى السلام عليكم، وردها رداً مماثلاً بكلمة : وعليكم السلام بزيادة واو العطف فى أول الرد، وقد يرد المسلم بأحسن من ذلك قائلا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وقد يبدأ المسلم بهذه الصيغة الأخيرة فيكون ردها مماثلاً لها. وفى حديث تعليمى رواه أبو داود فى الأدب أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم فردَّ عليه : وعليكم السلام، ثم جلس، فقال النبى ﷺ: عشر أى عشر حسنات جزاء هذه التحية. ثم جاء آخر، فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه بمثل ما قال، فجلس، فقال الرسول ﷺ: عشرون أى عشرون حسنة لزيادته فيها كلمة : ورحمة الله. ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه بمثل ما قال، فجلس، فقال الرسول ﷺ: ثلاثون أى ثلاون حسنة لزيادته فيها كلمته : وبركاته، أى خيراته الدائمة. وكل ذلك تحبيب من الرسول ﷺ أن تسود بين المسلمين المودة والمحبة عن طريق عدم التهاون فى بدء المسلم أخاه بالتحية حين يلقاه، وأن يرد عليه بمثلها أو بأحسن منها، فإذا قال المسلم لأخيه : السلام عليكم وجب أن يود عليه بقوله : وعليكم السلام : أو يرد بأحسن من ذلك قائلاً : وعليكم السلام ورحمة الله أو قائلاً : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول الذى اخترناه أن المسلمين لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا، ولا يؤمنون حتى يتحابوا، ويدلهُم على ما يوثق الحب بينهم قائلا : إنه إفشاء السلام بينكم. وواضح أن كل ذلك فى الإسلام تأكيد على نشر السلام والمودة بين المسلمين بل بين الناس جميعا، إذ أوجب على المسلم أن يرد على غير المسلم تحية السلام. وبهذه التحية اليوميَّة كان الإسلام أول داع للسلام فى الأرض منذ أربعة عشر قرنا، وهو يكرَّر فى كل صلاة، وجعله الله أحد أسمائه الحسنى تأكيداً لهذه الدعوة وسمَّى الجنة دار السلام حثًا عليه.

والله عز شأنه فى الآية الثانية يأمر رسوله ﷺ، إذا جاءه المؤمنون يحييهم بتحية السلام، وهى تحية تحمل فى أطوائها أمانا لصاحبها وللراد عليه لأن معنى السلام الأمان وكأنها تعلن الثقة بين الطرفين، فهما فى الإسلام متواذَّان. وكما يحيِّى رجال المسلمين

بعضهم بعضا يحيى النساء بعضهن بعضًا ويحييهن الرجال بتحية الإسلام قائلين : السلام عليكن على نحو ما نرى فى الحديث الثانى ، فإن الرسول ﷺ مرَّ بالمسجد، وجماعة من النساء قعود فأشار بيده بالتسليم أى أنه جمع بين اللفظ ، فقال لهن : السلام عليكن ، وبين الإشارة باليد لتنبيه النساء إلى السلام .

والآية الثالثة تحمل قصة وفود رسل الله من الملائكة على إبراهيم ويقال كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وقد وفدوا عليه بالبشرى ولزوجته سارة بابنهما إسحق ، ويذكر الله حينما بدءوا الوفود عليه أنهم قالوا : سلامًا أى تحية لك قال : سلام ، فردَّ التحية بمثلها . ويصور الحديث الثالث آداب السلام ومن ينبغى عليه المبادرة به ، ويرتِّب الرسول ﷺ المبادرين به ، فالراكب يسلم على الماشى تواضعًا له ، والماشى على القاعد ؛ لأنه مارٌّ به ، والقليل على الكثير ؛ لأن حق الكثير أكبر وأعظم ، والصغير على الكبير ؛ لأنه مأمور بأن يوقِّر الكبير ويتواضع له .

والآية الرابعة بأمر الله فيها المسلمين إذا دخلوا بيوتًا أن يسلموا على أنفسهم أى يسلم بعضهم على بعض ، فيسلم الزوج على زوجته ومن معها ، ويسلم الزائر على أهل الدار . والآية تلزم المسلم القريب على القريب مثل السلام على البعيد ، وعن أنس بن مالك قال : أوصانى الرسول ﷺ بخمس خصال ، قال : يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على مَن لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت -يعنى بيتك ، فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوَّابين قبلك ، يا أنس : ارحم الصغير ووقِّر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة .

والحديث الرابع فى استحباب المصافحة عند اللقاء بعد السلام ، وقد يدل الحديث على كراهية المعانقة والتقبيل فى السلام ، ولكن جاء فى الترمذى عن السيدة عائشة -رضى الله عنها- قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ فى بيتى ، فأتاه فقرع الباب فقام إليه النبى ﷺ وسلم فاعتنقه وقبَّله . وإذن فالمعانقة فى السلام والتقبيل مباحان ، وهما يكثران فى عصرنا فى السلام بين الأصدقاء كما يكثر تقبيل الأطفال

شفقة ومحبة . أما الانحناء فمكروه، ويحرم الانحناء بهيئة الركوع ؛ لأن ذلك خاص بتعظيم الله فى الصلاة ، ويستحب أن يلقى المسلم أخاه ببشاشة الوجه وتهلله مع الابتسام اللطيف ، وعبر الرسول ﷺ عن ذلك بقوله الذى مر بنا فى غير هذا الموضع حين قال : لا تحتقرن من المعروف شيئًا وأن تلقى أخاك بوجه بشر وأنس ومودة .

●●●

الاستئذان - آداب المجالس

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

٢- ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢].

الأحاديث

١- عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله ﷺ: «**الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع**» (رواه مسلم فى الاستئذان).

٢- عن كلدة بن الحنبل قال: أتيت النبى ﷺ، فدخلت عليه ولم أسلم، فقال النبى ﷺ: «**ارجع فقل السلام عليكم أأدخل**» (رواه أبو داود والترمذى فى الاستئذان).

٣- عن جابر قال: أتيت الرسول ﷺ فدققت الباب، فقال ﷺ: «**من ذا؟** فقلت: أنا»، فقال ﷺ: «**أنا أنا كأنه كرهها**» (رواه البخارى ومسلم).

٤- عن ابن عمر قال: «**لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا**» (رواه مسلم فى كتاب السلام).

والله -تقدس اسمه- يبين فى الآية الأولى آداب الاستئذان للمسلم الذى يزور أحد الناس قريبًا أو غير قريب فى بيته، فإنه لا بد أن يستأنس أى يستأذن قبل دخوله البيت حتى يأخذ صاحب البيت وأهله الفرصة فى استقباله، فقد يكون فى البيت ما ينبغى ستره على الزائر، وحتى إذا كانت الزيارة لإحدى محارمه فقد تكون فى حاجة إلى إصلاح شأنها. وقد يكون صاحب البيت فى شقاق مع الزائر ويخشى أن يشتمه أو يتطاول عليه فلا يريد لقاءه. ظروف مختلفة كثيرة تحرج صاحب البيت أن يدخل عليه الزائر دون استئذان؛ ولذلك أوجبه الله. ومما يروى من لطف الرسول ﷺ فى ذلك أنه قدم المدينة من إحدى مغازيه مع جيشه نهارًا فأقام بظاهرها مع جنوده وقال لهم: انتظروا حتى ندخلها مساء وحتى تمتشط الشعثة (متلبدة الشعر) وتستحد (أى تستعد) المغيبة (التى غاب عنها زوجها). وهو أدب عظيم فى إعطاء المرأة الفرصة كى تزدان قبل لقاء الزوج. وكان الظلام المعتم يغمر المدينة ليلا، فكان ينهى أصحابه أن يطرق أحدهم أهله فيه دون إعلامهن، حتى لا يعرضهم لأى خوف أو فزع، وقالت زينب زوجة عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل: إنه كان إذا جاء من حاجة قضاها وانتهى إلى الباب تنحنح لتعرف زوجته أنه قدم، وإذا دخل الدار تكلم ورفع صوته كراهة أن يقف على أمر يكرهه. والآية تأمر بالجمع بين الاستئذان والسلام. وقيل: إن الاستئذان فرض والسلام مستحب. وبيّن الحديث الأول أن المستأذن يكرر استئذانه ثلاث مرات، فإذا لم يؤذن له انصرف، كما بين الحديث الثانى صيغة الاستئذان، وهى أن يقول الزائر: السلام عليكم أأدخل؟ وكان الرسول ﷺ يعلمها الصحابة كما فى هذا الحديث. ومن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن فى مواجهة الباب حتى إذا فتح لم ير ما وراء من المنزل، إنما يقف عن يمين الباب أو يساره.

والآية الثانية توجب على المؤمنين إذا بلغ الأطفال الحلم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار من أبناء الرجل وأقاربه أى أن حكم الآية السابقة ينطبق عليهم فلا يزورون أحدًا ويدخلون بيته إلا بعد الاستئذان. ويبين الرسول ﷺ فى الحديث الثالث أنه لا بد لمن يستأذن بدق الباب إذا سئل من هو أن يعين شخصه بالاسم أو بالكنية أو باللقب، وأن

لا يجيب بكلمة غامضة مثل أنا، فقد كره ذلك الرسول ﷺ لأن الأصوات تتشابه ولفظ أنا مبهم، ومن بداخل البيت يريد أن يعرف شخص المستأذن بعينه كي يأذن له فى الدخول.

والآية الثالثة فى آداب المجالس والله -جل وعز- يخاطب فيها المؤمنين بالفسح فى المجالس أى التوسع إذا طلب منهم ذلك تكرما من الأخ الجالس لأخيه الواقف، وهو صنيع يوثق المحبة بين المسلمين. والآية مع نزولها فى مجلس رسول الله ﷺ شاملة لكل مجالس المسلمين سواء كانت مجالس علم أو وعظ أو غير ذلك، لما فى هذا التفسح من مواساة محبوبة. ومن الخطأ أن يظن الشخص أن توسعته أخيه تعد نقصًا فى حقه، إذ إن ذلك منه تفضل كريم، ولا يضيع عليه هذا التفضل، بل يجزيه الله به فى دنياه وآخرته وينبغى أن لا يحاول من يأتى مجلسًا متأخرًا العقود فى صدره أو فى وسطه أو أن يقيم شخصًا ويجلس مكانه. وفى كتب الحديث أن الرسول ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وقد نهى نهيًا باتًا أن يقوم له الصحابة قائلا: إن ذلك من شعار العجم والآية الرابعة توجب أدبا فى مجلس الرسول ﷺ وحضرته أن لا يرتفع صوت صحابى على صوت الرسول ﷺ وأن لا يجهروا له بالقول. وهو أدب حميد أن يكون صوت الشخص فى المجلس بين الهمس والجهر بحيث لا يؤذى الجالسين وهى مرتبة رفيعة من الأدب الإلهى فى المجالس، وفى وصية لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ والغض من الصوت: خفضه. ومن آداب المجلس إصغاء الشخص لحديث جليسه والإنصات له وأن لا يقاطعه فى كلامه.

●●●

الأمر بالمعروف - النهى عن المنكر

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١ - ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٢ - ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣ - ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

٤ - ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

الأحاديث

١- عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان ورواه أبو داود وابن ماجة).

٢- عن حذيفة -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم»** (رواه الترمذى).

٣- عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والجلوس فى الطرقات. فقالوا: ما لنا فى مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فيها فأعطوا الطريق حقه**

قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله قال ﷺ: «**غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**» (رواه البخارى، ومسلم فى الاستئذان، ورواه أبو داود فى الأدب).

٤- عن أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ: «**إن شخصًا أُلقى فى النار يوم القيامة سئل ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**» (رواه البخارى فى صفة النار وفى الفتن).

والله -جل وشأنه- فى الآية الأولى يأمر المؤمنين أن يكون بينهم أمة أى جماعة أو طائفة تدعو إلى الخير أى إلى الأعمال الخيرة الطيبة، ويمكن أن يكون المراد فى الآية بالخير القرآن الكريم والحديث أو بعبارة أخرى الإسلام يدعو إليه الأمة ويحث عليه. ﴿**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ هو ما يعرف عقلاً وشرعًا من الأعمال الحسنة ﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ وهو ما ينكر على صاحبه عقلاً وشرعًا من الأعمال الشريرة والسيئة. ومن الخطأ ما يقوله بعض الفقهاء من أن النهى عن المنكر واجب ما لم يجر إلى منكر أو هى؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء النهى عن المنكرات جميعًا، وبالتالى إلى إلغاء هذا النهى الإلهى عن المنكر جملة. وتخصيص الله له جماعة من الأمة يجعله واجبًا عليها، ويحل محلها ولاة الأمور فى نهى الناس عن المنكرات واتخاذ الأسباب المحققة لذلك. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»، وكأنه يصور درجات التغيير وتمنيه. والأمر والنهى الفعليان إنما يكونان عن طريق أولى الأمر، وهو ما جعل حكام المسلمين فعلاً فى العصور الإسلامية يقيمون للنهى عن المناكر نظام الحسبة، وكان عامًا فى البلاد العربية شرقًا وغربًا، وبدأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعين لمراقبة الأسواق والأسعار سيدة هى الشفاء رضى الله عنها، وكانت ولاية الحسبة من الأعمال الرفيعة، وكان يتولاها فى كل بلد فقيه نابه، ويكون له فى البلاد الكبيرة مساعدون من الفقهاء.

والله -تبارك وتعالى اسمه- فى الآية الثانية يقول: إن الأمة الإسلامية أفضل الأمم التى أخرجت ووجدت فى الدنيا، وهى أفضلية مرجعها إلى رسولها ﷺ وما أمر

بتبليغه إليها من الهدى ومن الشريعة المثالية، مما جعلها أو بعبارة أدق مما جعل أفرادها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهو نهى وأمر وكُلا مع الزمن وتطور الحياة فى الأمة إلى أولى الأمر، ولا بد أن يسندهم فى ذلك الفقهاء الراسخون فى العلم الذين يتمثلون تعاليم الشريعة الإسلامية على وجوهها الصحيحة. وجعل الله التفضيل للأمة الإسلامية راجعًا إلى فضيلتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قد يفهم منه أن هاتين الفضيلتين تخصان الأمة الإسلامية وأن أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية لم يعملوا على إشاعة هذا النهى وذلك الأمر. أما قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فإن الآية لم تنزل فى وصف أهل الكتاب عامة، إنما نزلت فى وصف طائفة قليلة منهم اعتنقت الإسلام مثل عبدالله بن سلام. ويدل الحديث الثانى على مدى حرص الرسول ﷺ أن يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قانونين ثابتين فى أمته ثبوت الصخر حتى ليقول لأصحابه: إنكم إذا لم تتمثلوا هذين القانونين تمثلاً تامًا فإن الله يوشك أن يصب عليكم عقابًا منه، مع إغلاق أبواب رحمته دونكم فلا يستجاب دعاؤكم له مهما توسلتم وتضرعتم إليه.

والآية الثالثة تنص على أن المؤمنين والمؤمنات بينهم لحمة وثقى أوثق من لحمة الدم، هى لحمة الإسلام التى تجعل بعضهم أولياء بعض يتناصرون ويتعاضدون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بصيرة نيرة، يصدر عنها المؤمنون والمؤمنات صدوراً طبيعًا، صدور الضوء عن الشمس. وهو إعلاء للمؤمنات لأنهن يقبلن على ذلك عن إيمان بدينهن لا عن تقليد للرجال المؤمنين. ويوصى الرسول ﷺ فى الحديث الثالث أصحابه إذا جلسوا فى الطرق أن يعطوا الطريق حقه من رد السلام وغض البصر وكف الأذى عن الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الأثيم. وقال -كما فى الحديث الرابع- إن من يأمر بالمعروف ولا يؤديه وينهى عن المنكر ويأتيه سيصلى ناراً حامية.

ويصف الله -عز سلطانه- فى الآية الرابعة المهاجرين والمسلمين بأنهم إن مكنهم فى الأرض وسيطروا على أجزاء منها نشروا دعوة الإسلام: من إقامة الصلاة عماد الدين وإيتاء الزكاة ركنه المتين، ونفذوا -بقوة- قانونيه العظيمين: الأمر بالمعروف والنهى عن

المنكر، وهما القانون الجامعان لشئون الدين ودقائق أحكامه. وهو ما حدث فعلاً فقد نشروا دعوة الإسلام وأوامره ونواهيه فى كل ما فتح الله لهم من البلدان فى عهدى أبى بكر وعمر: فى العراق وإيران بقيادة سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وفى الشام بقيادة سيف الله: خالد بن الوليد، وفى مصر بقيادة عمرو بن العاص. ومكن الله لهم وللإسلام فى هذه البلدان فأقيمت فيها الصلاة وأخرجت فيها الزكاة وعم فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وظل ذلك دأب المسلمين كلما فتحوا أرضًا شرقًا حتى الهند وغربًا حتى المحيط الأطلنطى، وبذلك تحقق دائمًا للمسلمين والإسلام وعد الله العظيم.

●●●

بر الوالدين والأقارب

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤].

٢- ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

٣- ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

٤- ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- أنه سأل ﷺ: «أى العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: **الصلاة على وقتها، قال ثم أى؟ قال: ثم بر الوالدين**» (رواه البخارى فى كتاب الأدب).

٢- عن أبى بكر -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قالها ثلاثا** قلنا: بلى يا رسول الله ﷺ **قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين**» (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب الإيمان).

٣- عن أبى أيوب الأنصارى -رضى الله عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار، فقال الرسول ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم**» (رواه البخارى فى كتاب الأدب).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك» (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب: باب صلة الرحم).

جمع الله -عز شأنه- فى الآية الأولى بين وصيتين أساسيتين من وصايا الشريعة الإسلامية، وهما عبادة الله وحده لا شريك له، وبر الوالدين، والله كثيراً ما يقرن فى القرآن الكريم بر الوالدين بعبادته وطاعته تعظيماً له، حتى يرعاه الأبناء ويوفوهما حقوقهما عليهم، وإذا كبر أحدهما فلا تؤذهما أى أذى باللسان من مثل قول ﴿أُفٍّ﴾ متضجراً، ولا تنهرهما أو تزجرهما عن شيء، بل أكرمهما بقول لين يقع من نفسيهما موقعاً حسناً ثم يقول الله فى الآية الثانية: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ الناشيء عن الرحمة بهما تذللاً كريماً منك لأبويك، وادع الله لهما أن يشملهما برحمته لتربيتهما لك وعنايتهما ورعايتهما لك فى صغرك بالمهد وحين كنت صبياً. وأوصى الرسول ﷺ مراراً وتكراراً -كما فى الحديث الأول -ببر الوالدين وسعة الإحسان إليها وترضيتهما وإسباغ الابن كل ما يستطع من الخير عليهما وحذر مراراً وتكراراً من عقوق الابن الابن لأبويه، ويجعله - كما فى الحديث الثانى مثل الإشراك بالله من أكبر الكبائر، إذ الإشراك كفران بالله الخالق الرزاق، والعقوق كفران بالأبوين وما أديا للابن من خدمات فى صعود لا تكاد تحصى، وهو بذلك يجحد حقوقاً عليه، وجدير به أن يعاقبه عقاباً أليماً فيدخله النار جزاء وفاقا لعقوق أبويه. وعن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- أنه قال: لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من كلمة (أف) لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وفى الحق أن عقوق الأبوين شاذ نادر وأن الكثير الغامر هو البر بهما كما أوصى الله ورسوله ﷺ، وفى التراث العربى أخبار كثيرة عن بر عظيم للأبناء بالآباء، فمن ذلك أن الخليفة المأمون قال: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى البرمكى بأبيه -وكان الرشيد زج بهما فى السجن- وبلغ من الفضل لأبيه أنه كان لا يتوضأ فى الشتاء إلا بماء ساخن،

ومنعهما السجان من الوقود في ليلة شديدة البرودة، فلما نام يحيى قام الفضل إلى قمقم (إناء) نحاس فملأه ماء، وأدناه من المصباح ولم يزل قائمًا وهو في يده إلى أواخر الليل، واستيقظ يحيى وقد سخن الماء، فشكر الفضل صنيعه. وكان أحد الأبناء البررة بآبائهم واحدًا من الثلاثة الذين حكى الرسول ﷺ قصتهم في مبيتهم بغار في الجبل، واستيقظوا فوجدوا صخرة تدحرجت من الجبل وسدت بابه، فلجأ كل واحد يدعو ربه بصالح عمله، ومر بنا كيف انزاحت الصخرة بدعاء الثلاثة ربهم بصالح أعمالهم. وكان دعاء الابن البار: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أسقي زوجتي وأولادي من اللبن مساء حتى أسقيهما أولاً، وتأخرت ليلة فوجدتهما نائمين، فلبثت -وقدح اللبن على يدي- أنتظر استيقاظهما حتى برق (أضاء) الفجر، فاستيقظا فشربا اللبن. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا، وكان أول الثلاثة دعاء.

ويقول الله -جل شأنه- في آية سورة لقمان: إنه وصى الإنسان بوالديه كي يقدم لهما كل ما يستطيع من بر وخير جزاء لما تحملا من مشقة في تربيته حتى بلغ أشده، ويكتفي الله في تصوير مشقتهما بتصوير ما تتحمله الأم في حمل ابنها من ضعف طاقتها على هذا الحمل، ويتلطف الله فيقول: إنها تحمله وهنا على وهن أي ضعفا على ضعف (وفصاله) أي فطامه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾. وما أعظم ما تتحمله الأم في ذلك كله من عناء مع الشفقة الشديدة على رضيعها ذكرًا أو أنثى ويؤكد الرسول ﷺ البر بها في حديثه المشهور الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة من أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك، قال: الرجل ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك. وليس تكرار اسم الأم في الحديث لبيان فضلها على الأب وإنما لتأكيد البر بها، ويكفيها فضلاً وفخرًا أن الرسول ﷺ قال: إن الجنة تحت أقدام الأمهات. ويروى أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه: إن لي أمًا بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال عمر: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

ويقرن الله -تبارك اسمه- في آية سورة النساء تقواه بتقوى ذوي الأرحام تأكيدًا

لأداء حقوقهم، والأرحام جمع رحم، وأصله مستقر الولد فى بطن أمه، ثم أطلق على القرابة سواء نشأت عن أمومة واحدة أو لم تنشأ، ومن ذلك قولهم: وصلتك رحم أى قرابة. وتؤكد آية سورة الأنفال هذا الوصل وأن لذوى الأرحام حقوقا مبينة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى فى سورة محمد يقول -جل شأنه-: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ والله فى الآيتين يجعل تقطيع الصلات بين الأخان أوالقرابات جرما كبيرا يوصف صاحبه بالعمى والصمم لأنه يقطع الأواصر التى توثق المحبة بين الأقارب أو بين أفراد الأسرة، وهى محبة أو مودة لا يريدها الله لأفراد الأسرة الأقارب فحسب، بل لأفراد الأمة جميعًا عن طريق ترابطهم بإخاء دينى وثيق. والأحاديث مثل الحديث الرابع كثيرة فى صلة ذوى الإرحام صلة بارة حميدة، وأنها طريق قويم للجنة ومتاعها الخالد.

●●●

حقوق المرأة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

٢ - ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١].

٣ - ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٣٢].

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» (رواه البخارى فى بدء الخلق والزواج ومسلم فى الزواج والنسائى فى عشرة النساء).

٢ - عن ابن عباس: كانوا فى الجاهلية يعطون مال الميت للولد، ولا يورثون المرأة ولا البنت ولا الصبى إنما يعطون المال لمن قاتل على الفرس وحاز الغنيمة. وعنه: كان الرجل فى الجاهلية إذا مات ورث زوجته أولياؤه، فإن شاء بعضهم زواجها تزوجها أو زوجوها لمن يشاءون (أخرج ذلك البخارى ورواه ابن كثير).

٣- عن ابن رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»** (رواه أبو داود فى السنن بأبواب الطلاق).

٤- عن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الأمير راع وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول»** (رواه البخارى فى كتاب الأحكام).

الخطاب فى الآية الأولى للناس جميعًا فى عصر الرسول ﷺ وبعده ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمُ**﴾ أى احذروا عذابه وأدوا له عبادته وحده لا شريك له، فهو ﴿**الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾. والمفسرون للقرآن الكريم يجمعون على أن المراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر جميعًا ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ والمراد حواء، ويقول المفسرون: إنها خلقت من ضلع آدم بدلالة قوله تعالى: ﴿**مِنْهَا**﴾ وحين رآها أنس إليها وأنست إليه. والزوج يطلق فى تكوين الأسرة على الرجل والمرأة وقد تضاف لها تاء التأنيث تمييزًا من الرجل. والله -جل شأنه- يشير فى الآية إلى تكوين الأسرة الإنسانية الأولى وأنها من زوج وزوجة أو أب أو أم وهما مختلفان تشريحيًا وفسيولوجيًا من أجل التناسل والإنجاب، إذ المرأة تحمل الجنين تسعة أشهر وترضعه نحو سنة ونصف، وهما دوران خاصان بالمرأة تتميز بهما، بينما يتميز الرجل بأنه أكثر منها قوة وتحملاً للعمل، ولذلك من الظلم للمرأة أن يقال إنها والرجل متماثلان. وهو ما جعل القرآن والسنة يعطفان عليها مع دعوة للشفقة عليها كما جاء فى الحديث الأول من توصية الرجال بالنساء فى المعاشرة، وأن يقبلوا ما قد يكون فى المرأة من اعوجاج لأنها مخلوقة من ضلع أعوج، وأعوج ما فى الضلع أعلاه إشارة إلى لسانها وما قد يند عنه من ألفاظ نابية، وأن يغفر لها ذلك، فإن الرجل إن حاول أن يقيمها كان مثله مثل من يحاول تقويم اعوجاج من ضلع، فإن لم يستطع تقويمه، فينبغى أن يصبر على اعوجاجها حتى تستمر عشرتها وحتى لا يؤدى شقاقها إلى الفراق والانفصال. وتشير الآية الأولى بخلق حواء من آدم إلى ما ينبغى أن يكون بين الزوجة والزوج من التجانس وعدم الشقاق، كما تشير إلى الغاية من تكوين

الأسرة وهى التناسل لاستمرار الإنسان على الأرض، إذ قال -تبارك اسمه- ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا ﴾ أى من آدم وحواء (رجالاً كثيرا ونساء) كثيرات ونشرهم فى أنحاء الأرض على اختلاف أنواعهم وأممهم وألوانهم ولغاتهم، وقدر لهم معايشهم وأحوالهم وأسبغ عليهم نعمه وآلاءه.

والآية الثانية فى ميراث الذكر والأنثى وأن للذكر مثل حظ الأنثيين، وكانوا فى الجاهلية لا يورثون الأنثى مطلقًا زوجة أو غير زوجة كما يدل كلام ابن عباس، بل كانت الزوجة إذا مات زوجها تورث كأى شئ من متاعه، فنظم القرآن الميراث فى الأسرة فجعل للذكر والأنثى حقوقًا. وحقًا جعل نصيب البنت -كما تقول الآية- النصف من نصيب الابن، لأن الابن يحتاج إلى الزواج ويدفع صداقه للزوجة من نصيبه فى الميراث، ولأنه هو الذى يقوم بنفقة أسرته: زوجته وأبنائه، وليس على الزوجة شيء من ذلك مهما كانت ثرية، وأيضًا عليه الإنفاق على والديه وإخوته وأقاربه إن كانوا محتاجين، مما يجعل على الابن التزامات أسرية مختلفة. فليس الغرض من تفرقة القرآن الكريم بين الذكر والأنثى فى الميراث التفرقة فى الحقوق بل تنظيم هذه الحقوق فى الأسرة. وقد يقال: إن الإسلام لم يسو بين الرجل والمرأة فقد أباح للرجل أن تتعدد زوجاته، فيتزوج اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، وهو إنما صنع ذلك لأن الأمم تتكاثر بينهما الحروب ويموت كثير من الرجال، كما كان شأن العرب فى الجاهلية فيربو عدد النساء ثيبات وأبكارًا على عدد الرجال، فإن لم توجد هذه الرخصة جر ذلك إلى فساد اجتماعى كبير، وأيضًا قد تمرض الزوجة بمرض مزمن. ونفس بعض الدول التى لا تسمح بتعدد الزوجات يكثر فيها الأولاد غير الشرعيين، فدرءًا لمفاسد كثيرة أباح الإسلام تعدد الزوجات، واشترط عدالة الأزواج بينهم قائلا فى مطلع سورة النساء: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ فقط ثم قال فى نفس السورة، محذرا من تعدد الزوجات: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وكأن الله يجعل التعدد للضرورة وقد يقال: إنه لم يسو بين المرأة والرجل فى الزواج والطلاق، فحرم على المرأة أن لا تتزوج إلا عن طريق أبيها أو وليها الشرعى، وذلك إنما يصدق عليه ناقص الأهلية

عقلاً أو سنًا وبلوغًا، أما المرأة العاقلة البالغة فمذهب أبى حنيفة الفقهى المعمول به فى المحاكم المصرية جعل لها أن تزوج نفسها وتستقل بعقد الزواج كما تستقل بعقد البيع والشراء فى أموالها. ويقولون: إن الإسلام أباح للرجل الطلاق وحده، وهذا أيضًا غير صحيح فالمرأة لها حق الطلاق مثل الرجل، وقلما تطلب المرأة الطلاق حفاظًا على الأسرة، فظن أنه حق الرجل. وقد ألزمه القرآن والسنة بحقوق مختلفة حين يعمد إلى الانفصال عن زوجته، وهى مبينة فى سورتى البقرة والطلاق. وحاول الله أن يفسح للزوجين فى العودة إلى معاشرة كل منهما الآخر، فجله مرتين ومع كل مرة عدة من الأيام والأسابيع والأشهر لعلهما يصطلحان ويحببهما الله فى الصلح قائلا: ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ ومن قوله فى ذلك للرجال بسورة النساء: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثالث: أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

وقد سوى القرآن بين المرأة والرجل فى الفروض والحقوق الدينية من صلاة وزكاة وصيام وحج ومن ثواب ونعيم فى الجنة، يقول جل شأنه فى سورة غافر: ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾. وسوى القرآن بين الرجل والمرأة فى المسئولية الاجتماعية والسياسية بمثل قوله فى سورة التوبة: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ فى صلاح الأمة اجتماعيًا وسياسيًا. وسوّى الإسلام بين الرجل والمرأة فى العلم والتعليم، فكان الرسول ﷺ يدرس لسيدات المدينة شئون دينهم، وكن يروين عنه أحاديثه وفى مقدمتهن السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ. واشتهرت محدثات كثيرات حمل عنهن الحديث النبوى أئمة كبار، وظلت المرأة المسلمة فى العصور الإسلامية على العلم والتعليم حتى كان منهن طبيبات حاذقات.

والآية الثالثة فى تمنى ما فى أيدى الناس من أموال عن طريق الميراث أو غيره سواء كانوا رجالاً أو كن نساء، والله -جل شأنه- ينهى المؤمنين والمؤمنات عن هذا التمنى

الذى يصعب أو يستحيل حصوله، تنزيهًا لهم وارتفاعًا بهم عن أن يشغلوا نفوسهم بما قد يفسد علاقاتهم بعضهم بعض، وقد يجرهم إلى التحاسد والبغضاء. ويقول الله -جل شأنه- ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ وهو يسوى بين الرجل والمرأة فى حق التملك لما اكتسباه من عمل قاما به. ويتبع هذه المساواة بين الرجل والمرأة أن تستقل اقتصاديًا عن زوجها، فتكون لها ثروتها الخاصة، ولها أن تشترى وتبيع وتتجر، وأن ترفع إلى القضاء خصومتها، كل ذلك دون أخذ إذن زوجها وموافقته. ولكل هذه الحقوق المكفولة للمرأة المسلمة كانت لا تفقد اسم أبيها وأسرتها فى الزواج، ولا يضاف اسم زوجها إليها على نحو ما هو معروف فى الغرب، بل تظل تحتفظ باسمها الشخصى، مما يدل -بوضوح- على اكتمال حريتها فى التصرف بأموالها وشئونها الاقتصادية. ويقول الله -تبارك اسمه- بعد نهى المسلمين عن التطلع إلى ما فى يد المرأة أو الرجل من مال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أى سلونى من فضلى أعطكم ما تسألون، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج من الله، وهو عليم بمن يستحق من الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق من الآخرة فيوفقه لأعمالها الصالحة.

ويصور القرآن الكريم الصلة الوثيقة بين الزوجين بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أى أنهما يبلغان من شدة الصلة الطيبة أن يكونا شخصًا واحدًا، فكل منهما لباس للآخر يغطيه ويستره كما يستره اللباس، فلا يخونه ولا يذيع سره، حين يقضى إليه بسريرة نفسه وهمومه، فبينهما إخلاص حميم. ويصف الله هذا الإخلاص بقوله فى الآية الرابعة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والله يمتن على الناس بأنه خلق لهم من أنفسهم أى من نوعهم زوجات يأنسون إليها، وسرعان ما تصبح الزوجة للزوج كأنها سكن يطمئن له، فيفضى إليها بما يشغله وبخواطره وأفكاره ويستشيرها فى كل شئونه. ويضيف الله إلى هذه المودة التى تنشأ بين الزوجين والمحبة، إذ يصبحان بعد الزواج متحابين متوادين، ويضيف الله أيضًا أنه جعل بينهما رحمة ورأفة كرأفة الأبوة

والأمومة. وكل هذه نعم عظمى يسبغها الله على الزوجين ليشعر كل منهما بواجباته لعشرته الصادقة وحقوقه فى القيام على الأسرة ورعاية الأبناء خير رعاية. ويوصى الرسول ﷺ بهذه الرعاية فى الحديث الرابع إذ يقول ﷺ: «الرجل راع على أهل بيته ينفق عليهم»، ويقول الله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ﴾ أى قتر ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾. ويذكر الرسول ﷺ وجوه الإنفاق فى حديث قائلا: «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى تحرير رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»، فأجر النفقة على الأهل عند الله أكبر من نفقة الصدقة على المساكين وأكبر من أجر النفقة فى سبيل الله وحرب الأعداء، وهو حث عظيم لنفقة الزوج على أسرته من الزوجة والأبناء. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الرابع: المرأة راعية على بيت زوجها وولده، تقوم على تدبير المعاش فيه وعلى تربية الأبناء تربية قويمة. وكل ما قدمت واضح الدلالة على أن الإسلام -منذ أربعة عشر قرنًا- أعطى المرأة حقوقًا كثيرة تجعلها تصعد درجات فى مساواتها مع الرجل، وكثير من هذه الحقوق وخاصة حقوق التملك والاحتفاظ بشخصيتها بعد الزواج لا تزال تفقدها -فى عصرنا- المرأة الغربية، مع رعاية الإسلام التامة للحياة الزوجية والعائلية وأن تسودها المودة والمحبة والرحمة والرأفة.

●●●

الإخاء

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

٣- ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

٤- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٧-٨].

٥- ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الأحاديث

١- عن أبي موسى الأشعري: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» (رواه البخاري ومسلم في كتاب الأدب).

٢- عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» (رواه البخاري ومسلم في كتاب الأدب).

٣- عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج**

الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» (رواه مسلم في كتاب الأدب، وروى بعضه البخاري في كتاب الإكراه).

٤- عن أنس: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** (رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان).

٥- عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»** (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

والله في الآية الأولى يذكر أخوة المسلمين، ويجعل واجبًا على كل مسلم أن يستشعرها إزاء أخيه وإخوته في الدين الحنيف. وهي أخوة تعقد بين المسلمين وصاحبه حقوقًا وواجبات كواجبات الأخوة الحقيقية بين الأشقاء وحقوقها، وكأنها تربط بين المسلم والمسلم بنسب في الدين كالنسب في الأبوة، ويوضح ذلك قول عمر بن الخطاب لامرأة شكت إليه حاجة أولادها وقالت: إن زوجها شهد مع رسول الله ﷺ عمرة الحديبية، فقال عمر رضي الله عنه: «مرحبا بنسب قريب» يريد النسب في أخوة الإسلام ويراه أقرب من النسب الحقيقي، وقضى للمرأة حاجتها مطيبًا خاطرها. وبحق يقول الرسول ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**، فهما بنيان واحد تشده هذه الأخوة الوثيقة تمسكه -ما دامت- فلا يخر ولا يسقط منها شيء. ويقول الله في الآية الثانية: إن المؤمنين والمؤمنات ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ أي أن بينهما ولاية أخوة توجب الإخلاص والتعاون بينهما، ويصفهم -جل شأنه- بأنهم يأمرون بالمعروف المندوب له في الشريعة من وجوه الخير وينهون عن المنكر المنهي عنه من وجوه الشر.

والآية الثالثة تصف المسلمين بأنهم أشداء على الكفار لا يلينون لهم أي لين، كما قال تعالى: ﴿**وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾. ويقول: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ أي أنهم يستشعرون العطف والحنو والبر والرأفة، وصور ذلك الرسول ﷺ تصويرًا رائعًا في الحديث الثاني إذ قال: مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء وتجمعت بالسهر والسهاد والحمى والألم له. ويكثر الرسول

ﷺ من دعوة المسلم للرحمة بأخيه المسلم، ومن قوله ﷺ فى صحيح البخارى ومسلم: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» وفى صحيح البخارى: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» فقال رجل: يا رسول الله أنصره إن كان مظلومًا أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال ﷺ «**تحجزه -أو تمنعه- من الظلم فإن ذلك نصره**». وكان لا يزال يوصى المسلم أن يرعى حقوق أخيه المسلم الاجتماعية، من ذلك قوله ﷺ: «**حق المسلم على المسلم خمس**: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس» بقولك له: يرحمك الله. وفى رد السلام يقول الله عز شأنه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾. وفى عيادة المريض يقول الرسول ﷺ: «**إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل فى جنا الجنة**» (رواه مسلم) أى أنه يثاب ثوابًا عظيمًا. وكان يدعو إلى اتباع الجنائز مؤازرة لأهل الميت. كما كان يدعو إلى إجابة الدعوة مهما كان الداعي فقيرًا. وكان لا يزال يوصى المسلم أن يلقى أخاه بوجه طلق وبالبشر وبالكلام اللطيف ومن قوله: «**الكلمة الطيبة صدقة**» (رواه البخارى ومسلم). وكان الرسول ﷺ لا يزال يوثق الصلات الاجتماعية والسلوكية بين المسلمين مؤكدًا أن كل عمل يؤديه المسلم لأخيه المسلم يثاب عليه، ويقول كما فى الحديث الثالث: «**مَنْ كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته**» ويقول ﷺ: «**من فرج عنه كربة** -أى غمًا من شىء نزل به- **فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة**»، وكان يدعو دائمًا إلى أن يستر المسلم أى عيب يجده فى أخيه ويجعل ثواب ذلك ستر الله له يوم القيامة.

والآية الرابعة تصف المسلمين بأنهم يطعمون الطعام -مع اشتهائهم له- مسكينًا محتاجًا ويتيمًا لا عائل له وأسيرًا حتى لو كان مشركًا يقول، ابن كثير فى تفسير الآية: عن ابن عباس كان الأسراء يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، ومعروف أن الإسلام دعا دعوة واسعة فى القرآن الكريم والحديث النبوى إلى الإنفاق فى سبيل الله وجعل الزكاة فريضة كبرى، ودعا الأغنياء إلى هبة أموالهم للفقراء والمساكين من المسلمين تقربًا إليه وزلفى، وسمى ذلك قرضًا

حسنًا وأنه يضاعفه لصاحبه أضعافًا كثيرة وبذلك شرع القرآن- ومعه السنة النبوية -العدالة الاجتماعية فى الأمة الإسلامية، إذ جعلها للفقراء والمساكين حقًا معلومًا فى أموال الأغنياء، حقًا دينيًا، فالغنى لا يعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضًا لأمته، ويترابط معها ترابطًا اقتصاديًا كما يترابط اجتماعيًا وسلوكيًا.

والآية الخامسة فى أخوة الأنصار للمهاجرين، وكانوا قد أسكنوهم فى أول هجرتهك معهم فى بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، ويقول الله: إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أى شدة احتياج، وهو نبل فى الأخلاق ذكرت فيه قصص وأخبار كثيرة عن الصحابة وتآخيهم، ومن ذلك ما يروى عن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك الذى سُحق فيه الروم أطلب ابن عم لى بين شهداء المعركة من المسلمين ومعى شيء من الماء، فإذا أنا به فقلت له: أسقيك فأشار برأسه أن نعم، فإذا بعكرمة بن أبى جهل يقول: آه آه فأشار إلىّ ابن عمى أن أنطلق إليه، فجئت إليه فقلت: أسقيك، فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه فأشار أن أنطلق إليه. فإذا هو قد مات، فرجعت إلى عكرمة فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو أيضًا قد مات وهى صورة رائعة للإيثار، فكل من الثلاثة كان مثقلاً بالجراح وهو فى أشد الحاجة إلى الماء، ومع ذلك كان يرده إلى أخ جريح آخر يتأوه، ولم يشربه أحد منهم وماتوا جميعًا، -رضى الله عنهم- وأرضاهم. وواضح مما قدمت كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية بثا فى روح المسلمين أخوة بارة فى الدين الحنيف، وهى أخوة كان يرعاها الله ويتعهدها بشهادة الحديث: «**كان الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه**» بل إنه ليحب له كما جاء فى الحديث الرابع ما يحبه لنفسه. وبهذا الإخاء الصادق والأخوة الجماعية المخلصة استطاع الصحابة أن ينشروا دينهم الحنيف وتعاليمه السمحة فى إيران والعراق والشام ومصر، وأن يكوِّنوا دولتهم الإسلامية فى سنوات معدودة.

●●●

المساواة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الأحاديث:

١- قال رسول الله ﷺ: - **«إن الله أذهب عنكم عبيّة[1] الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس: مؤمن تقىٌّ أو فاجر شقىٌّ، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»** (رواه الترمذى).

٢- من خطبة رسول الله ﷺ -فى حجة الوداع:

«أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمرَ ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى».

٣- عن عائشة -رضى الله عنها- أن قريشًا أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا خشية إقامة الرسول ﷺ عليها من يكلِّم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ، فكلَّم رسول الله ﷺ فقال له: **أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟! ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحدَّ، وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»** (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الحدود).

والآية القرآنية الأولى تقول: إن الله خلق الناس من نفس واحدة هى آدم وزوجه

(١) عبية: تعاظم.

حواء، ونشر منهما رجالاً كثيراً ونساءً فى أقطار العام على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، والآية تدعو الناس جميعًا إلى أن يؤدوا لله حق خلقه لهم وتناسلهم فيتقوه ويؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، ويتبعوه. . وإن اشتراك الناس فى أصل واحد لحرىّ أن يجعلهم يحسُّون أنهم جميعًا سواء فى الأصل والنسب، فلا شريف ومشروف ولا سيد ومسود، فتلك مشاعر جاهلية عفَّى عليها الدين الحنيف، ولذلك يقول الرسول ﷺ حديثه الأول: أن الله محا عن المسلمين الزهو بالآباء والفخر بالأنساب، وما هم إلا فريقان: فريق مسلم تقى يصدع بأوامر الله ونواهيه، وفريق فاجر شقى كفر بخالقه. ويعلل الرسول ﷺ لهذا التسوية بين الناس جميعًا فأبوهم واحد، هو آدم، وآدم خلقه الله من تراب، فلا داعى لصلف ولا لكبر ولا لشعور أحد باستعلاء على أحد.

والآية الثانية تحضّ على المساواة بين أفراد النوع الإنسانى فى جميع البقاع، فهم جميعًا لأب واحد هو آدم وأم واحدة هى حواء، ويقول الله: إنه جعلهم شعوبًا وقبائل، ليتعارفوا، لا ليتنافروا ولا ليتفاخروا . ولا ليتطاول بعضهم على بعض، وإنما ليعرف كل شخص فضل ربه ونعمه عليه ويعبده حق عبادته ويتقيه، فلا تفاضل بين شعب وشعب وقبيلة وقبيلة وفرد وفرد إلا بفضيلة جديدة وهى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتقوى الله حق تقواه، فهى العنوان الإسلامى الجديد للتفاضل، وأن الأفضل عند الله والأكرم والأشرف هو الأتقى المتصف بهذا الكمال الربانى. ويجعلها الرسول ﷺ فى خطبته بحجة الوداع مدار الفضل بين أفراد المسلمين من كل الأجناس والألوان، إذ يعلن لأمته أنه لا فضل فيها لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. وبذلك جعل الإسلام المساواة بين الناس جميعًا قانونًا إسلاميًا خالدًا، فالجميع متساوون سواء أكانوا عربًا أو غير عرب، وسواء أكانوا سودًا (حتى لو كانوا زنوجًا) أو غير سود، وسواء أكانوا حمرًا أى بيضًا أو غير بيض. وهذا هو التفسير الحقيقى لقيام الإمبراطورية الإسلامية الضخمة سريعًا من الهند إلى المحيط الأطلنطى، إذ كان المسلم -فى كل تلك الأنحاء- يشعر بمساواة حقيقية بينه وبين جميع الناس فى كل مكان.

والحديث الثالث تطبيق عملى لحدود الله على الشريف وغير الشريف دون أى تمييز أو أى مراعاة لشرف أو لمكانة عشيرة أو أسرة، فقد سرقت امرأة قرشية من عشيرة بنى مخزوم ذوى المكانة الرفيعة فى قريش، وشعر أهلها وغير قليل من قريش بهمٍّ لا يماثله هم إن طبَّق الرسول ﷺ عليها حد الشريعة وقطع يدها وعاشت مقطوعة اليد، فوسَّطوا له أسامة بن زيد أملاً فى أن لا يوقع عليها الحد. ولم يكد الرسول ﷺ يسمع منه وساطته فى تلك المرأة حتى بادره منكرًا عليه شفاعته لها قائلاً ﷺ: «أتشفع فى حد من حدود الله؟! ثم قام فخطب فى أهل المدينة قائلاً: إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا يميِّزون فى حد السرقة وما يماثله، فإن اقترف السرقة شريف لم يقيموا حدًّا الله عليه، وإن اقترفها ضعيف أقاموا عليه الحدَّ، ويقسم لو أن ابنته السيدة فاطمة -رضى الله عنها- سرقت -معاذ الله- لأقام عليها الحد وقطع يدها. إن عهد التمييز بين الشرفاء وغير الشرفاء انتهى فى الشريعة الإسلامية إلى غير رجعة، وحلَّ مكانه عهد مساواة بين المسلم وأخيه المسلم فى كل شىء: فى الحدود وغير الحدود.

وكان الرسول ﷺ يطبق هذه المساواة على نفسه بينه وبين المسلمين تطبيقًا دقيقًا، من ذلك أنه كان ينقل اللَّبِن المضروب من الحجارة فى بناء أول مسجد بالمدينة، ومن ذلك أنه فى غزوة الخندق المشهورة شارك أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة حتى يمنع جيش قريش من دخولها. وشاع فى المدينة ذات ليلة أنه يُسْمَعُ صوت لغارة بعض المشركين، فركب فرسًا عاريًا لأبى طلحة ليس عليه سرج، وتقلد سيفًا، وسبق الناس إلى الصوت، وأوغل نحو الصوت، ولم يجد أحدًا، فعاد يطمئن الناس ويقول ﷺ لهم: «لن تراعوا لن تراعوا». ويروى أنه كان فى سفر مع جماعة من أصحابه، فأمرهم بإعداد شاة للطعام، فقال صحابى: يا رسول الله علىَّ ذبحها، وقال ثان: يا رسول الله علىَّ سَلْخُها، وقال ثالث: يا رسول الله علىَّ طبخها، فقال رسول الله ﷺ: وعلىَّ جمع الحطب والوقود، فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال ﷺ: قد علمت أنكم تكفونى ولكن أكره أن أتميَّز عليكم. وبلغ من إحساس الرسول ﷺ بالمساواة بينه وبين

الناس أنه كان يشارك أهل بيته وخدمه فى العمل، فكان يخيط ثوبه، ويخصف نَعْله، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويكنس بيته، ويخدم نفسه، ويأكل مع خادمه.

وبلغ من إحساس الرسول ﷺ بالمساواة بينه وبين الناس وعمقها فى فؤاده أنه كان يقص من نفسه لأصحابه، ومما يروى من ذلك أنه كان يقسم شيئًا فأكبَّ عليه رجل، فغمزه -ليدفعه عنه- بعُرْجون[1] نخل كان معه. فصاح الرجل، فقال الرسول ﷺ: تعال فاستقدْ، طالبًا إليه أن يقتصَّ لنفسه منه هذه الغمزة، فابتسم الرجل، وقال: عفوت يا رسول الله. ويروى أن عمر بن الخطاب خطب فى خلافته، فقال: ألا من ظلمه أميره فليرفع إلىّ ذلك أقيده منه، فقام عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين لئن أدَّب رجل منا رجلاً من أهل رعيته لتقصنَّه منه؟ قال عمر: كيف لا أقصُّه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصُّ من نفسه. وفى كل ما ذكرت ما يصوِّر كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ، كل ذلك ثبَّت مبدأ المساواة بين أفراد المسلمين منذ أربعة عشر قرنًا بينما لا تزال الولايات المتحدة إلى اليوم تتعثَّر فى هذا المبدأ الإنسانى القويم بين سكانها من السود والبيض.

●●●

(١) العرجون: ما يحمل الثمر، والمراد طرفه.

العمل

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

٣- ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

٤- ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

٥- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٧].

الأحاديث:

١- عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أكل أحد طعامًا قطّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده»** (رواه البخاري في كتاب البيوع).

٢- وقال ﷺ: **«إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس»** (روته كتب التفسير).

٣- عن الزبير بن العوام -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم أحبُلَه، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ من أن يسأل الناس: أعطوه أو منعوه»** (رواه البخاري في كتاب الزكاة وكتاب البيوع).

٤- عن جابر قال الرسول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غَرْسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِقَ منه له صدقة، وما أكل السَّبعُ منه له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُه (يأخذ منه) أحد إلا كان له صدقة» (رواه مسلم فى كتاب المساقاة).

والله يقول لرسوله ﷺ فى الآية الأولى: أخْبر خبرًا سارًا الذين آمنوا بشريعتك وعملوا الصالحات -جمع صالحة- أي الأعمال الحسنة من العبادات وأوامر شريعتك ونواهيها وعمل كل ما فيه خير، أخبرهم بأن الله أعدَّ لهم فى الآخرة نعيمًا دائمًا: جنات تجرى خلالها مياه الأنهار، فتضفى عليها بهجة لا تماثلها بهجة. ودائمًا فى القرآن الكريم لا يذكر المؤمنون إلا ومعهم العمل الصالح، وكأن هذا العلم هو الإيمان نفسه، فلا إيمان بدون عمل صالح، وبالمثل لا جنة بدون عمل من عبادة الله وتوحيده وأداء فروضه العملية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

والإسلام -بذلك- دين يقوم على العمل فى العبادة وكسب العيش. ويلفت الله -جَلَّ شأنه- مرارًا وتكرارًا، كما فى الآية الثانية، إلى أنه مكَّن الإنسان وجعله قادرًا على التصرف فى الأرض بشقها وإلقاء البذور فيها ورعايتها حتى تؤتى ثمارها وأكلها، ولم يمكِّنه منها برًا فقط بل مكنه منها أيضًا بحرًا وما تحمل السفن فيه من الناس ومن عروض التجارة، ولم يمكن الله الإنسان فى الأرض من مختلف الأعمال بها فقط، فقط اتسع أيضًا فى الأرض بمجتمعات المدن، مما آذن بكثرة الأعمال فيها، وبالتالى بكثرة المعايش، إذ يصبح لكل شخص فيها عمله: وبالتالى معيشته وما يجنيه من كسب ينفق منه على مسكنه وملبسه ومأكله أو طعامه وشرابه.

ويقول الله فى الآية الثالثة: إنه قسم بين الناس معيشتهم وقدَّرها ببالغ حكمته؛ إذ جعل منهم أغنياء وفقراء وزراعًا وصناعًا وتجارًا، وتختلف الزراعات والصناعات والتجارات باختلاف من يزاولونها اختلافًا يقوم عليه نظام الحياة، فكلٌ وما يرغب فيه أو يهواه، فهذا بستانى وذاك مزارع أو فلاح، وهذا صانع سيارات وذاك صانع أقلام إلى غير ذلك من مختلف الصناعات، وهذا تاجر أقمشة وذاك تاجر خردوات أو غير

ذلك من أنواع التجارات، وهذا عامل بناء وذاك عامل فى الميناء إلى ما لا يحصى من أنواع الأعمال. ويقول -جلَّ وعزَّ- إنه رفع بعض الناس فوق بعض درجات وجعل بعضهم مسخراً لبعض ومحتاجًا إليه، ومن هنا قالوا: إن الإنسان مدنى أى أن أفراده محتاجون إلى أن يتعاونوا جميعًا فى شئون حياتهم، مما جعلهم يتعارفون. وينتظمون -من أجل حاجة بعضهم إلى بعض- فى جماعات صغرى، فتكون القبيلة، وكبرى فتكون المدينة، وجماعات أكبر فيكون الشعب أو تكون الأمة.

وإذا كانت حياة الأمة تقوم على عمل مقسوم لكل فرد حسب رغبته أو هواه فإن الإنسان وثَّق هذا العمل إذ جعله فرضًا على كل مسلم فى أداء صلاته وزكاته وصيامه وحجه، ويأمر الله المسلمين- بعد أداء صلاتهم- أن ينتشروا فى الأرض برًا وبحرًا كما فى الآية الرابعة ابتغاء فضل الله وما يعود به عليهم من الكسب لمعايشهم. ويدعو الرسول ﷺ دعوة حارة إلى الحض على السعى فى طلب الرزق حتى لا يكون المسلم عالة على غيره. وهو -فى الحديث الأول -يجعل طعامه من عمل يده أمتع وألذ من أى طعام يطعمه من عمل غيره، إذ يأكل مما كسبته يداه لا مما كسبته أيدى آخرين مهما كانوا أقرباءه أو أصدقاءه. ويهتف الرسول ﷺ فى المسلمين: إن الله يحب أن يحترف المسلم مهنة -كما فى الحديث الثانى -حتى تغنيه وتكفيه عن سؤال الناس. ويعد الرسول ﷺ سؤالهم مذلة ما بعدها مذلة، حتى ليقول فى أحاديث متعددة له: **«اليد العليا خير من اليد السفلى»**، وهو ما جعل الإسلام يفرض الزكاة على الأغنياء لعون الفقراء، وعدَّ الله الصدقة على المحتاجين قرضًا حسنًا له. وكأن الرسول ﷺ كان لا يريد أن يرى بين أصحابه سائلاً يتكفَّف الناس، حتى ليقول حديثه الثالث الذى كرَّره مراراً قائلاً: **«لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، ويبيعها، ويقتات بثمنها خير له من أن يسأل أحداً من الناس فيعطيه أو يمنعه»**. ومراراً وتكراراً يوصى الرسول ﷺ المسلم بالعمل لمنفعة نفسه ومنفعة المسلمين، ومن ذلك قوله فى الحديث الرابع: **«ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة..»** حتى ما يأكله سارق أو حيوان أو طير.

وكما كان يوجب الرسول ﷺ على أصحابه العمل كان يمقت فى الشخص البطالة والقعود عن العمل وعن السعى على عياله: ومن قوله ﷺ: **«مَنْ طلب الدنيا حلالاً**

وتعففًا عن المسألة وسعيًا على عياله لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر». وتبع الرسول ﷺ الخلفاء الراشدون فكانوا ينهون بشدة عن البطالة ويدعون من حولهم إلى العمل على كسب أرزاقهم، واشتهر عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- بقوله: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق. ويقول: اللهم ارزقنى فقد علمتم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وكان الرسول ﷺ يشدد فى الرفق بالعمل وأداء أجورهم المجزية فلا تُبْخَسُ ولا تضيَّع عليهم، حتى لو ترك عامل العمل ولم يأخذ أجره دُفع إليه دون أى نقص. ومرَّ بنا عن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضى الله عنهما- أن الرسول ﷺ حكى قصة ثلاثة رجال صالحين باتوا فى غار أو كهف فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، وبدأ بارٌّ بأبويه فانزاحت قليلاً، وتلاه عفيف عفة متناهية، فانزاحت شيئًا، غير أنهم لا يستطيعون الخروج، فدعا الثالث ربَّه -وهو مقصدنا من الحديث- قائلاً: اللهم استأجرت أجَراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الأجر الذى له وذهب، فتَمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال: فجاءنى بعد حين، فقال: يا عبد الله أدِّ إلىَّ أجرى، فقلت له: كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرك، فأخذه وابتاعه ولم يترك منه شيئًا، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون (روى الحديث البخارى ومسلم).

ويذكر الله فى الآية الخامسة أنه بث فى الموجودات على سطح الأرض زينة وجمالاً، وهو يشير إلى ذلك مراراً فى القرآن الكريم، من مثل قوله فى سورة النحل عن الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ويقول مراراً عن النجوم إنها تزين السماء. وكل ذلك ليغذى وينمِّى النزعة الجمالية عند المسلمين، وليبث فيهم المحبة لا للعمل فقط بل لإحسانه وإتقانه.

●●●

الصدقة

القرآن الكريم:

قال تعالى:

١- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

٢- ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٤- ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

٥- ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

الأحاديث:

١- عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، منهم: المنّان بما أعطى»** (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن أبي هريرة سأل رجل الرسول ﷺ: أي الصدقة أعظم أجرًا؟ فأجابه: **«أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل»** (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي).

٣- عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل**

إلا ظله، وممن ذكره بين السبعة: **رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»** (رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن حنبل فى مسنده).

٤- عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«الساعى على الأرْمَلة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، وكالقائم الذى لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»** (رواه كل من البخارى ومسلم فى كتاب الأدب ورواه الترمذى فى البر والنسائى فى الزكاة وابن ماجة فى التجارات).

بيَّن الله -تبارك اسمه- قبل الآية الأولى جزاء المنفقين لأموالهم فى تجهيز الجيش المجاهد فى سبيل الله دون مَنٍّ بما أنفقوا ولا أذى للمجاهدين، إذ لا يريدون بما أنفقوا سوى نصر الدين الحنيف، ويعدهم الله أن يضاعف جزاءهم على ما بذلوا أضعافًا مضاعفة لأموالهم، كحبة بُذرت فى أرض خصبة ونالها غيث فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة. وأتبع الله ذلك بمن ينفقون أموالهم فى الصدقات على الفقراء والمساكين، واستهلَّ حثه لهم على الصدقات بأن يمتنعوا امتناعًا باتًا عن إيذاء من يعطونهم الصدقات بمثل التطاول عليهم بأنهم يطعمونهم أو لولاهم لجاعوا أو ينبغى عليهم أن يشكروهم، ونحو ذلك من ضروب المن التى تؤذى من يأخذون الصدقة، بل إن الله يقول فى مفتتح هذه الآية: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾ ملوثة أو مسممة بالأذى. والله فى ذلك يرفق بالمصدَّق عليهم ويلطف أعظم لطف ورفق حتى لا يؤذى شعورهم أى إيذاء من قريب أو من بعيد، وكأن هذا الإيذاء موجه إليه؛ ولذلك يقول إنه ﴿غَنِيٌّ﴾ عن هذه الصدقة المسممة ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يؤذى أصحابها فى الدنيا. أما فى الآخرة فيقول الرسول ﷺ مصورًا فى الحديث الأول غضب الله حينئذ على من يتبع صدقته منًا وأذى: إنه لن يكلمه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه مثنيًا عليه، وله عذاب أليم. ويشبِّه الله مَنْ يتبع صدقته بالمن والأذى بالكافر الذى يتصدق ببعض ماله طلبًا للمراءاة والسمعة عند الناس لا ابتغاء وجه الله.

والآية الثانية فى الصدقة أيضًا والله -جَلَّ شأنه- يأمر عباده المؤمنين أن تكون صدقاتهم من خيار ما كسبوا فى التجارة من الأموال، ومن خيار الثمار والزروع التى

أخرجها الله لهم من الأرض، وأن يتجنبوا أن تكون من خبيث أموالهم وزروعهم وثمارها ورديئها، يقول الله: ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾، أى أنكم لو أعطيتم هذا الخبيث لأبيتموه إلا أن تتغاضوا عنه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى غنى عن صدقاتكم -الرديئة أو الخبيثة- التى لا ترضونها لأنفسكم؛ ولذلك ينبغى إذا كانت الصدقة طعامًا أن تكون من نفس طعام المتصدِّق وأسرته. وكان الرسول ﷺ ما ينى يحث أصحابه على الصدقة، وكان يقول: كل معروف صدقة وإنها وقاءٌ من النار حتى لو كانت بنصف تمرة. وعن السيدة عائشة أنها قالت له: جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها، فأعطيتها ثلاث تمرات فأعطت كل بنت تمرة، ورفعت تمرة لتأكلها، فلاحظت أن البنتين استطعمتا تمرتيهما، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها. فقال ﷺ: «**إن الله قد أوجب لها بالتمرة الجنة وأعتقها بها من النار**». وسأله رجل فى الحديث الثانى: أى الصدقة أعظم أجرًا؟ فقال ﷺ: «**أن تتصدق بها وأنت صحيح شحيح**» بالمال تخشى الفقر لقلة مالك ومع ذلك تؤثر به الفقير.

والآية الثالثة تدفع وهمًا أن يظن المتصدق أنه لا يجوز لها إظهار صدقته والإعلان عنها خشية الرياء، فجاءت تجيزه وتحمده، مع تفضيل صدقة السر عليها حفظًا وصيانة لماء وجه الفقير، واختلف الفقهاء: هل الإخفاء يعم فريضة الزكاة مع صدقة التطوع أو هو خاص بصدقة التطوع؟ وعلى كل حال يحسن فيهما الإخفاء، حتى لا يطلع عليهما غير مَنْ يأخذهما حفاظًا على شعوره، وحتى لا يحسّ أنه أصابه فيهما أى خدش؛ ولذلك يؤثر القرآن الكريم أن يخفى المتصدق صدقته، حتى لا يعلم بها -كما فى الحديث الثالث- أحد مهما كان قريبًا منه، وحتى لا تعلم شماله ما أنفقت وتصدقت به يمينه.

والآية الرابعة فى مصارف الصدقات، وهى فيها ثمانية: الفقير وهو من لا يملك ما يكفيه لعيشه، والمسكين وهو شديد الفقر حتى السؤال فيه والضراعة، وعن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذى يطوف على الناس تردُّه اللُّقْمَةُ واللقمتان،**

والتمرة والتمرتان. قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال ﷺ: **الذى لا يجد غنًى يغنيه، ولا يُفطَنُ له، فيُتَصَدَّق عليه ولا يسأل الناس شيئًا»**. والعامل على الصدقات وهو الساعى فى جمعها، وكانت الدولة تعيِّنه لهذا المهمة فى صدر الإسلام والعصر الأموى، وتعطيه من مال الصدقات حظًا أو قسطًا، ولم يعد هذا المصرف قائمًا الآن. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم بعض سادات قريش والعرب أمر الله رسوله أن يتألفهم بعد موقعة حُنَين، حتى لا يكونوا أعداء للإسلام ورسوله ﷺ، فأعطى كلاً منهم بعد قسمة الغنائم فى حنين، مائة بعير. ولما دخل الناس فى دين الله أفواجًا وبدأت انتصارات العرب على فارس والدولة البيزنطية أشار عمر -رضى الله عنه- على خليفة المسلمين أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- بإلغاء هذا المصرف من مصارف الزكاة، إذ أغنى الله الإسلام وأعزَّه عن تألف هؤلاء السادة، فوافقه على إلغائه. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى فى تحرير العبيد، وهو مصرف لم يعد قائمًا فى ديار الإسلام. وبذلك تكون ثلاثة مصارف من الثمانية لم يعد لها وجود فى عصرنا: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أى المدينين ممن يعجزون عن أداء ما عليهم من الديون، فيعطَوْن من الصدقات رحمة بهم. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى فى الجهاد ضد أعداء الإسلام وفيما يحتاجه المجاهد من الأسلحة: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أى الطريق، وهو الغريب المسافر المحتاج للطعام والمأوى. وللمتصدق أن يدفع صدقته إلى أى مصرف من المصارف الخمسة المتبقية. وفى نهاية الآية أن هذا البيان لمصارف الصدقات ﴿فَرِيضَةً﴾ مقدرة من -الله العليم بمصالح عباده الحكيم فى أقواله وأفعاله وتشريعاته. وكان الرسول ﷺ ما يزال يحث أصحابه على مد يد العون للمحتاجين من الأرامل والرجال، من ذلك قوله فى الحديث الرابع: **إن من يعنى بالاكتساب للأرملة والمسكين لسد حاجتهما ثوابه كثواب المجاهد فى سبيل الله وكثواب المصلى ليل نهار وكثواب الصائم المديم لصيامه. ويقول فى حديث آخر: من عال جاريتين أى قدَّم لفتاتين ما تحتاجانه من طعام وغذاء ومسكن. حتى تبلغا ويظل لهما حافظًا صائنا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضمَّ أصابعه أى مصاحبًا لى.**

●●●

الأمانة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٢- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

٣- ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨].

٤- ﴿ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨].

الأحاديث:

١- قال ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**» (رواه ابن حنبل في مسنده والترمذي وأبو داود).

٢- عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**على اليد ما أخذته حتى تؤديه**» (رواه ابن حنبل وسنن أبي داود والترمذي).

٣- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آيات المنافق (أي علاماته) أنه إذا اوتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**» (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٤- عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جَذْر[1] قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة**». **ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: «ينام الرجل النَّوْمةَ فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه»**. إلى أن قال: «**فيُقال إن في بني فلان رجلاً أمينًا حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبَّة من خرْدَل[2] من إيمان**». فذكر الرسول ﷺ الإيمانَ في موضع الأمانة (رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الإيمان).

---

(١) جذر: أصل.

(٢) الخردل: حب صغير من توابل الطعام.

التعبير القرآنى الأول فى آية الدَّين بآخر سورة البقرة، إذ يقول الله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ أى إنْ أمن الدائن صاحبه المدين ووثق بأمانته؛ فلم يطالبه بكتابة ولا بإشهاد، فإنه يجب على المدين الذى أؤتمن أن يؤدى الدين فى موعده المضروب دون أن ينقص منه أى شىء. والأمانة يراد بها الشىء من دين وغير دين المؤمَّن عليه بأنه يؤدَّى فى ميقات معين. ويأمر الله بهذا الأداء وكأنه يحذر المدين من عدم الوفاء به؛ لأنه عهد وثيق بينه وبين الدائن. وينبغى -لذلك- أن يوفِّى به وأن يرد الأمانة إلى صاحبها شاكرًا فى موعدها المحدد. وهذا من حيث التأخر فى أداء الأمانة، أما إن جحدها وقال للدائن: ليس لك عندى شىء فإنه حينئذ -يكون قد خان الأمانة، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: يجب أن تؤدى الأمانة إلى صاحبها، ولا تقابل السيئة بالسيئة حتى لو كان خانك فلا تخنه، إذ خيانة الأمانة من أعظم الذنوب والآثام.

والله فى الآية الثانية يأمر المسلمين أمرًا عامًا بأداء الأمانات إلى أصحابها، فمن ائتمن شخصًا على شىء وأودعه عنده ليحفظه له إلى حين طلبه منه يجب أن يؤديه له دون توان أو تأخير. وذكر الواحدى فى كتابه «أسباب النزول» أن السبب فى نزول هذه الآية -وكانت قد نزلت يوم فتح مكة -أن سدانة الكعبة وخدمتها كانت فى الجاهلية لبنى عبد الدار القرشيين، وطلب الرسول ﷺ من أحد أفرادهم وهو عثمان بن طلحة حاجبها -فيما يقال، وكان قد أسلم وهاجر -أن يعطيه مفتاح الكعبة، فأعطاه له وفُتحت له فدخلها، وخرج والمفتاح بيده، فتطلع إليه بعض بنى هاشم لتكون سدانة الكعبة فيهم، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة، وأعطاه المفتاح، وقال لعثمان: خذوها خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم، ونزل عثمان عنها لابن عمه شيبة، فبقيت سدانة الكعبة فى ذريته، وتلا رسول الله ﷺ الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . والأمر بأداء الأمانات فى الآية يشمل الرهن الذى يتركه المدين عند الدائن. وعادة يكون الرهن أغلى قيمة من الدين الذى رهن من أجله. والله كما يأمر المدين أن يؤدى للدائن دينه دون بطء أو تراخ يأمر الدائن أن يؤدى الرهن للمدين

ولا ينكره ولا ينقص منه أى شيء؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ حديثًا عامًا: على اليد أى التى تسلمت الأمانة حفظ ما أخذت حتى تؤديه تامًا غير منقوص.

والآية الثالثة من خطاب هود رسول عاد إلى قومه، وقد نعتوه بالسفاهة والكذب فقال لهم: إنى إنما أبلغكم رسالات ربى إليكم، فهو تكليف منه ولن أتراخى فى إبلاغه إليكم حتى تعبدوا الله ولا تشركوا بعبادته أى شيء ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ مريد لكم كل خير ﴿ أَمِينٌ ﴾ أى متصف بالأمانة التى تلزمنى بأداء حقوقكم، وأن أعمل كل ما فيه خير لكم، وإلا كنت خائنًا لكم لا أرعى ما يجب لكم ولا أوفيكم حقوقكم. وفى تعظيم الأمانة والمؤدين لها وتقبيح الخيانة يقول الرسول ﷺ الحديث الثالث عن المنافق الآثم إثمًا عظيمًا: إن من علاماته الدالة عليه والتى لا تتخلف أنه إذا أُعْطِى أمانةً أنكرها وجحدها وخان من أعطاها له فيها خيانة كبرى لا تغتفر له، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم كما يقول الرسول ﷺ، فهو ليس مسلمًا بحق.

وينعت الله المؤمنين فى الآية الرابعة بأنهم راعون وحافظون لأماناتهم وعهدهم يؤدون دائمًا حقوقهما أداء مخلصًا صادقًا. والوصف بالأمانة من أهم أوصاف المسلمين؛ لأن المسلم لا يأكل حقًا لأحد، فضلاً عن أنه لا يأكل أمانة لشخص إذ يراها نارًا تقطِّع أمعاء آكلها فى الدنيا ويصلاها فى الآخرة: جحيمًا حامية. ويصور الرسول ﷺ شدة الأمانة على الناس وأنها قد تصعب على كثيرين من الناس فى حديثه الرابع، فيقول: إن الأمانة نزلت فى أصل قلوب الرجال، فإن الله أودعها فى فطرتهم، ثم نزل القرآن فأكدها كما فى الآيات التى استشهدنا بها ثم جاءت السنة النبوية فأكدتها كما فى الأحاديث المذكورة. يقول ﷺ: ثم أخذت ترفع من العالم، فينام الرجل عنها، فتقبض من قلبه لسوء فعله إزاءها، وتقبض من قلوب كثيرين مثله.. حتى يقال لندرة الأمناء ندرة شديدة: ظهر فى بنى فلان رجل أمين، كأن ذلك قد أصبح ميؤوسًا منه، فيقال تنويهًا به: ما أجلده على العمل، ما أظرفه فى الحديث، ما أعقله فى الرأى. يقول الرسول ﷺ: **«مع ما قيل عن هذا الرجل وعن أمانته: ما فى قلبه مثقال حبَّة من خَرْدَلٍ من إيمان فضلاً عن الأمانة التى هى من شعبه»**.

الوفاء بالعهد

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

٢ - ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ٢٠].

٣ - ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١].

٤ - ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: **«آية المنافق ثلاث، وعَدَّ منها أنه: إذا وعد أخلف»** (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان).

٢ - عن ابن عمر وابن مسعود قال النبى ﷺ: **«لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غَدرة فلان»** (رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير).

٣ - عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ: **«لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامَّة»** (رواه مسلم فى كتاب الجهاد).

٤ - وفى اللسان: قال رسول الله ﷺ: **«إن كرم العهد من الإيمان»** (رواه ابن منظور).

والله -عز شأنه- يطلب إلى المؤمنين فى الآية الأولى الوفاء بالعقود، والعقود جمع عقد، وهو مصدر سُمِّى به ما يعقد ثم أطلق على الالتزام به من جانبين. وهى فى الآية عامة، فتشمل العقود التى يعقدها المؤمنون بعضهم على بعض كعقود تحتاج إلى إيجاب وقبول، ولعلها المقصودة بالحديث الأول للرسول ﷺ، فالمسلم إذا تعهد لأخيه المسلم بعهد كان وعداً عليه الوفاء به فإن لم يف به كان ناقص الإيمان. وجعل الرسول ﷺ

ذلك علامة نفاق فيه، بل جعله غادراً كما فى الحديثين الثانى والثالث، وقال: إن لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ويقال هذه غدرة فلان. وتشمل العقود فرائض الشريعة الإسلامية التى ألزم الله بها المؤمنين، كما تشمل المصالحات والمهادنات، فكل هذه العقود وما يماثلها يطلب الله من المؤمنين الوفاء بها، وفى مقدمتهم حكامهم وأمراؤهم الذين يلون أمورهم، كما يشير إلى ذلك الحديث الثالث. ويصف الله فى الآية أولى الألباب والعقول النيرة من المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله الذى بيَّنه فى سورة الأعراف بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ والآية تذكر أن الله أخذ العهد على ذرية بنى آدم جميعًا بالإقرار بربوبيته. ويمكن أن يكون ذلك تمثيلاً لما جعل الله فى فطرة الإنسان عند تكوينها من الإيمان بوحدانيته وأنه إله الكون وخالقه. والآية الثانية تقول عن المؤمنين إنهم يوفون بالعهد أى أنهم يستجيبون لما أودع فى فطرتهم من التوحيد.

ويذكر الله فى الآية الثالثة عهده للمؤمنين، وهو يريد ما كان يبايعهم عليه الرسول من الإيمان بوحدانية الله والشريعة التى أنزلها عليه ونصرته، وتذكر كتب السيرة النبوية بيعة العقبة الأولى حين قدم من المدينة فى موسم الحج ستة نفر والتقوا بالرسول ﷺ ودخلوا فى دينه، وفى العام المقبل جاء من المدينة اثنا عشر شخصًا وبايعوه على أن لا يشرك أحدهم بالله شيئًا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف. وأوفد الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام ويفقههم فى الدين. واستدار العام، فوفد على الرسول ﷺ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وكانوا جميعًا مسلمين، وبايعوه بيعة العقبة الثالثة قائلين: بايعنا على السمع والطاعة فى عُسرنا ويُسرنا ومَنْشَطنا ومكرهنا، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم. وإنما أطلت فى عرض بيعات العقبة ليتضح العهد الذى كان يأخذه الرسول على من يعتنق الإسلام والذى نسبه الله إليه؛

لأنهم دخلوا فى دينه كما قال فى سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ويقول الله -جل شأنه- فى الآية الرابعة: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ والعهد فى الآية عام، فهو يشمل عهد الله الذى أودعه فطرة البشر أن لا يعبدوا إلهًا سواه، والعهد الذى أخذه على الأمم بأخذه على رسله أنه إن بُعث فيهم رسول مصدق لما معهم ﷺ يؤمنون به كما قال: ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾. والمقصود من هذا العهد على النبيين أخذ العهد على أممهم، وأيضًا البيعة للرسول ﷺ بتوحيد الله واتباع دينه ونصرته، وقد عدَّها الله عهدًا له كما مرَّ. ويشمل العهد فى الآية فرائض الشريعة الإسلامية التى عهد الله بها للمسلمين وفرضها عليهم، كما يشمل جميع المصالحات بين الأفراد والأمم وجميع ما ينعقد بين الدولة الإسلامية والدول من معاهدات، ففى كل تلك العهود ينبغى الوفاء كل الوفاء بالتزاماتها.

ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الرابع: إن كرم العهد من الإيمان، وهو يريد العهد بين الناس فى العلاقات كعلاقة الزوجة بزوجها والآباء بالأبناء والإخوة بالأخوات والأقارب والأصهار بعضهم ببعض. ومراد الرسول ﷺ بكرم العهد المودة والرحمة بين كل من ذكرتهم، فهم يتوادون ويتراحمون، أو قل إنه ينبغى -كما أراد الرسول ﷺ أن يتراحموا ويتوادوا ويأنس بعضهم ببعض، بل إن الرسول ﷺ يريد أن يكون ذلك عامًا بين المسلمين كما مر بنا فى الحديث عن الإخاء بين المسلمين، وأنه ينبغى أن يلقى المسلم أخاه بالمودة والبشر واللطف.

●●●

---

(١) الإصر: الميثاق.

الحق

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٣- ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

٤- ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد: ١].

الأحاديث:

١- عن طارق بن شهاب البجلي أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال النبي ﷺ: «**كلمة حق عند سلطان جائر**» (رواه النسائي في البيعة).

٢- عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطِرُنَّه**(١) **على الحق أطرًا، ولتقصُرُنَّه**(٢) **على الحق قصرًا**» (رواه أبو داود في الملاحم).

٣- عن معاذ بن جبل قال: قال له رسول الله ﷺ: «**يا معاذ هل تدرى ما حقُّ الله على عباده؟ وما حقُّ العباد على الله؟** قلت: الله ورسوله ﷺ أعلم، قال ﷺ قال: **فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب مَن لا يشرك به شيئًا**» (رواه البخاري في التوحيد ومسلم في الإيمان).

٤- قال رسول الله ﷺ في آية الميراث بسورة النساء: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه**» (رواه ابن كثير وقال: ثبت في الحديث الصحيح).

---

(١) لتأطرنه أطرًا: لتردنه ردًا.

(٢) لتقصرنه قصرًا: لتحبسنه حبسًا.

يقول الله -تقدّس اسمه -في الآية الأولى ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أي جاءت الرسالة التي تحق الحقّ الثابت الذي لا يرقى إليه شك وتبطل الباطل نقيضه، وتجعله يضمحل، ولا يبقى له أثر. ودارت كلمة الحق في القرآن عشرات المرات، بمعان متقاربة، فقد تكون بمعنى اليقين مثل: ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ وقد تكون بمعنى الصدق مثل: ﴿ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ وقد تكون بمعنى العدل مثل: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾. وقد تكون بمعنى الحظ والنصيب مثل: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾. وقد تكون بمعنى أحد الحقوق من المنافع التي يستحقها شخص على شخص من مال أو عقار كقوله تعالى في سورة البقرة عن كتابة الدَّين: ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾. ودخل الرسول ﷺ مكة، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا تعبد من دون الله، فأمر بكبِّها على وجوهها، وجعل يقول ﷺ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فقد استقر وثبت الحق الذي دعا إليه، وزهق الباطل وانقضى ووطئته الأقدم.

ويقول ربُّ العزة في الآية الثانية: إنه خلق السموات والأرض وجميع ما فيهما من الأشياء والموجودات بالحق أي بالحكمة، وكما يقول في آية سورة ص: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ فالكون لم يخلق عبثًا ولا لعبًا، إنما خلق لحكمة إلهية أرادها مبدعه، وقد أودع فيه نظمًا تصونه، وتحفظ الأرض وكل ما عليها من البشر ومن النباتات والأشجار والجبال والأنهار والبحار والمحيطات، كما تحفظ السماء وما فيها من سُدم وكواكب ونجوم وتسخِّرها له حسب مشيئته وحكمته. ويصور الله ما أودع في الشمس والقمر من نظام في حركتهما الدائبة بسورة يس قائلاً: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

فالشمس ستظل جارية في الكون حتى نهاية أمد الدنيا، والقمر سيظل مثلها يجرى في السماء، وتختلف صورته وهيئته من ليلة إلى ليلة حتى يصبح في المنظر كعرجون النخل، وهو أصل عِذقه الأصفر الشبيه بالهلال. ولكل من الشمس والقمر مداره وما

يتبعه من نهار وليل . وهى مسيرة قدَّرها خالق حكيم أدق تقدير ، وكأنما وزنت بميزان فى غاية الدقة ، لا تفوته ذرة مهما صغر حجمها وتضاءل . وهو ميزان يدل على أن وراءه إلهًا قادرًا حكيمًا لا يخلق شيئًا إلا منحه ما يحفظ له حياته . وإذا كان قد أعطى الإنسان العقل الذى ظل يرتقى به حتى كوَّن حضارته ومدنيته فإنه أعطى الحيوانات الإلهام الذى تعرف به هبوب العواصف ونشوب الزلازل قبل حدوثها ، وأُعطى الطير والأسماك والزواحف نفس الإلهام ، وتلك العنكبوت تبنى بيتها بصورة عجيبة ومثلها النَّحْل .

ويسمى الله نفسه فى الآية الثالثة باسم الحق ، وتكرر ذلك فى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى عن الخلق وبعثهم يوم القيامة ليحكم بينهم كما جاء فى سورة الأنعام : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ وتكررت هذه الصيغة فى سورة يونس ، وفيها أيضًا : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ . وفى سورة مريم بعد أن تحدث الله عن حمل مريم البتول لابنها عيسى ومولده وكلامه الناس فى المهد قال جَلَّ شأنه : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ فى قراءة من ضم قول الحق ، أما قراءة النصب لقول فعلى معنى : قولاً حقًا .

وهو الحق الأزلى صانع الكون ومديره . ولعل الله سمى نفسه باسم الحق إعلاء له بين المسلمين ، حتى يشيع بينهم احترام حقوق الأفراد فهو ينهب شخص مال شخص ولا عقارًا له ، وحتى لا يرضخوا ولا يستكينوا لحكم حاكم ظالم لا يخاف الله فيهم ولا يخشاه ؛ ولذلك يعد الرسول ﷺ كلمة الحق يقذف بها شخص فى وجه سلطان ظالم ضربًا من الجهاد كما فى الحديث الأول ، إذ لم يخف منه ولا من ظلمه وبطشه . ويدعو فى الحديث الثانى إلى الأخذ على يد الظالم لتردوه وتمنعوه .

الشريعة الإسلامية:

وتسمِّى الآية الرابعة الشريعة الإسلامية باسم الحق ، وسمى القرآن بنفس الاسم الشرائع السماوية جميعًا قائلاً فى سورة الأعراف : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ ويشير القرآن مرارًا وتكرارًا إلى أن الشريعة الإلهية واحدة ، وأن ما أوحى به إلى رسول الله هو ما أوحى به إلى غيره من الرسل . ومن قوله فى ذلك بسورة

الشورى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ فشريعة الله شريعة واحدة ظل الرسل يبلِّغونها إلى شعوبهم واحداً بعد واحد حتى خُتموا برسولنا محمد ﷺ. والله لا يريد بتلك الشريعة الواحدة أن كل ما جاء به رسول يطابق فى مصالح الناس تمام المطابقة ما جاء به الرسول الآخر، فإن أصول الشريعة هى التى لا تختلف، وهى توحيد الله وعبادته والإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، أما الفروع فإنها تختلف باختلاف الأعصار وفقًا لمصالح الجماعات وحاجاتها المتجددة؛ ولذلك يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ويذكر الله عن الشريعة الإسلامية أنها خاتمة الشرائع الإلهية، وأنها تصححها وتسيطر عليها كما جاء فى سورة المائدة: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾أى الكتب السماوية ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أى ومراقبًا وحاكمًا عليها، لأنه الصورة الإلهية الختامية للشريعة الربانية، ويقول الله: إنه يعدِّل فى فروع الشريعتين اليهودية والنصرانية بما يرفع عن اليهود والنصارى ما فى شرعيتيهما من إصْر وأغلال أى أوامر ثقيلة شاقة. كما جاء فى الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف، ويقول تعالى فى سورة البقرة: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ من آيات الكتب السماوية فى القرآن ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أى نؤجلها إليه ﴿ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ لمصلحة الناس، إذ أُرسل الرسول ﷺ للناس كافة.

ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثالث لمعاذ بن جبل: هل تدرى حقَّ الله على عباده وحق العباد على الله؟ ويجيبه: الله ورسوله ﷺ أعلم، فيقول له: إن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئًا، وعلى المسلم بجانب حق الله فى العبادة حق فى العقيدة، وهو أن يؤمن بالحساب والجزاء فى اليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب السماوية، وأن يؤدى ما فرض الله عليه من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأيضًا فى حق فى السلوك الخلقى ومصالح الأسرة والمجتمع مما فصَّلته الشريعة الإسلامية تفصيلاً

وافيًا . وقد فصلتْ ما أعطاه الله للمسلم من حقوقه فى الميراث ، وغير الميراث كما يشهد الحديث الرابع القائل بأن الله أعطى كل ذى حق حقه ، مما يعنى أن الشريعة الإسلامية تحافظ للإنسان على ما له من حقوق لذاته ، وما عليه من حقوق لربه وأسرته ومجتمعه وأمته .

●●●

الجهاد ضد الأعداء

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢- ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

٣- ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

٤- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ: أىُّ العمل أفضل؟ قال ﷺ: «**إيمان بالله ورسوله**، قيل: ثم ماذا؟ قال ﷺ: **الجهاد فى سبيل الله**» (رواه البخارى فى كتاب الإيمان، وكذلك مسلم).

٢- عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال : أىُّ الناس أفضل؟ قال ﷺ: **«رجل يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله»** (رواه مسلم فى كتاب الإمارة).

٣- عن عثمان -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ : **«رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»** (رواه الترمذى وابن حنبل فى مسنده).

٤- عن أنس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة» (رواه البخارى ومسلم مع اختلاف فى بعض الألفاظ).

والله يقول فى الآية الأولى مخاطبًا المسلمين : إن القتال كُتب عليكم وفُرض لحرب أعدائكم من المشركين لإعلاء كلمة الله ﴿ **وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** ﴾؛ إذ يباعد بينكم وبين حياتكم العادية وما فيها من طمأنينة، وتتعرضون فيه لخطر القتل ولآلام ما قد يحدث من جروح لكم، ويقول مطمئنًا لهم : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾؛ إذ يحقق لكم مصالح تجهلونها، ويدفع عنكم مضار لا تعرفونها، على الرغم من كراهيتكم له ونفوركم منه، فقد تكرهون شيئًا وفيه نفعكم ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ﴾ فيه هلاككم ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ** ﴾ ما فيه نفعكم أكبر نفع وما فيه ضرركم أشد ضرر؛ لأنه يعلم العواقب﴿ **وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ مما يوجب عليكم أن تتلقوا دائمًا تشريعاتكم مؤمنين بأنها تتضمن الخير لكم كل الخير والنفع لكم كل النفع. ويكرر الله -جَلَّ شأنه- فى القرآن الدعوة إلى القتال وجهاد أعدائه وأعداء المسلمين. ويكثر الرسول ﷺ من هذه الدعوة فى أحاديثه على نحو ما نرى فى الحديث الأول، وقد سُئل : أى العمل أفضل؟ فقال : **«الإيمان بالله ورسوله ﷺ»**، وقيل له «ثم ماذا؟ فقال : **«الجهاد فى سبيل الله»**، فجعل الجهاد موازيًا للأصل الأول فى الشريعة الإسلامية، وهو الإيمان بوحدانية الله ورسوله ﷺ، وكأنه يجعله الأصل الثانى. وكرر ذلك فى الحديث الثانى إذ سأله رجل أى الناس أفضل؟ فأجاب : **«رجل يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله»**.

وذكر الله الآية الثانية عقب حديثه عن الأشهر الحُرم، حتى لا يُظَن أن النهى عن انتهاك الأشهر يؤذن بالنهى عن قتال المشركين فيها إذا حملوا السلاح لقتال المسلمين واستحلوا ذلك، فإنه يجب على المسلمين حينئذ أن يقاتلوهم فيها ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ سينصركم لتقواكم. والآية الثالثة تحمل تلطفًا عظيمًا من الله جلَّ وعز بأنه اشترى من المؤمنين المجاهدين أنفسهم وأموالهم بجزاء عظيم لجهادهم هو الجنة، ويستمر الله -جل جلاله- فى تلطفه للمؤمنين بقوله: إن هذا وعد عليه فى الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. ويقول أيضًا متلطفًا: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ وهى بيعة إلهية لا تماثلها بيعه نظير الجهاد وأنهم يقتلون أعداء الله من المشركين فى ميدان الحرب، وقد يُقتَلون ويستشهدون، ويصبحون من أهل الجنة. ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا يماثله فوز.

ومن قول الرسول ﷺ الحديث الثالث وما يذكر فيه من أن مرابطة يوم فى حرب المشركين خير من ألف يوم فى عبادة الله، وفى رواية لسلمان الفارسى -رضى الله عنه- أن رباط يوم فى الحرب خير من صيام شهر وصلاة لياليه. وفى حديث ثالث أن بكوراً للجهاد أو روحة له فى المساء خير من الدنيا وما فيها، وفى حديث رابع: أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف فى حرب المشركين. وقال رسول الله ﷺ فى غزوة بدر يستنهض الصحابة: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فقال عُمَير بن الحمام الأنصارى رضى الله عنه: يا رسول الله عرضها السموات والأرض! قال ﷺ: نعم فأخرج تمرات كانت معه، فجعل يأكل منها ثم قال: لئن أنا حَيِيت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، ورمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل المشركين حتى قُتل.

ويخاطب الله المؤمنين فى الآية الرابعة قائلاً: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ تخلصكم ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ واستعيرت التجارة للدلالة على العمل الصالح لتشابههما فى طلب النفع عن طريق كل منهما. ويجيب الله -جَلَّ جلاله- بأنها الإيمان بالله ورسوله ﷺ والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس، فإن فى ذلك خير الدنيا والآخرة لو أنكم تعلمون. ويصور الله هذا الخير قائلاً: إنه يغفر للمجاهدين فى سبيل الله ذنوبهم

ويدخلهم جنات مونقة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ويسكنهم فى قصور طيبة ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وإقامة خالدة ينعمون فيها نعيمًا لا مثيل ولا نظير له ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ ﴾ الربانى ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ . ويصور الرسول ﷺ مدى هذا الفوز للشهداء المؤمنين ومدى ما أُغْدق عليهم من النعيم والفضل الإلهى بقوله : إنه لا يقبل أحد ممن يدخل الجنة أن يعود إلى الحياة الدنيا ، وما كان يملكه فيها من أشياء سوى الشهيد فإنه يتمنى أن يعود إليها ويستشهد فيها عشرات المرات ، لينعم مرارًا بما أغدق الله عليه من أفضاله ، ويذكر الله بعض هذه الأفضال على شهداء المؤمنين بقوله فى سورة آل عمران : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

والآيتان تثبتان لهؤلاء المجاهدين الشهداء موتًا دنيويًا إذ قتلوا ودفنوا ، وتنفى عنهم الموت الحقيقى إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون ، فهم أموات الأجسام أحياء الأرواح ، وهى حياة تجعلهم مع موتهم الجسدى ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ مستبشرين بأن رفقاءهم من المؤمنين الذين لم يكتب لهم الاستشهاد يوم أحد يظلون ينتصرون على المشركين فى الغزوات والحروب التالية دون أن يمسهم أى قَرْح أو أى أذى .

●●●

العفو

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

٢- ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٣- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٤- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

الأحاديث:

١- قال رسول الله ﷺ: «**مَن أصيب بقتل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتصَّ، وإما أن يأخذ الدية، وإما أن يعفو.. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها**» (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن كثير فى تفسيره الآية الأولى).

٢- عن أبيّ بن كعب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سرَّه أن تُرفَع له الدرجات، فليعفُ عمن ظلمه، ويُعطِ من حرَمه، ويصل من قطعه**» (رواه ابن كثير فى تفسيره الآية الثانية).

٣- عن عقبة بن عامر أنه لقى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال، فقال ﷺ: «**يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك**» (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن كثير فى تفسيره للآية الثالثة).

٤- عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل فى إعطاء الصدقة: «**ابدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شىء فلأهلك، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل شئ عن قرابتك شىء فأنت أبصر**» (رواه مسلم وابن كثير فى تفسير الآية الرابعة).

ولكى تُفهم الآية الأولى نتلوها كاملة إذ يقول جَلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ القصاص وهو قتل القاتل بمن قتله كان معروفًا فى الأمم السابقة، فعفا الله لهذه الأمة الإسلامية أن يأخذ أهل القتيل من القاتل دية لقتيلهم. وأصل العفو فى اللغة الفضل، والعفو فى الآية ليس من ولى الدم، ولكن من الله، إذ جعل الله لهذه الأمة فى القتيل الدية عفواً منه وفضلاً، أى أن الله عفا عن القاتل بالدية وأباحها لولى الدم بأخذها مؤثرًا لها على القصاص، وعليه أن يطلبها بالمعروف أى بالطريقة الحسنة، وعلى القاتل أن يؤدى الدية إليه بإحسان. والآية تدعو لقبول الصلح بين أهل القتيل والقاتل استبقاء ومحافظة على ما بين الأسرتين أو العشيرتين من أخوة الإسلام التى أقامها الله مقام أخوة النسب، ومن أجل ذلك وصف القاتل بأنه أخوه ترغيبًا لولى القتيل فى الصلح وقبول الدية منه، وسماها ﴿شَيْءٌ﴾ أى شىء ميسور من المال يستطيع القاتل تقديمه. وتقول الآية: إن ذلك تخفيف من ربكم عليكم ورحمة عظيمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى بعد العفو عنه وعاد إلى القتل مرة أخرى فلا تقبل منه الدية ويُقتص منه، وله فى الآخرة عذاب أليم. وأجازت الشريعة لولى القتيل أن يعفو عن القاتل؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: إن ولى القتيل إما أن يقتص منه وإما أن يمنحه العفو وإما أن يأخذ الدية.

والآية الثانية تدعو إلى العفو عن إساءات الناس مطلقًا مسلمين وغير مسلمين، ودعا الله هذه الدعوة فى القرآن مراراً وتكراراً، وسمى نفسه العفُوَّ تباركت أسماؤه، وطلب مراراً من رسوله ومن المؤمنين العفو والصفح عن المسيئين وأنه سيجزيهم عن ذلك يوم القيامة الجزاء الأوفى. والحديثان الثانى والثالث فى هذا العفو المستحب لرب العزة: أن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطى من حرمك يومًا، وأن تصل قريبك الذى قطعك، وبذلك تَلْقى سيئاتهم جميعًا بحسنات يضاعف الله لك أجرها، وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم**

القيامة نادى مناد: أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم خذوا أجوركم، فإنه حق لكل امرئٍ مسلمٍ عفا عمن ظلمه أن يدخل الجنة».

والله - تبارك اسمه- فى الآية الثالثة يقول للرسول ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أى اجعله صفة لازمة لك، والعفو: الصفح عن ذنب المذنب، والرسول ﷺ يعد مثلاً أعلى فى العفو، فقد عفا عن كل من أسلم من المشركين مهما كان قد أساء إليه، ويقول الله له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكان كلما تعرضت له قريش بالإيذاء لم يدع عليها بل دعا لها ربها قائلاً: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. ويقول الله له: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾وهو الفعل الذى لا ينكره العقل ولا الشرع، وهو فعل الخير مما يحث عليه الإسلام ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أى السفهاء من المشركين فلا تقبل عليهم ولا تلتفت إليهم وعفوه ﷺ عن أعدائه المحاربين له فى قريش يوم فتح مكة مما سارت به القصص والأمثال.

والآية الرابعة فى الصدقة، والعفو فيها هو ما فضل عن حاجة الشخص من المال بعد نفقته ونفقة أهله، وذكرُ الله للعفو أو الفضل دليل على أنه لا يريد من المتصدقين أن يشقوا على أنفسهم فى إعطاء الصدقات، بل يؤدونها من الفاضل عن حاجاتهم بحيث لا تشق عليهم، وهى حكمة عظيمة من الله، أراد بها الخير للمتصدقين والمحتاجين. وإنفاق هذه الصدقة إنفاق تطوعى، وهو غير إنفاق الزكاة الواجبة على كل مسلم. وقد حبَّب الله فى القرآن المسلم فى أن يؤدى الصدقة لمن يحتاجون من الفقراء والمساكين، وسماها قرضًا حسنًا له، وقال: إن جزاءها يضاعف إلى سبعمائة ضعف. وفى الوقت نفسه شدد الرسول ﷺ أن لا يصدّق المسلم بكل ماله، مخافة أن يؤول به وبأهله إلى فقر، وهو نفسه ما دعا إليه القرآن إذ قال: إن الصدقة عفو أو فضل زائد من مال الشخص؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى، وابدأ بمن تعول**» أى من الزوجة والأولاد وذوى الرحم، والإنفاق عليهم جميعًا صدقة مفضّلة مقدمة على غيرها من الصدقات، وقال صحابى جليل لرسول الله ﷺ: إنك تعلم أن عندى مالاً كثيراً،

وأريد أن أتصدق به . فلفته إلى أن له زوجة وأولاداً وكان مما قال له ﷺ : **«إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»** .

وفى الحديث، إنك لا تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرْتَ عليها حتى اللقمة تجعلها فى فم زوجتك . والحديث الرابع للرسول ﷺ يؤكد كلَ ما ذكرناه ، فقد قال ﷺ لمن سأله عن الصدقة : ابدأ بنفسك فإن فضل شيء فلأهلك أى لزوجتك وأولادك ، فإن فضل شيء فأعطه لأقربائك ، فإن فضل شيء منهم جميعًا فأنت أدرى بمن تعطيه إليه .



الرفق

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢- ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

٣- ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

٤- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الأحاديث:

١- عن السيدة عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رفيق يُحبُّ الرِّفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه**» (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة).

٢- وعنها قال رسول الله ﷺ: «**إن الرِّفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا ينزع عن شىء إلا شانه**» (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب).

٣- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب).

يقول الله -تقدس اسمه- لرسوله ﷺ فى الآية الأولى: إنه جعل خُلقه لينًا رحمة منه وبالأمة الإسلامية، حتى يستطيع حملها على شريعته وإقناعها بكل ما جاء به من مبادئ

وتعاليم، وهى منة عظيمة لله على رسوله وعلى أتباعه، وهى أن يكون لطيفًا معهم أنيسًا لهم، مما كان له أثر بعيد فى التفافهم حوله. ويقول الله لرسوله ﷺ: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ والفظ: الجاف سيئ الخلق، والغليظ القلب: القاسى الذى لا يعرف رأفة ولا رحمة ولا شفقة، وكان الرسول مملوءًا شفقة ورحمة ورأفة على أتباعه من المؤمنين كما يقول -جَلَّ شأنه- فى وصفه: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ والآية موجهة للمؤمنين بالقتال، فهو يعز عليه عنت المؤمنين بالقتال، وأيضًا عنت المشركين فيه، وهو منتهى الرأفة والرحمة بهم. وهو حريص أشد الحرص على المؤمنين أن لا يتكلفوا أى مشقة، وبالمثل حريص على الكافرين من المشركين أى على إيمانهم واعتناقهم للإسلام، وهو أيضًا منتهى الرأفة والرحمة. والرفق بهم. وكان لا يَنى يحبِّب المسلمين فى الرفق والرحمة والرأفة، ومن قوله فى الحديث الأول: «**إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه**»، فالله رفيق منتهى الرفق، وطبيعى أنه لا يعطى على العنف، وإنما يعطى عطاء مستمرًا على الرفق، والرسول -بذلك- يحض على الرفق. وبالمثل يقول فى الحديث الثانى: «**إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا يُنزَعُ من شىء إلا شأنه**».

والله - جَلَّ وعز- يقول فى الآية الثانية لموسى وهارون: ﴿ **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾ وعتا فى الأرض وازداد عتوّه وطغيانه ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا** ﴾ أى خاطباه بالملاطفة واللين كما فى أمر موسى أن يقول لفرعون بسورة النازعات: ﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ** ﴾ وكأمر موسى مع هارون أن يقولا لفرعون: ﴿ **قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ** ﴾ وفى سورة العنكبوت أن مجادلة أهل الكتاب ينبغى أن تكون بالكلام اللين حتى يتقبلوا جدالكم كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ ويُعلى الله من شأن الكلمة الطيبة اللينة قائلاً: ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ أى قول حسن للفقير أو كلمة طيبة خير من صدقة تعطى له تتبعها إساءة كأن يظهر المتصدق

تطاولاً واستعلاء على الفقير أو يعيِّره بالفقر وغير ذلك مما يؤذيه. ويجعل الرسول ﷺ الكلمة الطيبة اللينة - فى حديث له- يوجهها المسلم لأخيه من المسلمين صدقة، وكأنه يريد أن يكون كلام جميع المسلمين بعضهم لبعض كلامًا لينًا طيبًا، فيعم بينهم الرفق والرأفة والأخوة الصحيحة.

ويقول الله لرسوله ﷺ فى الآية الثالثة: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى تواضع لهم وعاملهم بالرفق واللين واللطف، والأحاديث عنه فى هذه المعاملة الرفيقة كثيرة، من ذلك أنه كان إذا جاءته هدية من طعام أو شراب أرسل إلى أهل الصفَّة، كما يروى أبو هريرة يقول: دخل الرسول ﷺ البيت فوجد قدحًا كبيراً من لبن، فقال ﷺ له: «ادع أهل الصفَّة»، فجاءوا فأمر أبا هريرة أن يمر على كل منهم بالقدح حتى إذا ارتووا جميعًا تبسم وقال ﷺ لأبى هريرة: «بقيت أنا وأنت»، وقال ﷺ: «اقعد واشرب»، وكرر ذلك عليه مراراً. ثم ناوله أبو هريرة القدح، فحمد الله تعالى وسمَّى وشرب الفضلة. وهى صورة من رفقه العظيم بصحابته ﷺ. وكان لا يمر على غلمان فى طريقه إلا ويسلم عليهم، وحدث أن كان فى مجلس له يومًا وعلى يمينه غلام وعلى يساره الأشياخ، وأُتى بقدح فيه شراب، فشرب منه، وقال ﷺ للغلام: «أتأذن لى أن أعطى القدح هؤلاء» فقال الغلام: لا والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبى منك أحدًا، فوضع رسول الله ﷺ القدح فى يده. وهذان خبران من أخبار كثيرة تدل على مدى ما كان يأخذ به نفسه رسول القدح فى يده. وهذان خبران من أخبار كثيرة تدل على مدى ما كان يأخذ به نفسه رسول الله ﷺ فى معاملة أصحابه من الشيوخ والغلمان من الرفق الكريم. وكان لا يزال يوصى به أصحابه، حتى ليوصيهم بالكلمة اللينة الطيبة المؤنسة، وأيضًا فإنه كان يوصيهم -كما فى الحديث الثالث- بحسن لقائهم بعضهم لبعض وما ينبغى أن تعبر عنه وجوههم من البشر والصفاء والطلاقة والبشاشة.

ويثنى الله -عزَّ شأنه- على الرسول ﷺ وأصحابه فى الآية الرابعة معرفًا لهم بأنهم ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ معه وهى معية أو صحبة كريمة، ويصفهم الله بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾

يقاتلونهم لأنهم جند الله ورسوله ﷺ وجند الدين الحنيف يحمونه ويدافعون عنه. وهم مع هذه الشدة التى تنطوى عليها نفوسهم ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾إذ هم إخوة يتراحمون ويرفق بعضهم ببعض، كما وصفهم فى سورة المائدة بقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ والذل فى الآية معناه لين الجانب وما يتضمنه من الرفق والرحمة والرأفة بإخوانهم من المؤمنين، وهم أعزة شداد صلاب على الكافرين. ولعل حديثًا لا يصور ما بين المسلمين من الرفق والرأفة والرحمة كحديث النعمان بن بشير عن الرسول ﷺ: « **مثلُ المؤمنين فى توادّهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى** »، وكأنهم ليسوا أمة ذات أفراد، بل كأنهم جسد واحد، إذا مرض منه عضو لبَّته جميع الأعضاء بالسَّهر له والحُمَّى، وهو تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض والحض على أن يلاطف كل منهم أخاه ويعاونه ويمد له يد الرفق والرأفة.

●●●

المواساة - الإيثار

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢- ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾ [البقرة: ٩٢].

٣- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

٤- ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل حسنة ابن آدم عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف**» (رواه ابن حنبل في مسنده).

٢- عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة -رضي الله عنه- أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبُّ أموال إليه بَيْرَحاء (حديقة) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب.

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ قال للرسول: إن أحبَّ مالٍ إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند

الله تعالى، فضعها- يا رسول الله- حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: **بَخ، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قُلتَ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين**، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه (رواه البخارى فى الزكاة والتفسير، ورواه مسلم فى الزكاة).

٣- وعن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير، لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ[1]، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال ﷺ: «**لا، ما أثبتم عليهم ودعوتهم الله لهم**» (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٤- عن أبى هريرة جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى مجهود[2]، فأرسل إلى بعض نسائه، فقلن: ليس عندنا إلا الماء، فقال ﷺ: **مَن يُضيف هذا الليلة**، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى بيته، فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ، وسألها: هل عندك شيء؟ فقالت: لا إلا قوت صيبانى، قال: عَلّليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا، وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبى ﷺ، فقال له: لقد عجب الله من صنيعكما الليلة (رواه مسلم فى الأشربة والترمذى والنسائى فى التفسير).

التى مرت فى غير هذا الموضع إذ عُرض على عكرمة بن أبى جهل وأصحابه فكان كل منهم يأمر بدفعه إلى أخيه، وهو يئن جريحًا أحوج ما يكون إلى الماء، فيسمع جريحًا يئن مثله، فيقول لحامل الماء: أعطه له، فيسمع الثانى أنين جريح مثله فيؤثره بالماء، ويموت الثلاثة، ولم يشرب أحد منهم الماء مؤثرًا صاحبه. ومن صور هذا الإيثار الرائع الذى آثر فيه أنصارى ضيفًا لرسول الله ﷺ بعشائه وعشاء زوجته وأولاده، وباتوا جميعًا طاوين لوجه الله مرضاة له ولرسوله ﷺ، وطلبًا لثوابه.

●●●

(١) فى المهنأ: فيما يعولهم.

(٢) مجهود: متعب تعبًا شديدًا.

الرحمة بالإنسان - وبالحيوان

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٢- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]

٣- ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى**» (رواه البخارى، فى الرقاق، ومسلم فى التوبة).

●●●

إكرام اليتيم

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢].

٢- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

٣- ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١١- ١٥].

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ١، ٢].

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين** (مشيراً بإصبعيه: الوسطى والسبابة) **في الجنة**» (رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق).

٢- في الحديث أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ فقال: إن عندي يتيمًا عنده مال وليس لي مال هل آكل من ماله؟ قال الرسول ﷺ: «**كل بالمعروف غير مسرف**» (رواه أبو داود والنسائي بكتابهما في السنن).

٣- قال رسول الله ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة واحدة وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**» (رواه الترمذي في جامعه والنسائي في سننه).

٤- قال رسول الله ﷺ: «خير بيت في بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه، وشرُّ بيت في بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» (رواه ابن كثير في تفسيره).

والله -جَلَّ وعز يأمر كفلاء اليتامى بأن يدفعوا لهم أموالهم، وهم لا يدفعونها لهم إلا إذا بلغوا أو كانوا راشدين، وإذن فتسميتهم يتامى باعتبار ما كانوا عليه، وشرط الرشد سيذكره الله في آية تالية. وقيل: المراد بالأموال هنا أموال المواريث إذ كانوا لا يورثون اليتامى لأنهم صغار، وبذلك تكون كلمة يتامى بمعناها الأصلي، فهم يتامى حقيقيون لا باعتبار ما كان. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ إذ كان بعض الكفلاء يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويعطيه مكانها شاة هزيلة، ويقول شاة بشاة، فنهى الله الكفلاء أن يصنعوا ذلك أو ما يماثله، كما نهاهم أن يأكلوا أموال اليتامى إلى أموالهم، بمعنى أن يستولوا على أموال اليتامى ويضموها إلى أموالهم. والنهي عن أكل أموال اليتامى ليس واقعًا فقط على ضمها إلى أموالهم، بل هو عام سواء ضموها أو لم يضموها، والقيد في الآية أي قيد الضم إلى أموالهم أريد به التشنيع على الكفلاء الأغنياء الذين لا يخشون الله في أموال اليتامى، فيضمونها إلى مالهم من أموال. وكافل اليتيم في الحديث الأول هو الذي يقوم بأموره في الدنيا والدين، وذلك بالنفقة عليه والكسوة والمسكن والتربية سواء من ماله الخاص أو من مال اليتيم، وكافل اليتيم له أو لغيره في الحديث أي كافل اليتيم القريب كأن يكون جده أو أخاه أو عمه أو غيرهم من أقربائه، وكافل اليتيم لغيره الأجنبي من غير الأقرباء. ويقول الله لكفلاء اليتيم في الآية.

●●●

إكرام الجار والضيف

القرآن الكريم:

قال الله تعالى :

١- ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] .

٢- ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٤-٢٨] .

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل : مَنْ يا رسول الله؟ قال ﷺ : الذى لا يَأمَنُ جارُه بوائقه**» أى شروره (رواه البخارى فى الأدب) .

٢- عن ابن عمر والسيدة عائشة -رضى الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» (رواه البخارى فى الأدب) .

٣- عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» (رواه البخارى فى الأدب) .

٤- عن خُوَيلد بن عمرو الخزاعى -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضَيْفه جائزته**» قالوا : وما جائزته يا رسول الله؟ قال ﷺ : **يومه وليلته. والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه**» (رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى كتاب اللقطة) .

والله فى الآية الأولى يأمر بالإحسان والحنو على الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، وعرضنا فيما مر للإحسان والبر بهم جميعًا، ويأمر أيضًا بالإحسان إلى الجار ذى القربى، وكأن مقتضى الإحسان إليه عاملان: الجوار والقرابة، وشدَّد الإسلام فى الإحسان إلى الأقرباء توثيقًا لعلاقات المودة بين الجيران، فما بالك إذا كان من بينك وبينه صلة القرابة جاراً لك، فإن حق الإحسان إليه يتضاعف. ويصبح حقين: حق القرابة وحق الجوار، وكأن القرآن ينكر ما يكون أحيانًا بين الأقرباء من تنافس وتحاسد؛ لأن ذلك يجرُّ إلى البغضاء التى قد تكون أحيانًا بين مسلم ومسلم، وهو يدعو إلى أن تكون بينهما أخوة رفيقة لا تعرف البغض، وإنما تعرف المحبة والمودة والرحمة. وذهب بعض المفسرين للآية إلى أن الجار ذا القربى هو الجار القريب الدار، والجنب بعيدها، وكلمة القربى لا تستعمل فى القرب المكانى إنما تستعمل فى القرابة بين ذوى الرحم. وأكد الرسول ﷺ التوصية بالجار مراراً وتكراراً موضحًا حقوقه على نحو ما نرى فى الحديث الأول إذ جعل الجار الذى تكثر شروره ودواهيه على صاحبه غير مؤمن لأنه لا يتبع وصايا القرآن للمؤمن، إذ لا يسدُّ خلة جاره من المؤمنين، ولا يحسن معاملته فضلاً عما ينبغى له من حقوق عليه. وفى الحديث قوله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسنْ إلى جاره»**، وعن أبى ذر أن رسول الله ﷺ: أوصاه إذا طبخ مرقًا أن يكثر ماءه، ثم لينظر أهل بيت من جيرانه، فيصيبهم منه بمعروف. ويقول ﷺ: **«يا نساء المسلمين لا تحقرن جارةٌ ما تهديه لجارتها ولو كان ظلف شاة أى تهديها بما تيسر»**. وقال ﷺ: **«الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فأما الجار الذى له حق واحد فالجار المشرك له حق الجوار، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم»**. وتراه فى الحديث الثانى يقول ﷺ: **«ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** أى سيجعل له الجار حق

إرثه. والجار في اللغة الذى يلاصقك في المسكن، أما في الشرع أو الشريعة الإسلامية فأربعون داراً من كل جانب. وهذه الوصايا الكثيرة لتجار يراد بها قيام الألفة والمودة الجيران.

والآيات التالية من سورة الذاريات تحكى قصة ضيوف إبراهيم الخليل من الملائكة وقد ذكرت فى سورتى هود والحجر. والضيف اسم للواحد والجمع، ويقال: إنهم كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. والله يقول لرسوله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ وهو استهلال يدل على أن ما بعده خبر عظيم، وهو قصة ضيف إبراهيم المكرمين. والوصف بالمكرمين لا لأنّ إبراهيم الخليل سيكرمهم، بل لأنهم ملائكة وصفتهم فى القرآن أنهم مكرمون كما فى سورة الأنبياء: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾. وتقول القصة إنهم دخلوا عليه ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أى أنهم حيوه فرد عليهم تحيتهم ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ أى أنه وصفهم بذلك فى نفسه لأنه لم يعرف لماذا جاءوه ولماذا نزلوا عنده ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أى تسلّل إليهم خفية ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ من خيار عجوله، وفى سورة هود ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أى مشوى ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أى أحسّ منهم خوفًا، وأضمر ذلك فى نفسه إذ خاف أن يكونوا مضمرين له شراً، وظهر ما فى نفسه من خوف على وجه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وعرَّفوه بأنفسهم وأنهم ملائكة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ هو ابنه إسحق. والقصة تحمل آداب الضيافة، فقد نزل عليه هؤلاء الملائكة فاستضافهم، وفى رأى بعض العلماء من الأسلاف وجوب الضيافة لمن ينزل عليك.

والآيات تحمل آداب الضيافة، فإبراهيم يحسن استقبال ضيوفه ويبادلهم التحية وينسلّ إلى أهله ليحضر طعامًا غير مجاهر لهم خشية أن يكفّوه عن ذلك، وشوى لهم عجلاً من خيار ماله، وقرَّبه من مجلسهم ولم يقربه إليه تلطفًا منه لهم وإكرامًا، بل

وضعه بين أيديهم، وعرضه عليهم قائلاً: ﴿ألا تأكلون﴾ تتمة للإكرام. وأوصى رسول الله ﷺ بإكرام الضيف مراراً وتكراراً كما فى الحديثين الثالث والرابع، وهو فى الحديث الأخير لا يريد أن يزيد الضيف فى ضيافته على ثلاثة أيام؛ حتى لا يثقل على من نزل عنده ومخافة أن لا يكون عنده ما يضيفه به ويضطر إلى الاستدانة من أجله.

●●●

عيادة المرضى - تشييع الجنازات مع الصلاة- زيارة القبور

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٢- ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

٣- ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

٤- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال رسول ﷺ: «**حق المسلم على المسلم خمس وعدَّ منها: عيادة المريض واتباع الجنائز**» (رواه البخارى فى كتاب الجنائز ومسلم فى كتاب السلام).

٢- عن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود أو شقَّ الجيوب**» (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٣- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**» (رواه أبو داود).

٤- عن بُرَيدة قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**» (رواه مسلم فى كتاب الجنائز ورواه ابن ماجة عن ابن مسعود).

والرسول ﷺ فى الحديث الأول يدعو كل مسلم إلى زيارة أخيه وصديقه إذا ألم بهما مرض، ويجعل له فى هذه المواساة ثوابًا عظيمًا، ويقول فى حديث له رواه البخارى عن أبى هريرة عزَّ وجَلَّ يقول يوم القيامة إن الله «**يا بن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى قال: يا ربِّ كيف أعودُك وأنت ربُّ العالمين؟! قال الله: أما علمت أن عبدى فلانًا**

مرض فلم تَعُدْه؟ أم علمت أنك لو عُدْته لوجدتني عنده». وليس ذلك في المكان، فالله مقدس عن المكان والحلول فيه، وإنما بالعلم، فعلمه شامل لجميع الموجودات: كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بالعلم، فعلمه يحيط بكل ما في الوجود. ولعيادة المريض أو زيارته آداب، ألف فيها الأسلاف، منها أن لا يطيل الزائر الجلوس عند المريض إلا إذا طلب منه ذلك أنسًا به، ويسأل الزائر المريض عن حاله ويرفّه عنه كربه بالمرض، وأن الله لن يطيله عليه وسيعافيه منه سريعًا.

والآية الأولى تذكر أن أحدًا لا يعلم وقت موته وانتهاء أجله إلا الله وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ وهو مدبِّر الكون وصاحب الأمر، وإذا أراد شيئًا يقول له كُن فيكون توا، ويقول جَل شأنه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾. ويقول الله في الآية الأولى: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ محدد بوقت في علم الله كما قال سبحانه في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي في علم الله.

والآية الثانية تذكر أنه لا إمهال لأحد إذا حل أجله فلا يغرنه تأخير أجله. ويطلق الأجل على الوقت المحدد لحياة الشخص كما يطلق على منتهاه، وهو في الآية يمكن أن يكون المراد به أحد هذين المعنيين. وقوله تعالى في الآية الثانية: ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون عن الأجل ولا يتقدمون، والمراد أنه محدد ولا يتأخرون عنه بحال إذ هو مقدر بعلم الله ولا يستطيع أحد تغييره أو تعديله.

والآية الثالثة تنفي دراية النفس بما تكسب غدًا؛ لأن علم ذلك مغيب عنها، ولا يعلمه إلا الله وهل تكسب خيرًا أو شرًا وهل تكسب قليلاً أو كثيرًا، فعلم ذلك عند الله وحده وبالمثل لا تدري نفس بأي أرض تموت، وهل تموت برًا أو بحرًا أو جوًا؟ وهل تموت في موطنها أو تموت في موطن آخر؟ ولا يدري شخص متى يموت؟ فقد يموت غدًا أو بعد غد، فالله وحده هو العالم بذلك كله المختص به جَلَّ جلاله.

والآية الرابعة مثل الآيات السابقة تذكر أن الموت مصير لكل نفس، فكل من على الأرض فان، وأينما يكون الإنسان يدركه الموت. وينبغي أن يجعل المسلم هذا المصير نصب عينيه، فيطيع الله طاعة مخلصة، ويأتمر بكل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، إذ الموت لا بد منه ولا مفر، ثم إلى الله -كما تقوم الآية- المرجع والمآب فمن كان مطيعًا لله نال أفضل الجزاء وأدخل الجنة، ومن كان عاصيًا نال جزاء عصيانه، وأدخل النار.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أن يلقن بعض الأهل من يموت فى احتضاره شهادة أن لا إله إلا الله، وعن معاذ -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**». وفى البكاء على الميت أحاديث كثيرة تجيزه، ورأى سعد بن أبى وقاص الرسول تفيض عيناه ﷺ فى وفاة ابن لإحدى كريماته، فقال له: ما هذا يا رسول الله، قال ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**». وقد نهى الرسول ﷺ النساء عن لطم الخدود وشق الجيوب كما فى الحديث الثانى.

صلاة الجنازة: يكبِّر المصلى أربع تكبيرات، يتعوذ بعد الأولى ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر الثانية ويقول: االلهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. ثم يكبر الثالثة ويدعو للميت وللمسلمين، ثم يكبر الرابعة، ويدعو. ومن أحسن الدعاء: االلهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنَّا بعده، واغفر لنا وله. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثالث: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**» أى بعد التكبيرة الثالثة، ومن أحسنه: اللهم اغفر له وارحمه وأكرم نُزله، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وأدخله الجنة، وأعِذْه من عذاب القبر وعذاب النار.

وتستحب كثرة المشيعين للجنازة والموعظة عند القبر، كما يستحب الدعاء للميت بسؤال الغفران له، وأن يقرأ عنده شىء من القرآن، ولو خُتم القرآن عنده أو فى داره رحمة له كان ذلك حسنًا. وتستحب أيضًا الصدقة له والدعاء، وعن أبى هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

وتستحب زيارة القبور والدعاء فيها للموتى، وفي صحيح مسلم عن بُرَيْدة قال: قال رسول الله ﷺ : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». وعن بريدة أيضًا في صحيح مسلم: كان الرسول ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا -إن شاء الله- بكم لاحقون. وفي صحيح مسلم عن السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ يخرج في آخر الليل إلى البقيع (مقبرة شهداء بدر وأحد) فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون. غدًا مؤجَّلون، وإنا -إن شاء الله- بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل البقيع.

●●●

فعل الخير

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

٢- ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ [آل عمران: ١١٥].

٣- ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠].

٤- ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧].

الأحاديث:

١- عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَحْقِرَنَّ من المعروف والخير شيئًا، ولو أن تُفْرِغ من دلوك فى إناء المستبقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»** (رواه البخارى) وفى رواية أخرى عن عديّ: **ولو بكلمة طيبة.**

٢- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس»** (رواه مسلم)، **وفى رواية ثانية** لمسلم عن أبى هريرة: **مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة. وفى رواية ثالثة** لمسلم عن أبى هريرة: **بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له.** (روى مسلم كل ذلك فى كتاب البر).

٣- عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يَغْرِس غَرْسًا إلا كان ما أُكِل منه له صدقة، وما سُرِق منه له صدقة ولا يرزؤه (ينقص منه) أحد إلا كان له صدقة»**

(رواه مسلم). وفى رواية لمسلم عن جابر: «**لا يغرس المسلم غرسًا فلا أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة**» (روى مسلم ذلك فى كتاب المساقاة):

٤- عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحبّ إليه من مال وارثه، قال ﷺ: إنما مال أحدكم ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**. أى من أعمال الخير» (رواه البخارى فى كتاب الرقاق).

والله -جَلَّ شأنه- فى الآية الأولى- يقول للمؤمنين: إن كل ما تنفقونه من خير فلأنفسكم لأنه عائد عليكم بأجر ضخم من رب العزة. وإنكم لا تنفقون خيرًا قليلاً أو كثيرًا إلا ابتغاء وجه الله وابتغاء مرضاته، وإنكم ستوفون يوم القيامة أجر ما تنفقون كاملاً لا ينْقص منه شيء، ولا تظلمون فيه أى ظلم بل ستوفون أجوركم وحقوقكم كاملة. وقد افتتحت الآية بقول الله للرسول ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أى هدى المشركين والكافرين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من المشركين وغيرهم. وعن ابن عباس أن الرسول ﷺ كان يأمر بأن لا يتصدَّق أحد من الصحابة إلا على المسلمين، فلما نزلت هذه الآية أمر بالصدقة بعدها على كل من سأل صحابيًا من أى دين، فإذا تصدق مسلم على مشرك ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، وهو لطف عظيم من الله عز شأنه بعباده حتى المشركين الذين يشركون الأوثان والأصنام وآلهتهم فى عبادته.

والآية الثانية تقول: إن كل ما يفعله المؤمنون لن يكفروه، أى لن يضيع ثوابه عند الله، بل سيجزون عليه أوفر الجزاء. والخير يشمل كل ما فرضه الإسلام من عبادات ومعاملات طيبة، وكل ما فرضه على المسلم من إنفاق على أسرته وذوى الرحم ومن زكاة لمصلحة المجتمع، سوى ما ندب إليه من الصدقة وجميع وجوه البر والخير، والله يجزى عنها جميعًا الجزاء الأوفى. ومما يصور جزاءه وأنه قد يكون عاجلاً فى الدنيا حديث الغار والصخرة الذى مرَّ بنا، والذى رواه عبد الله بن عمر إذ قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة آواهم الميت فى غار، وانحدرت صخرة من الجبل سدَّتْ عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجينا من الصخرة إلا دعاء الله بصالح أعمالنا،

فذكر أولهم: أنه كان له أبوان شيخان كبيران، وكان يحلب لهما من أغنامه فى كل مساء لبنًا، وتأخر عنهما يومًا فوجدهما نائمين، فظل بجوارهما، والقدح على يده، حتى هلَّتْ تباشير الفجر، فاستيقظ أبواه، وشربا اللبن، واتجه إلى ربه يقول له: إننى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة قليلاً، وقال الثانى: إنه كان يحب ابنة عم له وأرادها على نفسها، فأبت إباء شديدًا، وانتهز فرصة حاجتها إلى مال، فقدم لها المال على أن ينال ما أراد منها، ولما همَّ برغبته قالت له: اتَّق الله، فانصرف عنها وترك لها المال، ودعا ربه قائلاً: إنه صنع ذلك ابتغاء وجهه وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة قليلاً. وقال الثالث -كما ذكرنا ذلك فى غير هذا الموضع-: إنه كان استأجر عمالاً فى أداء عمل وأدوه، وغاب منهم عامل فثمَّر له أجره، وظل يثمره أو يستثمره سنوات، حتى استحال إبلاً وبقرًا وغنمًا، وجاءه العامل يسأله أجره، فقال له: إننى ثمرت مالك، وقدم له غنمه وبقره وإبله فاستاقها جميعًا. واتجه إلى ربه داعيًا أنه فعل ذلك ابتغاء وجهه، وسأل أن يفرِّج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة نهائيًا». والحديث رواه البخارى ومسلم، ولم أروه بلفظة لطوله، وهو يصور مدى انتفاع المسلم بأعماله الخيرة الطيبة، فإنه إذا توسل بها إلى الله تعالى فى شدة أو حالة خطيرة استجاب له وفرَّجها عنه على نحو ما فرَّج عن هؤلاء الثلاثة الكرب العظيم الذى كانوا فيه.

ويقول الله -عزَّ شأنه- فى الآية الثالثة: إن كل ما تقدمونه لله من خير وأعمال طيبة تجدون جزاءه عنده، وهو جزاء مضاعف كما قال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ وكان الرسول ﷺ لا يترك أى عمل طيب، مهما كان قليلاً، إلا وينبه على أنه عمل خير يجزى الله عليه، كما فى الحديثين الأول والثانى فقد رأى رجلاً ينعم فى الجنة بنعيمها لأنه نحَّى عن الطريق شجرة تؤذى، وبالمثل من نحَّى غصن شوك عن الطريق كان يؤذى الناس فإن الله يغفر له، ويكرر الرسول ﷺ أن من ينحَّى.

●●●

الإخلاص مع النية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢- ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

٣- ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

٤- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

الأحاديث:

١- عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى).

٢- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» (رواه مسلم فى كتاب البر والآداب).

٣- عن عبد الله بن العباس -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال (حديثًا قُدْسيًا) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك. فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عَشْر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**» (رواه البخارى فى الرقاق، ومسلم فى الأعمال).

٤- فى رسائل ابن تيمية الكبرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله: لاقونى بنياتكم ولا تلاقونى بأعمالكم**».

والله -عزَّ شأنه- فى الآية الأولى يأمر رسوله ﷺ أن يقول للناس: إن الله أمر بالقسط أى العدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يقيموا وجوههم ﴿ **عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ أى يقبلوا على عبادته فى كل مكان متَّخذ لعبادته ﴿ **وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أى اعبدوه عبادة خالصة له أى صافية وخالية من إشراك غيره معه. والدين فى هذه الآية والآيات التالية بمعنى الطاعة من قول العرب: دان لفلان أى أطاعه. ويأمر الله رسوله فى الآية الثانية أن يقول: إننى لا أعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصًا له دينى وطاعتى وعبادتى. وخير ما يصور هذا الإخلاص فى طاعة الله وعبادته حق عبادته قول الله فى سورة الأنعام لرسوله ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، فصلاته ونسكه أو عبادته ومحياه أى كل ما يأتيه من عمل فى الحياة وما يكون عليه موته أى حتى النفس الأخير، كل ذلك يقدمه إلى ربه خالصًا لوجهه.

والآيات الأربع تدعو الرسول ﷺ والمسلمين إلى هذا الإخلاص فى عبادة ربهم بحيث يكون نقيًا من كل شائبة ابتغاء وجه الله لرضاه، وهو بذلك إخلاص قلبى، يجتمع فيه العمل واكتمال النية. والأحاديث الأربعة تفيض فى بيان النية حتى يجعلها الرسول فى الحديث الأول مبدأ عامًا للحياة الدينية فى الإسلام، فكل عمل فيها إنما يقدر -أو لا يتم- إلا بالنية التى تصحبه، والمسلمون يرددونها مع كل عبادة: فى الصلاة والصيام والزكاة والحج، إذ هى دليل الإخلاص وعنوانه، وبدونها لا يتحقق عمل أبدًا ولا يُعْتَدُّ به شرعًا كما يقول الحديث الأول: وإنما لكل امرئ ما نوى، فجزاؤه على عمله بقدر نيته. وبذلك تخرج العبادة التى يخالطها الرياء سواء أراد بها المتعبد أن يراه الناس، وقد ذم الله هذه الصورة فى القرآن مرارًا ونعت بها المنافقين، أو أراد بها التقريب إلى الله مع مخالطتها بالرياء، فإن العبادة إذن تحمل حظًا لغير الله، فلا تكون خالصة لوجهه، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**الرياء الشِّرْك الأصغر**».

ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثانى: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى**

صوركم»، والنظر فى الحديث مجازى، إذ المراد به الجزاء أى أنه لا يجزى الناس ولا يثيبهم حسب أجسامهم وصورهم، فذلك ظاهر منهم لا يهمه منهم إنما يهمه منهم قلوبهم ومقاصدهم ونياتهم، فهى التى تقدَّر بها عباداتهم وأعمالهم الشرعية.

والرسول ﷺ يقول فى الحديث القدسى الثالث: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات**» أى علمها علمًا مرافقًا لواقعها، وبيَّن الله ذلك «**فمن همَّ بحسنة**» وعزم عليها وصمَّم، ثم لم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وهو كرم عظيم من الذات العلية، وكأنه جزاه على نيته وحدها دون قيامه بعمل الحسنة. «**وإن هم بها**» أى نواها وصمم عليها «**فعملها**» وأداها مطابقًا بين النية بها وعملها «**كتبها الله عنده**» أى جزاه عليها «**عشر حسنات**» كما قال فى سورة الأنعام: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ ويقول الرسول: «**إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**» كما قال الله فى سورة البقرة: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «**وإن همَّ بسيِّئة فلم يعملها**» ابتغاء وجه ربه لا عجزاً ولا خوفًا ولا رياء «**كتبها الله عنده حسنة كاملة**» وهو لطف عظيم من الله أن يعد امتناع العبد عن عمل السيئة خيراً ويجزيه عليه بحسنة كاملة» وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيِّئة واحدة» فلا يُجْزَى إلا مثلها كما قال الله فى سورة الأنعام: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾، والرسول ﷺ يقول فى أول هذا الحديث: إن الله يجزى على النية وإن لم يتبعها العمل، وهو ما يؤكده الحديث الرابع الذى يقول الله فيه: «**لاقونى بنياتكم ولا تلاقونى بأعمالكم**» فالنية الصادقة الصادرة عن قلب المؤمن هى الأساس وهى التى يثاب بها المؤمن الصالح إذ هى الدافع لعبادته وأعماله.

●●●

العزة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٢- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٣- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

٤- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

الأحاديث:

١- عن السيدة عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال لى رسول الله ﷺ: **«هل تَدْرِينَ لِمَ كان قومُك رفعوا باب الكعبة؟** قلت: لا. قال: **تعززاً أن لا يدخلها إلا مَنْ أرادوا»** (رواه مسلم فى كتاب الحج).

٢- عن أبى سعيد الخُدْرى -رضى الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ: **«ألا لا تمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول الحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل ولا يباعد من رزقٍ أن يقول الحق»** (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٣- قال رسول الله ﷺ: **«ما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه. قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق»** (رواه ابن كثير وقال: ثبت فى الصحيح).

٤- قال عبد الله بن أبى المنافق فى غزوة بنى المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ (يريد أهلها من الأنصار) منها الأذلَّ (يريد الرسول والمهاجرين)، ولما وصلوا إلى المدينة استلَّ عبد الله ابنه سيفه، فلما جاء أبوه قال له: لا تدخل المدينة حتى يأذن

لك رسول الله، فأذن له، وقال لابنه: «ترفَّقْ بأبيك وأحسنْ صحبته ما بقى معنا» (روته كتب التفسير فى سورة المنافقين وكتب السيرة النبوية فى غزوة بنى المصطلق).

وتحمل الآية الأولى لفظة (العزيز) وهى من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى، وهو القوى الغالب لكل شىء من العز، وهو القوة والشدة والغلبة، ومنه العزة وهى الرفعة والامتناع، والأصل فى ذلك كله العَزاز والعزز وهى الأرض الصلبة، ومن أسماء الله المعز، وهو الذى يهب العزة لمن يشاء من عباده. وفى الحديث الموجه للسيدة عائشة: إن أهلك رفعوا باب الكعبة تعززاً أى تشدداً وإظهاراً للغلبة والقوة. والعزيز: القوى الذى لا يغلب، ومنه فى وصف القرآن الكريم بسورة فصِّلت: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى لا يأتيه الباطل من أى جهة من جهاته لأنه منزل من رب العالمين.

والله -تبارك اسمه- فى الآية الثانية بوجه الخطاب للرسول وهو موجَّه له ولأمته، ﴿ اللَّهُمَّ ﴾ تقال فقط فى الدعاء أى يا الله أغْدقْ علينا من نعمك إنك ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أى المتصرف فى الملك والكون جميعه، تدبِّره أعظم تدبير ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ وتعطيه له عطاء ربانيًا ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ وتأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ فتهب له العزة والمنعة والقوة ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ فتهوى به فى مهاوى الذل والهلاك والحرمان ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ جميعه، تمنحه وتمنعه من تريد، لا رادَّ لإرادتك ولا لخيرك ولا لإعطائك، فأنت المعز المذل، الرافع الخافض الذى ينبغى أن لا تعوَّل أحد فى خفض ورفع وذل وعز إلا عليه ولا يرهب سواه. ويوصى الرسول ﷺ مراراً المسلم كما فى الحديث الثانى أن لا يرهب أحداً فى قول الحق، فإن قوله لا يقرِّب من موت ولا يباعد من رزق بل إن واجبه أن يعلنه إعلانًا لا يخشى فيه لوم لائم حتى ينال رضا ربه ورضا الناس من حوله.

والله -جَلَّ شأنه- فى الآية الثالثة يقول: إن من يعرض عن الإسلام يخال فى ذلك تمسكًا بعزته فتخيله أو خياله باطل، إذ العزة الحقيقية إنما هى لله صاحب العزة القاهرة، من عَزَّ الشخص إذا غلب وسيطر. فهو المسيطر على الوجود وكل من فيه، سيطرةً لا

يستطيع أحد دفعها ولا معارضتها أو ممانعتها؟ . وقيل: العزيز من عز بمعنى ندر وقلّ، والله عديم المثل فى القدرة والسلطان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ويقول الغزالى: العزيز هو الخطير الذى يقلّ وجود مثله، وتشتد إليه الحاجة ويصعب الوصول إليه، وكم من شىء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه، وكم من شىء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه فإنه لا يسمى عزيزاً كالشمس مثلاً، فإنها لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ولكن لا توصف بالعزة، إنما العزيز الله وحده الذى يستحيل وجود مثله، بينما يحتاج إليه كل موجود فى وجوده وبقائه، وما من مسلم إلا ويستشعر به العزة لنفسه. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثالث «**إنه ينبغى للمسلم أن لا يذل نفسه**» فسأله الصحابة وكيف يذلّ نفسه، فأجاب ﷺ: «**يتحمل من البلاء ما لا يطيقه ويرتضيه فيستشعر بذلك ذلاً**»، لا يماثله ذل.

وكان السبب فى نزول الآية الرابعة أن عبد الله بن أبى بن سَلول قال: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ (أى الأنصار) منها (أى من المدينة) الأذلَّ (أى المهاجرين) وذلك بسبب شر وقع بين جهجاه الغفارى أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن وَبَر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج، ونادى جهجاه الغفارى: يا للمهاجرين، ونادى سنان الجُهَنى: يا للأنصار، وعلّق عبد الله بن أبىّ تعليقه السالف، وبلغ تعليقه أو مقالته رسول الله ﷺ، وشاع ذلك عنه، فتبرأ منه ابنه عبد الله، وأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله أنت -والله- الأعز، وإن شئت والله لنخرجنَّه من المدينة. وفى رواية ثانية أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ بن سلول قال: يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى، فإن كنت تريد ذلك فمُرْنى بقتله، فإنى أخشى يا رسول الله إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلمًا فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أنى من أبرّ أبنائها فقال له رسول الله -ﷺ- خيراً ودعا له وقال ﷺ: «**بِرَّ أباك، ولا يرى منك إلا خيراً**». ويقال: إن الرسول ﷺ لما سمع أن المتخاصمين دعوا: يا للمهاجرين ويا للأنصار قال ﷺ: «ما

بال دعوى الجاهلية القائمة على التعصب عادت»، وقال ﷺ: **«دعوها فإنها منتنة»**.
ومعروف أن الإسلام أبطل كل الدعوات الجنسية والعصبية، وقال عمر بن الخطاب: دَعْنى -يا رسول الله- أضربْ عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: **«دَعْهُ لا يتحدَّث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه»**. ويجرِّد الله عبد الله بن أبى وأمثاله من المنافقين من كل عزة قاصراً العزة عليه وعلى رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، أما لله فلأنه صاحب العزة والقوة والسيطرة التامة على الكون ومخلوقاته، وأما للرسول ﷺ فبما منحه الله من الرسالة النبوية التى تهب الناس السعادة فى الدنيا والآخرة، وأما للمؤمنين فبما أعطاهم من نصر على المشركين، وبما أعزَّهم به من طاعة له واستهانة بالشهوات وملَذات الدنيا الفانية.

●●●

الصدق - النُصْح

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩].

٢ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩].

٣ - ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥].

٤ - ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨]

الأحاديث:

١- عن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما : حَفظْتُ من رسول الله ﷺ : **«دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبك، فإن الصدق طمأنينة والكَذب ريبة»** (رواه الترمذى ورواه ابن حنبل فى مسنده عن أنس).

٢- عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : **«إنَّ الصدق يَهْدى إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنَّة، وإن الرجل ليَصْدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا»** (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر).

٣- عن تميم بن أوس الدارى قال : قال رسول الله ﷺ : **«الدين النصيحة، قلنا : لمن؟ قال : الله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٤- عن جرير بن عبد الله -رضى الله عنه- قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء للزكاة والنُّصْح لكل مسلم (رواه البخارى فى كتاب الإيمان).

يبشر الله فى الآية الأولى عباده الصادقين الموحدين له بأن يوم القيامة يوم نفعهم بصدقهم وتوحيدهم له، إذ يجزيهم الجزاء الأوفى لصدقهم، فيدخلهم جنات تجرى من

تحتها الأنهار يخلدون فيها خلودًا أبديًا. ويصفهم الله فى نفس الآية بأنه رضى عنهم هذا الرضا الذى يتمناه الأتقياء الأبرار، ويشفع ذلك بأن الصادقين كما رضى عنهم رضوا عنه، وهو إكرام من الله ما بعده إكرام. ورضاهم عنه كناية واضحة عن كثرة إنعامه عليهم وتوالى ذلك حتى طابت نفوسهم. وبحق تقول الآية فى خاتمتها: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهو فوز لا يتمنى المسلم الصادق فوزًا وراءه، فوز يملأ نفسه أمنًا وطمأنينة. ويقول الرسول ﷺ لحفيده الحسن ناصحًا: «دَعْ ما يريبك» ويدخل الشك على نفسك «إلى ما لا يريبك»، ويدخل الطمأنينة النفسية عليك، أى دع الكذب إلى الصدق، فإنه يريح النفس ويشعرها بالأمان. ومما يروى فى قصص العرب تحبيبًا فى الصدق وتنفيرًا من الكذب أن صبيًا كذابًا كان يرعى غنم أبيه، وسوّل له الكذب أن يصرخ فى قريته أن ذئبًا عدا على غنمه فخرجت القرية لترد الذئب، وإذا هى تجد الصبى كاذبًا، ومرّت أيام وإذا ذئب يعدو على غنمه، فصرخ فى أهل قريته مستنجدًا بهم، غير أنهم ظنوه يكذب فى صراخه الثانى كما كذب فى صراخه الأول فلم ينجده أحد. وتلك عاقبة الكذب، وكيف أنه يعود على صاحبه بخسران محقق، سوى خسرانه لكرامته ومروءته وسط أهله ووسط عارفيه من قريته وغير قريته، مما يجعل الناس تنفر منه وتزورُّ عنه، بينما الرجل المعروف بالصدق تودُّه الناس وتقبل عليه وتأنس له أنسًا متصلاً.

ويقول الله -جَلَّ شأنه- فى الآية الثانية: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى كونوا أيها المسلمون مع من يتخذون الصدق شعارهم ولم يعدلوا عنه يومًا. والمراد الصدق فى العقيدة الإسلامية، فهم يأتمرون بما أمر الله به من عبادات وما حذَّر منه من منهيات عن اقتناع عميق تتعانق فيه الأدلة العقلية والشرعية، وهم -بذلك- مسلمون صادقون. وهم.

●●●

التواضع -الحياء

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

٣- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الأحاديث:

١- عن عياض المجاشعى التميمى قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يَبْغى أحد على أحد**» (رواه مسلم فى كتاب الجنة ونعيمها وأبو داود وابن ماجة جميعًا عن عياض).

٢- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب).

٣- وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**» (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان).

٤- عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» (رواه البخارى).

والله -عزَّ شأنه- يطلب من رسوله فى الآية الأولى أن يتواضع للمؤمنين ويرفق بهم، واستعارت الآية للتعبير عن ذلك خفض الجناح من الطائر، وأصله أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه بسط له جناحه ثم قبضه عليه، والجناحان من الشخص جانباه،

وكأنه يقول لرسوله: لِيِّن جانبك للمؤمنين، وارؤف بهم وتواضعْ لهم، إذ بذلك يحبونك ويلتفون حولك. وكان شديد التواضع لصحابته، ويقول خادمه أنس بن مالك: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيده، فتنطلق به حيث شاءت ليقضى لها حاجة تريدها. ويحكى الصحابة وزوجاته عن تواضعه الشديد حكايات وأمثلة كثيرة. وتبعه الصحابة يقتدون به فى تواضعه، وكان يوصى به الصحابة دائمًا ويقول لهم -كما فى الحديث الأول: إن الله أوحى إليه -إما إلهامًا وإما برسالة عن طريق جبريل عليه السلام أن تواضعوا أيها المسلمون، والتواضع يكون لله بتعظيمه، أما للناس فمنه محمود ومنه مذموم، والمحمود منه يدخل فيه التواضع للأهل وللعلماء الصالح، وهو تواضع لله، أما التواضع لأهل الظلم فذلك ذل ما بعده ذل. وينهى الرسول فى الحديث عن التفاخر بالآباء والأعمال كما ينهى عن البغى والظلم المفسد للحياة.

ويُطَمْئِن الله فى الآية الثانية الرسول والمسلمين بأنه إذا كان بينهم من لا يزال فى قلوبهم مرض وشك فى الدين الحنيف، وارتدوا فعلاً عن الإسلام وعادوا إلى ما كانوا فيه من الشرك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ غيرهم يعتنقون هذا الدين العظيم راغبين فيه مخلصين له يحبهم الله ويرضى عنهم. ويحبونه فيطيعونه ويعبدونه ويعظمونه حق تعظيمه، ويصفهم الله بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى متواضعون لهم تواضعًا كريمًا كله رقة ورأفة ومحبة ورحمة ومودة ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾أى يشعرون إزاءهم بالعزة والقوة وأن لهم الغلبة. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثانى: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»، أى فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنه يضع فى قلوب الناس محبة له فيبجّلونه ويعظمونه وينزلونه فى نفوسهم منزلة كريمة، وأما فى الآخرة فإن الله يجزيه عن تواضعه جزاءً حسنًا، ويدخله جنته.

●●●

العفاف

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٢- ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦].

٣- ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

٤- ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ [النور: ٦٠].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفَّف، واقرءوا إن شئتم قوله تعالى: لا يسألون الناس إلحافًا» (رواه البخارى).

٢- عن رجل أنه جاء إلى الرسول ﷺ فقال له: «إن عندى يتيمًا عنده مال وليس لى مال هل آكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير مسرف» (رواه أبو داود والنسائى).

٣- عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة** (أى القدرة على الزواج) **فليتزوَّج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ** (أى وقاية)» (رواه البخارى ومسلم).

٤- عن حكيم بن حزام أن النبى ﷺ قال: «**اليَدُ العُلْيا خير من اليد السُّفْلَى، وابْدَأ بمن تعولُ، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يعفَّه الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِه الله**» (رواه البخارى ومسلم).

المراد بالفقراء فى الآية الأولى المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة وجاءوا المدينة دار الهجرة، ويقول الله: إنهم ﴿**أُحْصِرُوا**﴾ فى سبيل الله أى حُبسوا للجهاد مع رسول الله ﷺ، وكانوا يخرجون للغزو فى السرايا التى كان يبعثها رسول الله ﷺ، وقد أنزلهم الرسول ﷺ فى رواق ألحقه بمسجده كان يسمى الصفَّة؛ ولذلك يسمون أهل الصفة، ويقول الله: إنهم ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ**﴾ أى سيرًا فيها للتجارة لضيق ذات يدهم، ويقول: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ**﴾ بأمرهم وحالهم ﴿**أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ وهو النزاهة عن السؤال: ونهى الرسول ﷺ الفقراء من صحابته مرارًا وتكرارًا عن سؤال الناس مالاً أو شيئًا ﴿**تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾خطاب لكل شخص أى تعرفهم بالعلامات الدالة على فقرهم وحاجتهم دون أن يتعرَّضوا لك بالسؤال ﴿**لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ أى إلحاحًا فهم لا يلحون فى السؤال إن سألوا. والأولى أن يكون المعنى لا يسألون الناس مطلقًا بدليل قوله تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: «ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان بسؤاله الناس إنما المسكين الذى يتعفف واقرأوا قوله تعالى: ﴿**لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾»، ويقول الله حاضًا على الإنفاق على أهل الصفة من الفقراء المتعففين عن السؤال: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾أى أنه عليم به وجزاؤه عنده عظيم.

والآية الثانية موجهة إلى الأوصياء على أموال اليتامى، وأنه ينبغى عليهم حين يأتى

الوقت على اليتيم من مقاربة البلوغ ونضج العقل وقرب أن يصبح راشداً أن يبتليه الوصى، وهو قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾أى يختبر الوصى اليتيم بتصرفه حينئذ فى بعض ماله ليرى بوضوح قدرته على التصرف به. وواضح من قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾أى الزواج أنَّ وقت اختبار اليتيم بتصرفه فى بعض ماله يكون بعد التمييز وقُبَيْل البلوغ. ويقول الله: إنهم حين يبلغون ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم ﴾أى علمتم ﴿ مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أى تصرفًا سليمًا فى المال وحسن تدبيره ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾أى إفراطًا فى إنفاقها على اليتيم فى ثيابه وطعامه ومسكنه ومركبه، حتى إذا بلغ الرشد لم يجد مالاً ينتفع به ويتعيش منه بالتجارة أو غيرها. يشير إلى ما كان يصنعه بعض الأوصياء من أكل أموال اليتامى إسرافًا ﴿ وَبِدَارًا ﴾ أى مبادرة قبل ﴿ أَن يَكْبَرُوا ﴾وتُرَدَّ عليهم أموالهم. ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا ﴾من الأوصياء ﴿ فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عن أخذ شىء من مال اليتيم: وقيل: الأمر ليس للوجوب بل للندب فيأخذ أجر مثله ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأوصياء﴿ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل أى أجرة مثله، وقيل: قدر حاجته. وقد أوصى الرسول ﷺ فى الحديث الثانى وصيًا فقيراً سأله: هل يأكل من مال يتيم وصىٌ عليه، فقال ﷺ له: **«كُلّ بالمعروف غير مسرف»**.

والآية الثالثة حض على الزواج والتزويج، والأيامى جمع أيِّم وهى المرأة لا زوج لها بكرًا أو ثيبًا، والله جَلَّ شأنه يحض على تزويج الحرائر من المسلمات إذ يقول: ﴿ وَأَنكِحُوا ﴾ أى زوِّجوا ﴿ الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ ﴾ أى الحرائر، وبالمثل زوجوا ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ قيل أى عبيدكم﴿ وَإِمَائِكُمْ ﴾ لله يأمر بتزويج الأحرار والعبيد. وقيل ﴿ الصَّالِحِينَ ﴾ فى الآية ليست من الصلاح بمعنى التقوى وإنما المراد الصلاح للتزوج بمعنى القيام بحقوق الزواج. وذهب بعض الفقهاء إلى أن الآية توجب على كل من قدر من المسلمين على الزواج أن يتزوج، مستدلين بالحديث الذى يخاطب فيه الرسول ﷺ الشباب بقوله: **« من استطاع منكم الباءة»**- أى القدرة على الزواج - **«فليتزوج»**. ويعد الله المتزوجين من الفقراء أن يغنيهم من فضله، وهو وعد لا يتخلف، لسعة فضله وآلائه

على البشر، ثم يقول عزَّ شأنه: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أى زواجًا وقدرة عليه، وهو أمر إلهى بالتعفف عن الحرام ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وعطائه الذى لا حد له. ويوصى الرسول ﷺ من لا يستطيعون الزواج فى الحديث الثالث بالصوم فإنه لهم وقاية عظيمة.

والآية الرابعة خاصة بالقواعد من النساء أى المتقدمات فى السن ﴿ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى لا يطمحن إلى الزواج فإنه لا جناح عليهن فى أن يتخففن من ثيابهن ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى غير قاصدات بالتخفف من ثيابهن تبرجًا وتكشفًا لما عليهن من الزينة مثل بعض الحلى يقول الله: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أى أن إبقاء ثيابهن عليهن وعدم خلعها طلبًا للاستعفاف والعفَّة خير وأفضل لهن.

وواضح أن القرآن الكريم حضَّ على التعفف والعفة عن سؤال المحتاج مستعينًا بالصبر آملاً فى الفرج من عند الله، كما حض على العفة والتعفف عن أخذ أموال اليتامى نهبًا واغتصابًا، وأيضًا فإنه حض على وجوب العفة والتعفف عن شهوات النفس، وافتتانها بالنساء، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الرابع: «مَنْ يستعفف يُعِفَّه» الله أى يرزقه فى كل شىء: فى القول والفعل وفى كل ما يأتى من الأمر.

●●●

الحلم

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

٢- ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٣- ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤- ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

الأحاديث:

١- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمنذر بن عاذل فى وفد عبد القيس الملقب بالأشج لجراحة كانت فى جبهته: **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٢- عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء»** (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة).

٣- عن السيدة عائشة قال رسول الله ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»** (رواه البخارى).

٤- عن أبى هريرة أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أوْصنى قال: **«لا تَغْضب»** وردَّد الرجل طلب الوصية، والرسول ﷺ: **«لا تغضب»** (رواه البخارى فى كتاب الأدب).

والآية الأولى يمدح فيها الله -تقدَّس اسمه- خليله وحبيبه النبى إبراهيم بصفة من

صفاته التى كررها فى القرآن كثيراً فى مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومثل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ والحلم عفو وصفح عن عدوان السفهاء، والحليم لا يستفزه التقصير فى حقه، ولا يغضب إذا تناوله شخص بقدح أو ذم، وقد حلم إبراهيم أعظم حلم حين هيأ له قومه حطبًا كثيراً وأوقدوا فيه النار، وقذفوا به فى النار، كل ذلك وهو كاظم غيظه إلى أن قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ونجاه الله منها دون أن يصيبه أى أذى. وقصة ابنه إسحق أو إسماعيل مشهورة، وذلك أن إبراهيم قال لابنه كما فى القرآن الكريم. ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وبلغ ابنه -ذروة الحلم قائلاً لأبيه إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وصمَّم إبراهيم على ذبح ابنه، فأخذه وأخذ معه سكينًا، واستسلم له ابنه، فألقاه على وجهه أو بعبارة أدق كما يقول القرآن: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى أكبَّه على جبينه ليذبحه، ولما همَّ بذلك سمع نداء من خلفه: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ والتفت، فإذا الله قد أرسل إليه بكبش سمين عظيم فداء لابنه. ويقول الله بعد ذكره لهذه القصة فى سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾ أى إبراهيم ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهى بشارة تالية للقصة، وتدل على أنه إسحق وأن الذبيح هو إسماعيل.

واشتهر كثيرون -عند العرب- بالحلم والأناة وضبط النفس، وفى مقدمتهم الرسول ﷺ، وكان ربما سمع كلمة نابية من أعرابى جاف فابتسم ولم يرد عليها، بل حاول أن يسترضيه، وخاصة حين يقسم غنيمة أو مالاً من غزوة بين الصحابة. وكان يستحب خصلتى الحلم والأناة بين أصحابه وبهما امتدح أشج بنى عبد القيس فى الحديث الأول. ومن الحلماء أبو بكر الصديق، وقال له رجل سفيه لأشتمنَّك شتمًا يدخل معك.

●●●

الصبر

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٣- ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

٤- ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الأحاديث:

١- عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يتصبَّر يصبِّرْه الله، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر»** (روته كتب الصحاح الستة).

٢- عن عبد الله بن أبي أوفى أن الرسول ﷺ قال في إحدى حروبه مع العدو: **«يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنَّة تحت ظلال السيوف»** (رواه ابن حنبل والبخاري ومسلم وأبو دواد).

٣- عن أسامة بن حارثة أن إحدى كريمات الرسول ﷺ أرسلت إليه أن ابني قد احتُضر فاشْهَدْنا، فأرسل إليها يُقرئها السلام ويقول: **«إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل حَيٍّ عنده بأجل مسمىً، فَلْتَصْبِرْ ولتَحْتَسِبْ»** (رواه أصحاب الصحاح إلا الترمذي).

٤- وفي الجامع للترمذي بكتاب الدعوات قال: قال الرسول ﷺ: **«انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة»**.

والله -تقدَّس اسمه- يأمر المؤمنين في الآية الأولى أن يستعينوا بالصلاة لأداء شكره

على ما أنعم به عليهم، وبالصبر على ما نزل بهم من محن، ويصور الرسول ﷺ الحالتين قائلاً: عجبًا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء وشكر الله عليها كان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان ذلك خيرًا له. والصبر أقسام: صبر على أداء الطاعات وامتثال أوامر الله فيها مع ما يكون فى ذلك من بعض المشقة، وله منازل أن يكون أداء الطاعات رغبة فيما عند الله فى أدائها من ثواب، وأن يكون هذا الأداء تقربًا لله ابتغاء مرضاته، وأن يكون محبة له وشغفًا به دون أى تفكير فى ثواب أو جزاء أو حتى مرضاته، وبجانب هذا الصبر صبر ثان عن ارتكاب المعاصى التى نهى الله عنها وشدَّد فى تحريمها، وتوعَّد مرتكبها بالعقاب الأليم فى الآخرة. وصبر ثالث على ما ينزل بالمؤمن من مكروه أو يحلّ به من محنة أو بلاء، وأنه أيضًا منازل إذ قد يكون طلبًا لحسن الجزاء، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن صبرت مَضَى أمر الله أى نفذ وكنت مأجورًا أى مثابًا، وإن جزعت فلم تصبر مضى أمر الله ونفذ وكنت مأزورًا أى غير مأجور ولا مثاب. وقد يكون الصبر على المكروه والبلاء عن رضا وتقبل صادق للقضاء وحسن ظن بالله، وقد يكون عبادة الله بتجرُّع غصص المحنة والبلوى، دون أى جزع ودون أى شكوى. وقَدَّمَ الله فى الآية الصبر على الصلاة أم العبادات لمنزلته عنده، وهو إعزاز لأصحابه أنه مع الصابرين، ونوَّه الله به مرارًا فى القرآن الكريم، وقال فى سورة الزمر تنويهًا بأصحابه وما ينتظرهم من ثواب عظيم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: من يتصبر إزاء أى شىء يُعِنْه الله على التصبر، ويقول: إن الله: لم يعط أحدًا عطاء خيرًا وأوسع من الصور، ويصور الله هذا العطاء فى آية سورة الرعد وما جاء فيها من أن أهل الجنة ينادون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فقد أثابهم ثوابًا كبيرًا بجنته لصبرهم على طاعته وصبرهم عن معصيته.

●●●

كتمان السر - الستر على ذنوب المسلمين

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥].

٢- ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٣- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

الأحاديث:

١- عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجلُ يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرَّها»** (رواه مسلم فى باب إفشاء سر المرأة).

٢- عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أتى رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلَّم علينا وبعثنى فى حاجة، فأبطأت على أمى، فلما جئت قالت: ما حسبك، فقلت بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرٌّ، قالت: لا تخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا» (رواه مسلم فى الفضائل).

٣- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا وقد بات ستَره ربُّه ويصبح يكشفُ ستر الله عنه»** (رواه مسلم فى كتاب الزهد).

٤- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سَتَرَ مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة» (رواه مسلم فى الدعوات).

كان يوسف عليه السلام قد رأى رؤيا أو حلمًا فى صباه ذكره لأبيه قائلاً: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وكانت زوج أبيه يعقوب حاضرة الحديث، فنصحه أبوه أن يحتفظ بهذه الرؤيا لنفسه سرًا وأنْ لا يذكرها لإخوته العشرة غير الأشقاء، وكانوا يغارون منه لمحبة أبيه له ولأخيه من أمه الشقيق. فخشى يعقوب إن قصَّ رؤياه أن يشتد بهم الغيرة منه والحسد فيكيدوا له كيدًا شديدًا. وفى الإسرائيليات أن زوج أبيه أذاعت هذه الرؤيا لإخوته، وفى سورة يوسف أن إفراط أبيه فى محبته هو الذى أغوى إخوته على الكيد له، فسألوا أباهم أن يخرج معهم فى الرَّعى، ورضى، وألقوه فى جُبٍّ والتقطه منها شخص فى قافلة كانت ذاهبة إلى مصر، وعُرض فى أحد أسواقها عبدًا واشتراه عزيز مصر، وكانت حينئذ فى حكم الكنعانيين.

وكتمان الأسرار فى الخصال الحميدة، وينبغى لصاحب السر أن يحافظ عليه وأن لا يذيعه لأحد بأى صورة إذ لا يلبث أن يذيعه بدوره لأحد خلصائه، فينتشر. وفى الحديث النبوى ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»، ويقول على بن أبى طالب: سرُّك أسيرك، فإذا تكلمت به صرْت أسيره. ويقول عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سرِّه، ويقول بعض الحكماء: سرُّك من دمك فلا تُجْره فى غير أوداجك[1]، أى فى غير عروقك. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى زوجته وتفضى إليه ويفشى سِرهًا بين أصحابه»، إذ أضاع حق نفسه وأضاع حقوقها عليه. وينبغى على صاحب السر أن يعلم أنه بمجرد أن استأمن شخصًا على سره فقد أذاعه، ومهما عاهده أنه لن يذيعه فسيشعر إزاءه بنفس القلق والهم الذى جعل صاحبه يذيعه له فيذيعه بدوره لصديق، ويذيعه الصديق لصاحب له، وينتشر. والله -جلَّ شأنه- ينوه فى الآية الثانية بمن يوفون عهودهم إذا عادوا وهم فى

(١) أوداج جمع ودج: عرق فى العنق يقطعه الذابح.

عهود الأسرار قلة شديدة. وكان أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ من هذه القلة حتى وهو لا يزال غلامًا كان الرسول إذا استأمنه على سر لا يخبر به أحدًا. وإذا كان صدر صاحب السر يضيق به ويشعر بغير قليل من الكرب إزاء الاحتفاظ بسره فليعلم أن صدر من يأتمنه عليه مثل صدره، بل ربما كان أشد ضيقًا وأكثر منه شعوراً بالكرب، فيفشيه حتى يستريح بدوره. والعاقل من ضَنّ بأسراره عن جميع الخلق واحتفظ بها لنفسه فى صندوق صدره.

والآية الثالثة وعيد لمن يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين، مما يدل على نواياهم الخبيثة وأنهم يكنون لهم غير قليل من البغضاء، حتى ليبلغ من بغضهم أنهم يحبون أن تشيع عنهم الفاحشة. وهم ليسوا مؤمنين إذ المؤمن لا يحب إخوانه أن يشيع عنهم سوء، بل يحب لهم أن لا يقال عنهم أى سوء. وبدون ريب شيوع أخبار الفاحشة صادقة أو كاذبة بعد فساداً أخلاقيًا كبيراً، إذ قد تؤول إلى ارتكاب بعض الناس لها دون تهيب، وخاصة أصحاب النفوس الخبيثة أو المريضة فإنهم يسارعون إلى اقترافها، وقلما ينكفون عنها. وقد يتسع هذا الاقتراف لفاحشة حتى يوشك أن يصبح وباء، وينبغى أن تقاومه الأمة الإسلامية بكل ما تستطيع، والله يقول: إن هؤلاء الخبثاء الذين يبغون أن تشيع الفاحشة فى الأمة حتى تفت فى عضدها لهم عذاب أليم فى الدنيا بما يُصبّ عليهم من حدود القذف للمؤمنين والمؤمنات، وعذاب أليم فى الآخرة بما يصب عليهم من نار الجحيم. وقد رأى الرسول الكريم ﷺ ببصيرته النافذة أن يقتلع هذه الخصلة الكريهة من نفوس أصحابها، ولاحظ أن منهم من يتباهى بأنه صنع بالأمس هذا الذنب أو تلك المعصية، فقال ﷺ فى الحديث الثالث: «**كل أمتى مبرءون من ذنوبهم إلا المجاهرين**» أى المتباهين بارتكاب المعصية، فيكشفون الستر الذى أسدله الله عليهم. ويذكر الرسول ﷺ فى الحديث الرابع ثوابًا كبيراً لمن رأى مسلمًا يقترف ذنبًا، ولم يقل ذلك لأحد، فستر عليه، فإن الله يستره فى الدنيا والآخرة.

●●●

القناعة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٢- ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [النحل: ٧١].

٣- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣٠].

٤- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

الأحاديث:

١- عن عبيد الله بن محصن الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح منكم آمنًا فى سِرْبه، مُعافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها»** (رواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب).

٢- عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«قد أفلح مَن أسلم ورزق كفافا وقنَّعه الله بما آتاه»** (رواه مسلم والترمذى وابن ماجة).

٣- عن فَضالة بن عبيد الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: **«طُوبى لمن هُدِىَ إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع»** (رواه الترمذى).

٤- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العَرَض[1] ولكن الغنى غنى النفس»** (رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة).

(١) العرض: متاع الدنيا.

نزلت الآية الأولى فى أهل الصُّفَّة. كما مر بنا، وهم فقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة وقبائلهم فى نجد وهاجروا إلى المدينة لنصرة الرسول ﷺ، وقد بنى لهم رُواقًا واسعًا ألحقه بالمسجد النبوى وسُمِّى باسم الصُّفَّة، ومنهم المحدِّثان المشهوران أبو هريرة وأبو ذر الغفارى، ويقول أبو ذر: كُنَّا إذا أمسينا جئنا إلى باب رسول الله ﷺ فيأمر بعض أصحابه أن ينصرف برجل منا ويبقى من بقى معه: نحو عشرة أو أقل فنتعشى معه، فإذا فرغنا نمنا فى المسجد. وكان ذلك فى صدر أيام الهجرة وسنواتها الأولى، ثم فتح الله على المسلمين، فاستغنى أهل الصفة وخرجوا منها ويقول الله عنهم: ﴿أُحْصِرُوا﴾ أى حُبسوا للجهاد فى سبيل الله إذ كانوا يشتركون فى كل سريَّة أو كتيبة يبعثها الرسول ﷺ للجهاد، وكأنهم رصدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله.

وتقول الآية: إنهم كانوا ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ أى سفرًا يضربون فيه الأرض بأرجلهم وحوافر دوابهم، والمراد سفر للتجارة إذ كانوا فقراء ولم يكن معهم مال يستطيعون الاتجار به وكسب معاشهم، ويمتدح الله عفتهم عن السؤال، فهم لا يسألون أحدًا إطعامهم، متحملين -بصبر- الجوع الشديد حتى كان بعضهم- من شدة مسغبته- وهو يصلى وراء الرسول ﷺ إلى القعود فى الصلاة من الضعف الشديد.

وتقول الآية: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، أى بما يبدو عليهم من أثر الفقر والحاجة، ويقول أحدهم وهو أبو هريرة: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء يستر بدنه، إذ عليه ما يستر به عورته فقط إما إزار وإما كساء قد ربطوهما فى أعناقهم، منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرَى عورته.

وبحق يقول الرسول ﷺ، وكأنه يتمثَّل أهل الصفة: «**إن من أصبح آمنًا فى قومه أو فى نفسه، معافى فى جسده، عند قوت يومه فكأنما تملك الدنيا بحذافيرها**». وهى قناعة لا تماثلها قناعة، ومن يؤتاها يعيش راضيًا حامدًا ربه. ويكمل الله وصف أهل الصفة بأنهم ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ووصفهم بأنهم متعففون، وأن الجاهل بحقيقتهم يحسبهم أغنياء يدل على أنهم لا يسألون الناس مطلقًا. ويدعو الله فى ختام الآية إخوانهم من المسلمين أن ينفقوا عليهم، بل أن يتسعوا بإنفاقهم فى وجوه الخير وأنه عليم بما ينفقون، وسجزيهم عليه أعظم الجزاء.

والآية الثانية تقول: إن الله يشمل برزقه جميع الخلق وإن تفضيل بعضهم على بعض فيه بإرادته، لا على حسب ما يرجون ولا على حسب ما يستحقون، فقد تجد عالمًا مقتَّرًا عليه في الرزق وجاهلاً موسعًا عليه، ولا يعرف العالم أسباب التقتير ولا الجاهل أسباب السعة عليه. وبالمثل قد يكون المسلم مضيَّقًا عليه في الرزق والمشرك غنيًا وله عبيد كثيرون، والله -جَلَّ وعزَّ- يذكر ذلك ليرتب عليه بقية الآية وأن المشركين الأغنياء لا يرضون أن يُسَوُّوا بينهم وبين ما ملكت أيمانهم من العبيد فيما منحهم الله من الرزق، فكيف يرضى الله أن يُسَوىَ بينه وبين عبيد له في الألوهية؟ وكيف يشركونهم معه في سلطانه؟ وذلك مثل قول الله تعالى في سورة الروم: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وهو مثل ضربه الله لنفس المشركين العابدين معه أصنامًا وأندادًا معترفين بأنها من عبيده، فقال لهم: إنني أضرب لكم مثلاً تشهدونه في أنفسكم أتقبلون أو ترضون أن يكون ما ملكت أيمانكم من العبيد شركاء لكم في أموالكم بالسوية بحيث يكونون مساوين لكم؟ وإذا كنتم لا ترضون ذلك وتخافون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم، وأن يتصرفوا فيها تصرفًا لا يرضيكم فكيف تفترضون لله أن يشرك عبيده من الأنداد والأصنام في ألوهيته وفيما يمنحكم من الأموال والأرزاق وبؤسًا لهؤلاء المشركين الأغنياء، وعلى الرحب الفقراء من أهل الصفة ومن يعيشون عيشة الكفاف قانعين بما رزقهم الله مهما يكن قليلاً، فإن هذه القناعة تضفي على الإنسان رضا بل سعادة طاغية. وكان الرسول ﷺ لا يمسك من المال إلا قدر حاجته في يومه، وفي الحديث أنه كان لا يُقيل مالاً ولا يبيِّته، أي أنه كان لا يملك من المال ما جاءه صباحًا إلى وقت القيلولة في نفس اليوم، وما جاءه مساءً لا يمسكه إلى الصباح. ومن قوله الحديث الثالث الذي يقول فيه: طوبَى أي ثواب عظيم مستطاب لمن كان عيشه كفافًا أي بمقدار حاجته وقنع به راضيًا مرضيا.

والآية الثالثة تكررت لها في القرآن الكريم نظائر ردًا على ما كان يجول بخواطر بعض المسلمين من أن الله وسَّع الرزق على المشركين في الدنيا فزادهم شركًا وطغيانًا

بينما ضيَّقه على كثير من المسلمين. ويقول الله فى سورة يونس: إن هذا الخاطر دار بنفس موسى إزاء فرعون وملكه المتحضر المترف فى مصر وما أغدق عليه من المال قائلاً: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾والله -تقدس اسمه- يقول إنه ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ ويوسعه ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ من عبيده، ويقدره ويقلِّله لمن يشاء منهم؛ ولذلك أسباب تقصر عقولنا عن تبينها، وكل هذا الغنى والمتاع فى الدنيا فان، والباقى هو ما عند الله من متاع الآخرة.

والآية الرابعة تدعو إلى الاعتدال فى الإنفاق بين الإسراف والإقتار والإسراف: تجاوز القدر الكافى من المشتهيات، إذ قد يدعو ذلك الشخص المسرف إلى تناوله مشتهيات وملذات مذمومة. وأيضًا فإن ذلك قد يؤدى بالمسرف إلى استنزاف أمواله، فيحاول الحصول على المال بطرق سيئة. والإسراف بذلك مذموم فى نفسه وفيما يترتب عليه. والإقتار: الشح والتضييق الشديد فى النفقة، وهو إجحاف شديد على الزوجة والأبناء، وضرره بالشخص نفسه وبأسرته وبذوى رحمه لا يقف عند حد، وكم من آباء خسروا أبناءهم بسبب شحِّهم المقيت. والله لذلك يدعو المسلم إلى أن يكون وَسطًا فى الإنفاق بين الإفراط والتفريط، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى التوسط ﴿ قَوَامًا ﴾ أى لا عوج فيه. وينبغى أن نضع القناعة نصب أعيننا، وأن لا نلجأ إلى الشح والبخل طلبًا للغنى وكنز المال. وبحق يقول الرسول ﷺ كما فى الحديث الرابع: إن الغنى ليس فى كثرة المال، فهذا غنى مادى، والغنى الحقيقى غنى النفس، وهو أنفس من أن يقدَّر بمال.

●●●

الرضا بالرزق

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

٢- ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

٣- ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ [النحل: ٧١].

٤- ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

الأحاديث:

١- فى الحديث النبوى قال: قال رسول الله ﷺ لبلال: **«أنفق بلالا، ولا تخش من ذى العرش إقلالا»** (رواه ابن كثير فى تفسيره).

٢- عن المستورد أخى بنى فهد قال: قال رسول الله ﷺ: **«والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم.** - وأشار بالسبَّابة- **فلينظر بِمَ يرجع؟»** (رواه مسلم فى باب فناء الدنيا، وابن حنبل فى مسنده).

٣- عن الحسن البصرى كتب عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- إلى أبى موسى الأشعرى: «اقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض فى الرزق. بلاء يبتلى به كُلا، فيبتلى من بسط له كيف شكرُه ‹ وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوَّله» (رواه ابن كثير فى تفسير الآية الثالثة).

٤- فى الحديث القدسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله: يا بن آدم تفرَّغْ لعبادتى أملأ صدرك غنًى وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك غِلاً ولم أسدّ فقرك»** (رواه ابن حنبل فى مسنده والترمذى وابن ماجة).

والله -تبارك وتعالى- يذكر فى الآية الأولى جوده الفياض على عباده بأرزاقهم، والرزق هو ما يحصل الشخص عليه بعمله لسد ضروراته وحاجاته فى معيشته وحياته من المأكل والملبس والمسكن، وأطلقه الله فى القرآن مجازاً على ما يتناوله الحيوان ودوابّ الأرض. صغيرها وكبيرها من الغذاء كما قال فى سورة هود: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. وسمَّى الله الغيث الذى ينصبُّ من السماء رزقًا قائلاً فى سورة الذاريات: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ الذى يحيى الله به الأرض فتجود بثمارها وزروعها. والرزق نوعان: ظاهر لمنفعة الأبدان كالأقوات، وباطن لمنفعة العقول والقلوب والنفوس من مثل التقوى، ومثل المعارف والعلوم والآداب، ويدخل فيه كل كسب للمال عن طريق الأعمال والوظائف والصناعات والتجارات والشركات والزراعة والبيوع والإيجارات والتعليم والتأليف ومزاولة أى مهنة لنفع الجماهير. والله يعطى ويرزق من خلقه رزقًا وعطاءً كثيراً بدون تعداد فى الدنيا والآخرة، وهو دائم العطاء؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ لبلال مؤذنه: أنفق بلالاً. ولا تخش من ذى العرش إقلالاً، فهو سيظل يجزل لك فى العطاء، وفى حديث يقول الله -جلَّ شأنه-: «ابنَ آدم أنفقْ أنفقُ عليك»، أى أنفق مالك فى الخير يهطل عليك الرزق.

ويقول الله -تقدس اسمه- فى الآية الثانية: إنه يبسط الرزق ويوسِّعه على من يشاء من عباده المؤمنين والكافرين، ويقدره ويقتِّره على من يشاء منهم، لما له من ذلك من الحكمة والعدل. وكأنه- عز شأنه- يرد على ما يجول فى خواطر بعض المؤمنين إذ يقولون: كيف يبسط الله الرزق على الكفَّار فيزدادون كفراً، وهلا ضيق عليهم الرزق فى الدنيا كما قال موسى فى سورة يونس لربه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فى الدنيا.

ويقول الله فى الآية الثانية عن الكافرين: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ استدراجًا لهم كما قال فى سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ إعزاز لهم بل هو استدراج لهم وإمهال ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾. وقال فى سورة

التوبة: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وكما قال فى سورة آل عمران: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ أى ما نمهلهم فيه ﴿ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾. وفى الآية الثانية يحقِّر الله متاع الحياة الدنيا بالنسبة لمتاع المؤمنين العظيم فى الآخرة قائلاً: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ قليل، وصوَّر الرسول ﷺ فى الحديث الثانى هذا المتاع القليل بأنه مثل ما يضع أحد الصحابة إصبعًا له فى اليم ويرجعها منه فإنها لا تكاد ترجع بشىء.

والآية الثالثة فى اختلاف الأرزاق وأن الله فضَّل فيها بعض الناس على بعض لحكمة إلهية قد يعزُّ علينا أو على البشر معرفتها؛ إذ يرون أحيانًا جاهلاً أحمق موسعًا عليه فى الرزق. وعاقلاً فاضلاً مقترًا عليه فى رزقه، ولا يعرفون الأسباب فى ذلك؛ لأنها أسباب إلهية لا يدركونها؛ ولذلك نسب الله هذا التفضيل فى الرزق وأسبابه إليه، فهو -وحده- المتصرف فى تفضيل بعض عباده على بعض فى الرزق ويقول عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- فى حديثه لأبى موسى الأشعرى: اقنع برزقك من الدنيا فإن الله فضل بعض عباده على بعض فى الرزق ليبتلى بذلك ويختبر من وسَّع عليه رزقه؛ ليرى كيف يشكره، وكيف يؤدى الحقوق التى فرضها عليه فى رزقه الذى أعطاه، فيخرج زكاته ويبرّ أبويه وأقرباءه والفقراء واليتامى والمساكين.

ويذكر الله فى الآية الرابعة أنه هو ﴿ الرَّزَّاقُ ﴾ فهو رازق سواه، يهب الأرزاق الظاهرة من الأقوات والأموال والأرزاق الباطنة من الإيمان والتقوى، وكل ما يخص العقول والنفوس والأفئدة كما مرَّ بنا. ويُروَى أن شخصًا سأل بعض النسَّاك: من أين تأكل؟ فأجابه: من خزائنه، يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الحِجْر: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ فقال السائل للناسك مستنكرًا: أينزل عليك الخبز من السماء؟ فأجابه الناسك: لو لم تكن الأرض له (أى الله) لكان يلقيه من السماء، فقال السائل له: إنما أنتم قوم ليس عندكم إلا الكلام، فقال الناسك: لم ينزل من السماء إلا الكلام، فقال السائل وقد أفحمه ولزمته الحجة: أنا لا أقوى على مجادلتك، فقال

الناسك : لأن الباطل لا يقوم مع الحق . والناسك يشير بكلمة الأرض إلى أن الإنسان يتوكل على الله ويعمل ويلقى الحب فى الأرض الطيبة لينتظر من ربه الثمرة المأمولة . وليست سعة الرزق تكريمًا ولا ضيقه هوانًا ؛ إذ لو كان الناس متساوين فى الرزق لتعطلت الحياة القائمة على اختلاف الأعمال فيها واختلاف الأرزاق ، ونضرب مثلاً برغيف الخبز وما يحتاج إليه من زارع لحبات قمحه وحاصد وطاحن وخابز وبائع للخبز ، وكل منهم له رزق يختلف به عن صاحبه ، وكذلك كل ما يحتاج الناس إليه من الارتقاء والتعاون فى جميع أمورهم وشئونهم فى الحياة وفى الحكم وفى السياسة والاقتصاد وفى الفنون والعلوم والتعليم وفى الصناعات والتجارات ، وكلٌ ميسَّرٌ لما خُلق له ، وكل له حظه ونصيبه من الرزق حسب عمله وجهده وسعيه .





العمل الصالح

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

٢- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠].

٣- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

٤- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

الأحاديث:

١- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها فى الدنيا ويُجزى عليها فى الآخرة»** (رواه ابن حنبل فى مسنده ومسلم فى كتاب صفات المنافقين: باب جزاء المؤمن بحسناته).

٢- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومَن ستَّر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه»** (رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء).

٣- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن دَعَا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»** (رواه مسلم فى آخر كتاب العلم).

٤- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلِّمْ، وإذا دعاك فأجبْه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عَطس فحمد الله فشمِّتْه، وإذا مَرِض فعُدْهُ، وإذا مات فاتبعه»** (رواه مسلم فى كتاب السلام).

والله -تقدَّس اسمه- يقول فى الآية الأولى: إن من عمل عملاً صالحًا ذكرًا أو أنثى من المؤمنين نعده بأن تكون حياته حياة طيبة. والعمل الصالح هو العمل الخيِّر أو الطيب مما دعا إليه القرآن الكريم، مما يتصل بعبادة الله وحسن الخلق وبر الجماعة، أما العمل الصالح فى العبادة فيراد به أداء المؤمن للفرائض الدينية من صلاة وغير صلاة أداءً تشترك فيه الجوارح والقلب. وتتضح فيها قربات إلى الله كثيرة بذكر اسمه وتسبيحه وتمجيده والثناء عليه. وخاصة فى الصلاة والصيام والحج. وأما العمل الصالح المتصل بحسن الخلق فمثل الشجاعة والكرم والحلم والصفح وعزة النفس والرحمة والرفق، واجتناب الآثام والخطيئات والدنايا والنقائص. وأما العمل الصالح المتصل بالجماعة فعلى رأسه البر بالفقراء والمساكين واليتامى، وكل ما يقدمه المؤمن لمجتمعه المتصل بالجماعة فعلى رأسه البر بالفقراء والمساكين واليتامى وكل ما يقدمه المؤمن لمجتمعه وأفراده من معروف شاعرًا فى عمق بأن لكل فرد فى المجتمع حقًا عليه، حقًا فى المعاملة الكريمة، وحقًا فى العون والمساعدة، وحقًا فى التعهد والرعاية، وحقًا فيما منحه الله من مال، فالمال مال الله ائتمنه عليه، وينبغى أن لا يمنعه عن أهله فى أسرته الصغرى: أسرة أبويه وزوجته وأبنائه وأقربائه وبالمثل لا يمنعه عن أفراد أسرته الكبرى: أسرة أمته، وحتى الكلمة الطيبة يقولها لأخيه، وحتى الوجه البشوش المستبشر يلقاه به، وحتى ما قد يؤذى أخاه فى الطريق فينحيه عنه. كل ذلك يدخل فى المعروف أو بعبارة أخرى يدخل فى العمل الصالح الذى يحييه الله به حياة طيبة فى الدنيا، ويجزيه به جزاءً حسنًا فى الآخرة. وبحق يقول الرسول ﷺ الحديث الأول: **«إن الله لا يظلم المؤمن فى حسنة يؤديها، بل يثيبه عليها الثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة»**.

والله -عزَّ شأنه- فى الآية الثانية يقول: إن الكلم الطيب من ذكره وتسبيحه وتمجيده يصعد إليه، كما يقول إن العمل الصالح يرفعه. ويذكر الرسول ﷺ فى الحديث الثانى

صورة من العمل الصالح، كلها تتصل بالمؤمن، فمن فرَّج عن أخيه المؤمن كُرْبَةً فى الدنيا فرَّج الله بها عنه كُرْبَةً فى الآخرة، ومن أتاح لمعسر يُسرًا فى عسره جزاه الله بيسر فى الدنيا والآخرة، وحتى من ستر مسلمًا على معصية حدثت منه، ستره الله فى الدنيا والآخرة. وفى الحديث النبوى كل معروف، وبعبارة أخرى كل عمل صالح، تؤديه إلى أخيك يرفعه الله بيمينه، كما جاء فى حديث نبوى عن أبى هريرة: من تصدق بصدقة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا طيبًا- تلقاها الرحمن بيمينه. فيربِّيها له كما يربى أحدكم فُلُوَّه، أى مهره المفطوم. والمؤمن فيما يقدم لربه من أعمال صالحة، يجزيه ربه عليها جزاء مضاعفًا، وهو جزاء استثمارى عظيم.

وتُعلى الآية الثالثة من دعوة المؤمن إلى الله وتوحيده ونبذ الشرك وكل ما يتصل به من شعائر، كما تعلى من العمل الصالح يعمله المؤمن مبتغيًا به وجه ربه طمعًا ورجاء فى جزائه وثوابه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ اعتزازًا وافتخارًا بإسلامه وأنه صادق كل الصدق فى اعتقاده. والمؤمن -بذلك- نافع لنفسه ولغيره، فليس ممن يأمرون بالمعروف ولا يأتمرون به الذين قال الله فيهم بسورة الصَّفِّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ فهو ليس من هؤلاء المنافقين الذين نزلت فيهم الآية، إنما هو من المؤمنين الذين أخلصوا دينهم وأعمالهم لربهم، يبتغون منه القبول والرضا والثواب والجزاء، ويقول الرسول ﷺ: «**من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه**»، وهى عدالة ربانية تلقانا دائمًا فى الشريعة الإسلامية.

ويقول الله -جلَّ شأنه- فى الآية الرابعة: إن من عمل عملاً صالحًا فنفعه عائد إليه وإلى نفسه، ومن أساء فوبال إساءته يرجع إليه وإليها. والله لا يثيب أحدًا إلا ثوابًا يستحقه، ولا يعاقب أحدًا إلا بعمله السيئ، إذ هو ليس ظالمًا ولا ظلامًا لعبيده. ويذكر الرسول ﷺ فى الحديث الرابع حقوقًا ستة للمسلم على المسلم هى: السلام وردُّه، وقبول الدعوة للضيافة أو الزيارة، والإخلاص فى النصح، والزيارة فى المرض، وتشييع الجنازة إذا مات، وحتى إذا عطس وحمد ربه يشمِّته بمثل قوله: يرحمك الله.

وتكاد تكون كل مواساة المسلم للمسلم حقًا وعملاً صالحًا بجانبه الأعمال الكبرى فى الجهاد؛ إذ يقول الله فى سورة التوبة عن جهاد المسلمين إنه ﴿ **لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ** ﴾ أى عطش ﴿ **وَلا نَصَبٌ** ﴾ أى تعب ﴿ **وَلا مَخْمَصَةٌ** ﴾ جوع ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا** ﴾ أى لا ينزلون منزلاً ﴿ **يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً** ﴾ فى الجهاد وحرب أعداء الله ﷺ ورسوله ﴿ **وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا** ﴾ فى السير إلى الأعداء ﴿ **إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ** ﴾ عملاً صالحًا ﴿ **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ . ويحث القرآن مرارًا وتكرارًا أن تسود بين المسلمين أخوة صادقة تقوم على التعاون فى السراء والضراء، وأن يمد المسلم لأخيه العون وخاصة إذا طلب منه ذلك حتى فى الماعون وهو كل ما يعين الإنسان فى العمل من مثل القدر والإناء والفأس والإبرة والغربال. وتذم سورة الماعون من يمتنعون عن إقراض إخوانهم مثل هذه الأدوات ومثل النار والملح والماء. وعن السيدة عائشة أن الرسول ﷺ قال: «**من أعطى لأحد نارًا فكأنما تصدق بجميع ما طُبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحًا فكأنما تصدق بجميع ما طُيِّب به ذلك الملح، ومن أعطى شَرْبةً من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نفسًا، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا**». والمعروف أن العمل الصالح -بذلك- يشمل أكبر الصور منه كصور الجهاد فى سورة التوبة كما يشمل أصغرها مما يعار حتى الإبرة والغربال والملح والنار. وكل تلك مننٌ على العباد لا تكاد تحصى أو تستقصى.

●●●

المحظورات: الحلال - الحرام

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨].

٢- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة: ٣].

٣- ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة: ٤، ٥].

٤- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

الأحاديث:

١- عن سعد بن أبى وقَّاص -رضى الله عنه- أنه قال للرسول ﷺ: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال له ﷺ: **«يا سعد أطبْ طعامك تكن مستجاب الدعوة»** (رواه الترمذى فى كتاب المناقب).

٢- عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ سُئل عن البحر ومائه، فقال: **«هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميّتته»** (رواه مالك فى الموطأ والترمذى والنسائى).

٣- عن عدى بن حاتم أنه قال لرسول الله ﷺ: إنى أرسل الكلاب المعلَّمة فيمسكن علىَّ

وأذكر اسم الله عليها فهل يحل ما تصيده، فقال الرسول : «**إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكُل ما أمسك عليك**» (رواه البخاري ومسلم في كتاب الصيد والذبائح).

٤- بلغ رسول الله ﷺ أن ثلاثة من أصحابه تنافسوا في الزهد فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل ابداً، وقال الثاني : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فبعث إليهم الرسول، وقال: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ألا إني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» (رواه البخاري ومسلم).

والآية الأولى تؤكد أن الله أحلَّ للناس كل ما في الأرض من الطيبات، والطيب هو ما تستطيبه النفوس من الأطعمة، لما تجد فيه من اللذة، ولأنها لا تجد فيه أي ضرر، وكأن قاعدة الحلال في الطعام الطيب أنه لا يصيب طاعمه بأي ضرر، بخلاف الحرام فإنه يكون عادة ضاراً بالإنسان. والحلال هو الأصل في الأطعمة وكان بعض فقهاء القرن الأول الهجري يتحرج في الحكم على الشيء أو الطعام بأنه حلال أو حرام، كما روى عن النخعي المتوفى بأخرة من هذا القرن. إذ كان يكتفي بقوله: هذا كان يستحسنه الصحابة، وذاك كانوا يكرهونه. وكان عبد الله بن شبرمة في النصف الأول من القرن الثاني لا يحكم على شيء أو طعام حكماً قاطعاً. إلا أنه إذا كان حلالاً يقول: إنه حلال وليس بحرام، وكان لا يحكم على الشيء أو طعام بأنه حرام إلا إذا ثبت ذلك عنه في الأحاديث الصحيحة. ومن المأثور عن سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ للهجرة أنه كان يقول عن الحلال والحرام: «إن العلم هو أن تحلِّل الأمر أخذاً من الأصول، فإن التضييق سهل لكل أحد». والفقيه الحق في رأيه هو الذي يحلِّل للناس الأمر أخذاً من الأصول وييسر عليهم، لا الذي يحرم. واستقر بين الفقهاء قانون عام هو أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة وأنه إذا تردد الفقيه بين الإباحة والتحريم في شيء أو طعام غُلِّبت الإباحة ما دام لا يوجد فيه نصب بالتحريم. وإذن يكون الطعام طيبًا حلالاً، ويقول الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص حين سأله في الحديث الأول أن يدعو

الله له أن يكون مستجاب الدعوة، فقال له: «يا سعد أطبْ طعامك تكن مستجاب الدعوة».

والآية الثانية تذكر المحرمات من الأطعمة، وهى الميتة من الحيوانات حتف أنفها دون ذبح أو صيد لما فيها من الضرر الشديد والدم المحتقن، ويستثنى منها السمك فإنه طعام حلال سواء مات بإعمال سكين فيه أو غيرها أو مات حتف أنفه لقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ ويقول الرسول ﷺ حين سئل عن البحر ومائه إنه الطهور ماؤه الحل ميتته. ﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح أى السائل، وفى الحديث: «أحلّت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال». ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ إنسيُّه ووحشيُّه. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى ما ذُبح وذُكر عليه اسمُ غير الله من آلهة الوثنيين، وفى سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ واختلف الفقهاء فقال بعضهم: إنه نهى واجب فلا تحل الذبيحة إذا لم يذكر اسم الله عليها، وقال بعضهم: إن التسمية لا تشترط بل هى مستحبة فقط، فإن تركت لا يضر لما روى من أن رسول الله ﷺ قال: «ذبيحة المسلم حلال ذكر الله، أو لم يذكر» ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التى تموت بالخنق. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التى تضرب بشىء ثقيل حتى تموت.

●●●

الزانى

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥، ١٦].

٢- ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢].

٣- ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

٤- ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣].

الأحاديث:

١- عن أبى إمامة أنَّ شابًا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذَن لى بالزِّنى، فأقبل الصحابة عليه يزجرونه قائلين: مه مَهْ أى كُفَّ كُفَّ فقال الرسول ﷺ: أدنوه منى، فدنا منه قريبًا فقال ﷺ له: اجلس، فجلس، فقال له **أتحبه لأمك؟! قال لا والله،** جعلنى الله فداك، قال الرسول ﷺ؛ **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم،** وقال الرسول ﷺ: **أتحبه لابنتك؟** قال: لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك، قال الرسول ﷺ: **ولا الناس يحبونه لبناتهم،** قال الرسول ﷺ: **أفتحبه لأختك؟ قال لا والله جعلنى الله** فداك، قال الرسول ﷺ: **ولا الناس يحبونه لأخواتهم،** قال الرسول ﷺ: **أفتحبه لعمتك،** قال: لا والله جعلنى الله فداك، قال الرسول ﷺ: **ولا الناس يحبونه**

لعماتهم، قال الرسول ﷺ: **أفتحبه لخالتك؟** قال: لا والله جعلني الله فداك، قال الرسول ﷺ: **ولا الناس يحبونه لخالاتهم.** فوضع الرسول ﷺ يده عليه وقال: **اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحْصِنْ فرجه»** (رواه ابن حنبل في مسنده).

٢- عن الهيثم بن مالك الطائي قال قال الرسول ﷺ: **«ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»** (رواه ابن كثير في تفسير الآية الثانية، والسيوطي في الجامع الصغير).

٣- عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: **«خُذوا عني خُذوا عني: قد جعل الله لهن سبيلاً** (يشير إلى آية سورة النساء المذكورة) **البِكر بالبِكر جلد مائة وتغريب عام، والثَّيب جلد مائة والرَّجم»** (رواه مسلم في كتاب الحدود).

٤- عن بريدة أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهِّرني، فردَّه. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال.

●●●

الربا

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٢- ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٤- ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩].

الأحاديث:

١- حديث مأخوذ من خطبة حجة الوداع وفيها قال رسول الله ﷺ: «**ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله**».

٢- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات أى المهلكات، وعدَّ من بينهن أكل الربا**» (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٣- عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ لعن آكلَ الربا وموكله (رواه مسلم والترمذى وزاد: وشاهديه وكاتبه).

٤- عن الحسن بن على -رضى الله عنهما- قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دَع ما يَريبُك إلى ما لا يريبك**» (رواه الترمذى).

والآية الأولى تتحدث عن أكلة الربا أى المنتفعين به، والربا: كل قرض يؤخذ به أكثر منه، وأصل معناه اللغوى الزيادة وفى الشرع الزيادة فى القرض، كأن يقترض المقترض عشرة دنانير بشرط أن يردها بعد مدة ثلاثة عشر ديناراً، وهو محرم شرعًا،

لأنه يقتضى أخذ مال المقترض بغير عوض يعطيه له صاحب المال، ولأنه يفضى إلى انقطاع المعروف بين أفراد الأمة الذى عملت الشريعة على قيامه بحيث يكون المسلمون إخوة متعاطفين. وشرعت لذلك مدَّ المحتاجين بأموال الأغنياء عن طريق ما يقدمونه من الزكاة والصدقة لا عن طريق الربا وابتزاز الأغنياء فى الأمة لأموال المحتاجين وأخذها دون أى مقابل. وعلة ثانية هى أن صاحب المال إذا تعود الكسب عن طريق الربا لا يحاول أن يوظف ماله فى عمل تجارى أو صناعى، وبذلك يعطل انتفاع الأمة وأفرادها بماله عن طريق استثماره فى الأعمال المختلفة. وعلة ثالثة هى أن الغالب فى صاحب المال أن يكون غنيًا، وفى المقترض أن يكون فقيراً محتاجًا، فلو أصبح الربا مباحًا لاستغلَّ ذلك أصحاب المال وأصبحوا مسيطرين على شطر من الأمة، وزادوه فقراً على فقر وضعفًا على ضعف بما يسلبون من أمواله. ويقول الله: إن أكلة الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا قيامًا مماثلاً لقيام من يتخبطه الشيطان أى يصرعه ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أى الجنون أى كقيام المجنون المصاب بالفزع، وذلك مقدمة العذاب الذى سينزل بهم يوم القيامة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ﴾ كأنهم يقولون إن البيع فى التجارات فيه الربح الزائد على ثمن السلعة، فلماذا الزيادة فى عروض التجارة حلال، وهى حرام فى الربا، وفاتهم أن الزيادة فى التجارة إنما هى لجلب السلعة وعرضها على المشترين فلها مقابل. بينما فى الربا لا مقابل لها ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أى أحلَّ الله الأرباح فى التجارة بالبيع.

●●●

الخمر -الميسر

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

٣- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

٤- ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله حرَّم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام»** (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٢- عن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال قال رسول الله ﷺ: **«لُعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها»** (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٣- عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«لا يشرب (أحد) الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** (رواه مسلم أثناء حديث فى كتاب الإيمان).

٤- عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة مدمن خمر»** (رواه ابن حنبل فى مسنده والنسائى).

والآية الأولى تصف الخمر والميسر أى القمار بأن فيهما إثمًا كبيرًا ومنافع للناس، والخمر: كل شراب مسكر سواء كان عصير عنب أو ماء نُبذ فيه زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك مما يسمى بالنبيذ. وقيل: إن السائلين عن حكم الخمر فى الآية هم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ: فقالوا يا رسول الله أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية فى وصف الخمر وأن فيَها إثمًا كبيرًا أى معصية كبيرة لا ترضى الله، وفيها منافع هى منافع التجارة والربح المالى منها، وكانت تتجر فيها اليمن والطائف، وأيضًا ربما كانت فيها منافع من المتاع بها واللذة. والميسر: قمار كان يلهو به العرب فى الجاهلية، وكانوا يتخذون فيه عشرة قداح جمع قدْح بكسر القاف، وهو سهم من شجر النبع الذى كانوا يتخذون القسىَّ والسهام منه، ولَيس فى رأسه سنان، وسموا القداح العشرة: الفذَّ والتوءم، والرقيب، والحلْس بكسر الحاء، والنافس، والمسبل، والمعلَّى، والسَّفيح، والمنيح، والوَغْد. والسبعة الأول تربح فلها حظوظ بترتيبها، والثلاثة الأخيرة لا تربح فليس لها حظوظ، وتسمَّى أغفالاً جمع غفل أى ليس له علامة، أما السبعة الرابحة فلها علامة توضع فى أسفل كل منها. وإذا أرادو المقامرة اشتروا جَزورًا وأجَّلوا ثمنه إلى ما بعدها ويجعلونه عشرة أجزاء بعدد القداح، ويضعون القداح فى كيس من جلد يسمى الرِّبابة، وله مخرج ضيق يخرج منه قدحان، ووكلوا به رجلاً يسمونه الحُرُضة، ووراءه رقيب يأمره بابتداء الميسر قائلاً: جَلْجل القداح أى حركْها، ويخرج قدح باسم مقامر، وإن كان رابحًا أُعطى لصاحبه، وتعاد الإجالة، ومن خرجت لهم القداح الأغفال يدفعون ثمن الجزور. وإثم الميسر من إضاعة الوقت وما يحدثه من العداوة والبغضاء بين المتقامرين والبعد عن ذكر الله وعن الصلاة.

●●●

الظلم

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥].

٢- ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٣- ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣].

٤- ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ [غافر: ١٨].

الأحاديث:

١- عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه حديثًا قدسيًا قال: **«يا عبادى إنى حرَّمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تظالموا»** (رواه مسلم فى كتاب البر).

٢- عن أبي موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته»**. وقرأ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾. (رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة).

٣- عن أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ظَلَم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة»** (رواه البخارى فى المظالم).

٤- عن معاذ -رضى الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ: **«اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»** (رواه البخارى فى كتابى الزكاة والتوحيد، ورواه ومسلم فى كتاب الإيمان).

وآية سورة المائدة الأولى نزلت تأييدًا للقصاص الذى حكم به الرسول لليهود حين

استفتوه فى قتلهم لشخص فرفعوا الأمر إليه آملين أن يحكم بأخذ دية فحكم بالقصاص وهو نفس حكم التوراة، والله -لذلك- يقول لهم: إن من لا يحكم بما أنزل الله فى التوراة من القصاص فإنه يعد فى الظالمين، إذ ظلم أهل القتيل بدون أن ينالوا من القتيل جزاء عدوانه الآثم. وقد شرع القصاص لحكم عظيمة، حتى يزدجر الناس ولا يرتكبوا هذا العمل الوحشى، وحتى لا يتمادوا فى أن يسفك بعضهم دماء بعض، وحتى لا يقتل بالقاتل إلا قاتله، وحتى لا يترصد أهل القتيل قريبًا من عشيرة القاتل أو أسرته فيقتلوه به؛ ولذلك يقول الله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وبذلك كان مَنْع اليهود لعقوبة القصاص المذكورة عندهم فى التوراة ظلم شنيع، إلا أن يعفو أهل القتيل فيكون ذلك عن طيب نفس منهم وتراض بينهم. وليس معنى ذلك إلغاء القصاص ولا الاستخفاف به فإن من يستخف به أو يلغيه يكون ظالمًا أقبح الظلم.

ويقول الله لرسوله ﷺ فى الآية الثانية: لا تحسبنَّ أن الله إذا أجَّل الظالمين فلم يعاقبهم توًا فى الدنيا أنه غافل عنهم مهمل لهم ولن يعاقبهم على ظلمهم. والظلم فى الآية يشمل ظلم الله بالكفر وظلم الناس بالعدوان عليهم وسلب حقوقهم، ويقول الله فى الحديث القدسىّ الأول: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا». ومن أسوأ صور الظلم ظلم الأقارب، وظلم الضعفاء، وعقابه شديد، فإن صاحبه يحرم من نعيم الجنة ويقذف به فى عذاب الجحيم، ويقول الله فى بقية الآية الثانية عن الظالمين وتأجيله لهم العذاب: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ من شدة الخوف والفزع فلا تطرف لهم عين، وهو يوم القيامة، والظالمون فيه يُرَوْنَ- كما يقول الله عقب الآية.

●●●

الكبر - العُجْبُ

القرآن الكريم:

قال تعالى:

١ - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

٢ - ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١].

٣ - ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢].

٤ - ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ **فى حديث قدسى: قال الله عزَّ وجل: العز إزارى والكبرياء ردائى، فمن ينازعنى عذبته»** (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة).

٢ - عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كبر»** (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٣ - عن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء»** (رواه البخارى ومسلم).

٤ - عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطرًا»** (رواه البخارى ومسلم).

والله فى الآية الأولى يأمر الملائكة بالسجود لآدم لفضله عليهم بالعلم كما أشار إلى ذلك قبل هذه الآية، فأذعنوا لأمره وسجدوا له ما عدا إبليس أبا الشياطين، كما أن آدم

أبو الناس جميعًا. وأبى إبليس وامتنع أن يسجد لآدم ﴿ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى ازداد فى كبره معتقدًا أنه خير منه كما قال فى سورة الأعراف لربه: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ وصار إبليس بذلك من الكافرين لاستكباره عن القيام بما أمره الله. ويقول الله فى الحديث القدسى الأول: إن العز والكبرياء أى العظمة مختصان بى لا يشاركنى فيهما غيرى كما لا يشارك أحد شخصًا فى إزاره وهو ما يلبسه الشخص من وسطه إلى قدميه ولا فى ردائه الذى يغطى جسده جميعه. ويقول الله فيمن ادعاهما: فمن ينازعنى ويخاصمنى فيهما صار كافرًا وعذبته. والله فى الآية الثانية يصف فى سورة الفرقان من طلبوا من الرسول ﷺ من مشركى قريش رؤية الله أو إنزال الملائكة بأنهم استكبروا فى أنفسهم وتعالوا عن الاستجابة إلى رسول الله ﷺ وطغوا طغيانًا كبيرًا. والاستكبار: المبالغة فى الكبر والتمادى فيه، وهو شعور ذميم بالاستعلاء على الناس. والمتكبر لا يصغى إلى الحق، بل يركب رأسه ولا يقبل نصحًا ولا إرشادًا، ويروى أن أحد المتكبرين فى الزمن الماضى رآه الناس يجلس فى حلقة مقرئ يقرأ بعض آيات الذكر الحكيم، ولما فرغ المقرئ من قراءته فوجئ مَنْ كانوا فى الحلقة بقوله لهم: أتعرفون لمَ جلستُ إليكم؟ قالوا: جلست لتسمع بعض كلام الله. فقال لهم: لا، إنما أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم. ومثل هذا المتكبر لا يرجى منه خير ولا ينفع فيه لوم، وعلى شاكلته كفار قريش الذين كان يعرض عليهم آيات الله رسولُهُ ﷺ محاولاً بكل ما يستطيع أن يهديهم وينقلهم من ظلمات الوثنية والضلال إلى نور التوحيد لله وهداه، فيصموا آذانهم استكبارًا واستعلاء. وفيهم وفى أمثالهم من المتكبرين المتغطرسين على الناس الذين ينزلون أنفسهم منهم منازل عليا يقول رسول الله ﷺ الحديث الثانى، وهو أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، ويقول رب العزة كما فى الآية الثالثة للمتكبرين: ادخلوا

●●●

شهادة الزور

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

٣- ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

٤- ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

الأحاديث:

١- عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا: يا رسول الله بَلَى قال: **الإشراكُ بالله وعقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس، فقال ﷺ: **ألا وشهادة الزور** وما زال يكررها مرارًا» (رواه البخارى فى الشهادة وفى مواضع مختلفة).

٢- عن أنس ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، فقال ﷺ **الشرك بالله، وقتل النَّفْس، وعقوق الوالدين**. ثم قال ﷺ: **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قال ﷺ: **شهادة الزور**» (رواه مسلم فى كتاب الإيمان).

٣- عن خريم بن فاتك الأسدى قال: صَلَّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، **فلما انصرف** منها (أى قضاها) قام قائمًا فقال: **عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عزَّ وجل ثم تلا** آية سورة الحج المذكورة (رواه ابن حنبل فى مسنده).

٤- عن زيد بن خالد الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها**» (رواه مسلم فى كتاب الأقضية).

والله -جَلَّ شأنه- فى الآية الأولى ينهى عن كتمان الشهادة بعد قوله فى الآية الأولى ينهى عن كتمان الشهادة بعد قوله فى الآية قبلها: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾. لتحمل الشهادة، فيحضرون للنطق بها وإعلانها إحقاقًا للحق، ويجب عليهم أن لا يكتموها ولا يخفوها بقول كلام مبهم، وزيادة فى التحذير من كتمانها، يقول الله: ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ أى يكون مذنبًا ذنبًا كبيرًا.

ويأمر الله فى الآية الثانية المؤمنين بأن يلتزموا بالقسم أى العدل فى جميع أحوالهم وأمورهم ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ أى تشهدون الشهادة العامة له الصادقة ابتغاء وجه الله بحيث لا يخالطها تبديل ولا تحريف وكتمان ﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى تشهدون الحق ولو عاد منه ضرر عليكم فإن الله سيجعل لكم فرجًا من كل ضيق، وبالمثل لو عاد منه ضرر على الوالدين والأقربين. وكان العرب فى الجاهلية يجعلون من الحقوق عليهم الانتصار لآبائهم وأقربائهم فأبطلت الآية هذه العصبية، وأوجبت على المسلم أن ينتصر للحق ولو كان فيه ضرر أو أذى لأبويه وأقاربه. ويقول الله: إن كان المشهود له غنيًا أو فقيرًا فلا تشهدوا لهما إلا بالحق ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ منكم وأعلم بما فيه صلاح شأنهما. ويقول: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أى فلا تتبعوا الهوى والعصبية لأنفسكم وآبائكم وعشائركم لتعدلوا وتأخذوا أنفسكم بالعدل الذى

؟؟؟

●●●

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، **«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»** (رواه أبو داود فى سننه).

٢- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانًا»** (رواه مالك فى الموطأ وابن حنبل فى مسنده والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى).

٣- عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه الله على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها»** (رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين).

٤- عن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو يتصدقُ به آناءَ الليل وآناء النهار»** (رواه مسلم مع الحديث السابق فى كتاب صلاة المسافرين).

الآية الأولى نزلت فى اليهود، وهى تسجل عليهم ذمَّ ما صنعوه واعتقدوه من أنهم اشتروا أنفسهم أى ابتاعوها بكفرهم بمحمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، طلبًا للدنيا وإبقاء على ما لهم فيها من الجاه، وبئس هذا العرض إذ كفروا بالقرآن والإيمان بمحمد ﷺ مؤثرين المتاع الدنيوى على ما عند الله من النعيم الأخروى، ويقول الله: إنهم اختاروا ذلك ﴿**بَغْيًا**﴾ وظلمًا وحسدًا ذميمًا ﴿**أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ رسالته ﴿**عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ غير اليهود، وكانوا يزعمون أنهم المخصوصون بالنبوة دون العرب وغيرهم من الشعوب، والله يرد عليهم بأن النبوة فضل ونعمة يسبغها على من يشاء من عباده ﴿**فَبَاءُو بِغَضَبٍ**﴾ من الله ﴿**عَلَىٰ غَضَبٍ**﴾ والغضب الأول لكفرهم بعيسى وما أرسل به من الإنجيل، وقيل: بل عبادتهم للعجل، وهو عجل أبيس الذى كانوا يعبدونه فى مصر مع المصريين كما قلت فى تفسير آيته بسورة البقرة. والغضب الثانى لكفرهم

برسولنا ﷺ وكتابه كما سجلت ذلك عليهم الآية، ويتوعدهم الله بعذاب مهين أشد الهوان.

وتسجل الآية الثانية على أهل الكتاب وخاصة من اليهود أن كثيرين منهم يتمنون لو رجع المسلمون بعد إيمانهم كفاراً كما كانوا فى الجاهلية يعبدون الأوثان ويشركون بالله ﴿حسداً﴾ للمسلمين على اعتناقهم للدين الحنيف. وهو حسد متأصل فى ذات أنفسهم مستقر فيها استقراراً شديداً، ويقال: إن الآية نزلت فى حُيَىّ بن أخطب وأخيه أبى ياسر اليهوديين، وكانا من أشد اليهود عداوة للرسول ﷺ وحسداً على ما أنزل الله عليه من نعمة رسالته العظيمة، وكانا يحاولان بكل ما يستطيعان رد الناس عن الإسلام فنزلت الآية فيهما وفى أضرابهما، ناعية عليهم حسدهم للرسول ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ وأن رسالة محمد ﷺ صادقة كل الصدق لما تقوم عليه من التوحيد الإلهى والإيمان بالأنبياء والرسل. ويمكن أن يكون المراد بالحق ما وجدوه عندهم مكتوباً فى التوراة -ومثله فى الإنجيل- عن محمد ﷺ ودينه الحنيف، غير أنهم صَمُّوا آذانهم وكفروا به حسداً وبغياً.

والآية الثالثة نزلت -بالمثل- فى أهل الكتاب وخاصة اليهود منكرة عليهم حسدهم الناس على ما رزقهم الله من فضله. ويمكن أن يكون المراد بالناس الرسول ﷺ وحسدهم له لما منّ الله عليه من النبوة العظيمة، ويمكن أن يكون المراد بالناس المؤمنين يحسدونهم لما منّ الله عليهم من الهدى والإيمان برسوله ﷺ ورسالته وقرآنه العظيم. والحسد: تمنى زوال النعم عن صاحبها، سواء كانت نعمة دنيا ومال أو كانت نعمة دين وصلاح، ويقول عمر بن الخطاب: ما من أحد عنده نعمة إلا وجدت له حاسداً. والحسد خصلة ذميمة من الكبائر العظمى، لا لما ينطوى عليه من إرادة زوال النعمة عن صاحبها فحسب، بل أيضًا لأنه غضب على قضاء الله وقسمته للنعم والأرزاق بين عباده. ولكل نار ما يطفئها إلا نار الحسد، فإن شيئًا لا يطفئها. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ومنه يتولد الحقد على الناس وما أنعم الله به عليهم، والحقد أصل كل شر.

والحسد أول ذنب عُصى الله به فى السماء، وأول ذنب عُصى الله به فى الأرض. أما فى السماء فلأن الله لما علَّم آدم الأسماء كما فى سورة البقرة ولم يعلمها الملائكة قال لهم تكريمًا لعلمه: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ وكأنه فَضَّله عليهم بسبب علمه، فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى واستكبر، ولما راجعه رب العزة عن سبب امتناعه من السجود لآدم قال: كما فى سورتى الأعراف وص: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. وهو حسد منه لآدم: أن يسجد له، وعاقبه الله عقابًا أليمًا إذ طرده من الجنة والملأ الأعلى مذمومًا مدحورًا. ولعنه هو وذريته من الشياطين وتوعده هو وأتباعه ليملأنَّ جهنم منهم أجمعين. أما أول ذنب عُصى الله به فى الأرض فذنب قابيل أخى هابيل ابنى آدم، وكان قابيل -كما تقول التوراة- فلاحًا يزرع الأرض، وكان هابيل راعيًا لغنم، وقرَّب كل منهما لله قُرْبانًا، أما قابيل فمن ثمار زرعه، وأما هابيل فقرَّب من غنمه، فتقبَّل الله- كما فى سورة المائدة- قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل لأنه كانت له خطيئات، فجعله ذلك يحسد أخاه هابيل لتقبل الله قرْبانه، وقال لأخيه هابيل: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له: (إنما يتقبَّل الله من المتقين) الذين لا يقترفون خطيئات ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أن ينتقم منى إن أنا ارتكبت هذا الذنب الكبير، وقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ فتردَّد قابيل بين خوفه من ربِّه وقتله لأخيه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أى سولَّت وحسَّنت ﴿قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فى الدنيا والآخرة.

ويعلِّم الله رسوله ﷺ فى الآيات الأخيرة أن يتعوذ به من المخلوقات الشريرة قائلاً له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى الصبح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من السباع والهوام وكل ما يحدث شرًا من الناس وغير الناس ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وكان الرسول ﷺ يوصى الصحابة دائمًا كما جاء فى الحديث الثانى بأن لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا ولا يتنافروا ولا يتقاطعوا؛ إذ هم أخوة وينبغى أن يسود دائمًا بينهم الإخاء والود الصادق. ويطلب الله فى الآية من رسوله ﷺ والمسلمين أن يتعوَّذوا من شر الحاسد لا لإضرار حسده بهم، وإنما لما فيه من شر كامن منطوٍ عليه. والحسد غير الغبطة، إذ هى تمنى المرء

أن يكون له من النعمة مثل من يغبطه دون أن يتمنى زوالها عنه، وهى المقصودة فى الحديثين الثالث والرابع، وكأن الرسول ﷺ قال فى الحديث الثالث: لا غبطة إلا فى خصلتين: إنفاق رجل ثرى لماله فى الحق، وحكمة أو حصافة عن علم وتفقه فهو يعلِّمها ويقضى بها. وكأنه قال ﷺ فى الحديث الرابع، لا غبطة إلا فى خصلتين: تلاوة الرجل القرآن فى ساعات الليل والنهار، وثراء يجعل صاحبه يتصدق بماله ليلاً ونهاراً.

●●●

الكذب

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

٢- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢١].

٣- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [المائدة: ١٠].

٤- ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

الأحاديث:

١- عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفرَى الفِرَى أنْ يُرِىَ الرجل عينيْه ما لم ترياه»** (رواه البخارى).

٢- عن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»** (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب).

٣- وعن ابن مسعود قال قال: رسول الله ﷺ: **«أعظم الخطايا اللسان الكذوب»** (رواه ابن كثير فى تفسيره).

٤- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **من تعمّد علىّ كذبًا فليتبوأ مقعده من النار** (رواه البخارى فى كتاب العلم).

الله -جَلَّ وعزَّ- في الآية الأولى يحذِّر الكفار من أن يتقوَّلوا عليه ما لم يقله، إنهم يحللون ما يريدون ويحرِّمون ما يشاءون ناسبين ذلك إلى الله كذبًا، ويقول: إنهم لا يفلحون، ومن يفلح منهم فإنه متاع قليل مؤقت في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم. ويقول الرسول: إن أفْرَى الفرَى أي أكذب الكليات وأسوأها أن يحدِّث الرجل عن شيء كذبًا، ويقول: إنه رآه بعينيه وهو لم يره، ومثله يكون له عادة حتى ليقول: أبصرت كذا أو سمعت كذا وهو لم يسمعه ولم يبصره. ومن اعتاد الكذب أصبح الصدق عليه صعبًا عسيرًا حتى لو أراده لم يستطع، وحتى لكأنما يصبح الكذب الذي تعود عليه طبعًا له، فكلما حدَّث كذب، مما يصغر قدره عند الناس. وقد يؤول به الكذب أنه لوحدَّثهم بخير صادق لم يصدقوه واتهموه، وبذلك لا يكون له عند إخوانه حديث مصدَّق. وينبغي أن يكون الإنسان دائمًا صادقًا في قوله حتى يأنس إخوانه لما يسمعونه منه ويصدقونه؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ في بعض حديثه: «**تجنَّبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة**» ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن يَضَعني الصدق خير إليَّ من أن يرفعني الكذب» وهما ينهيان عن الكذب حتى لو جَرَّ مغنمًا أو نفعًا. ومن أسوأ صور الكذب ما يسوقه شخص عن عدوٍّ له بغرض التشفي منه، فينسب إليه قبائح هو برئ منها ظانًا أن في ذلك خيرًا له، والشر لا يأتي بخير.

ويقول الله -تقدس اسمه- في الآية الثانية: إن أظلم ما يفتريه المشركون على الله أكاذيب الشرك به وكل ما يتصل بعقيدتهم الوثنية من آلهة وشعائر، فقد بلغوا في ذلك غاية الظلم لربهم، كما بلغوا في تكذيبهم لرسوله ﷺ وما جاء به من آيات الهدى القرآنية، وسجل الله عليهم أنهم لا يفلحون في الدنيا إذ خسروا فيها الإيمان به وبرسوله ﷺ، ولا يفلحون في الآخرة لما ينالهم من عذاب النار ويقول الله -عزَّ سلطانه- في الآية الثالثة: إن الكافرين المكذبين لآيات القرآن هم أحق العاصين بالجحيم، ويحذر الرسول ﷺ في الحديث الثاني من الكذب وسوء عاقبته، فإن الكذب يوصِّل إلى الفجور والمراد به في الحديث الأعمال السيئة. ويقول: إن الفجور يوصل

صاحبه إلى النار والعذاب الأليم، ويقول: إن الرجل ما يزال يكذب حتى يصبح الكذب له عادة ويكتب عند الله كذابًا، وتسقط عند الناس منزلته.

ويتوعد الله فى الآية الرابعة الذين يردِّدون تكاذيب الشرك وأباطيله باسوداد وجوههم يوم القيامة، وهو إما اسوداد حقيقى وإما كناية عن أنهم يستشعرون حينئذ الغم والكآبة والحسرة كما جاء فى سورة آل عمران: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ والابيضاض لوجوه المؤمنين إما حقيقة، وإما كناية عن نضرتها واستبشارها، كما قال الله فى وصفها يوم القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾. وكما يتَّسم وجه الكذاب فى الآخرة بالكآبة والغمّ يتسم فى الدنيا بالريبة فى كلامه؛ ولذلك قالو: لوجوه مَرايا تريك أسرار السرايا. وخطأ جسيم أن يعوِّد شخص لسانه الكذب؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ حديثه الثالث: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب»، ويبدو أنه حدث فى زمن الرسول ﷺ أن بعض الأشخاص نقل عنه كلامًا لم يصدق فيه، وآذاه ذلك، فقال حديثه الرابع المشهور: «من تعمَّد علىَّ كذبًا فَلْيتبوأْ مقعده من النار». وهو بذلك يتوعد من يكذبون عليه فى مسائل الدين بنسبة أحاديث مكذوبة إليهم، ويقول: إن الله سيجزيهم بعذاب أليم فى الجحيم. ويروى بعض المحدثين أن الرسول ﷺ رخَّص فى الكذب لضرورة، إذ رُوى عنه أنه قال: لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع: الحرب فإنها خدعة، والصلح بين اثنين، والرجل يُرْضى زوجته. والكذب على العدو فى الحرب جائز لأنها كما قال الرسول ﷺ خدعة. ولعل الرسول ﷺ لا يريد إباحة الكذب الصريح، إنما يريد المعاريض، ومن ذلك ما يروى من أن أبا بكر الصديق -رضى الله عنه- كان يسير خلف الرسول ﷺ فى الهجرة فتعرَّض له بعض من يعرفونه من العرب وسألوه: مَنْ معك؟ فقال: هاد يهدينى السبيل، فانصرفوا يظنون أنه دليل يرشده إلى الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الهدى والرشاد، فصدق فى قوله. ويروى عن الرسول ﷺ قوله: «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب». والكذب عامة من أقبح الخصال وأسوئها، ولا

يصدر إلا عن مهانة نفس، ويروى عن الرسول ﷺ أنه سُئل: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال ﷺ: نعم. فقال السائل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال ﷺ: نعم. فقال السائل: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال ﷺ: لا. وناهيك بهذه الإجابة محذرة منه ومن شره، ودافعة لنا أن نحذِّر أبناءنا منه، وأن نحثهم على أن يكون دائمًا الصدق دَيدَنهم مهما كلفهم، ويؤثر عن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد قوله في ذمه: إن صاحبه لا يستطيع خلاصًا من آفته ولا بُرْءًا من دائه، ورأينا شارب الخمر المدمن ينزع عنها، واللص السارق يقلع عن سرقته، وصاحب الكبائر من الذنوب يرجع عنها، ولم نر كذابًا تخلَّى عن كذبه وصار صادقًا.

●●●

اليمين الكاذبة- العفو عن اللغو فى اليمين

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

٢ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٣- ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩].

٤ - ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [المجادلة: ١٦].

الأحاديث:

١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « **الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس أى الكاذبة** » (رواه البخارى وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى).

٢- عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: « **من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك** » (رواه البخارى فى الأيمان والنذور، وابن حنبل فى مسنده).

٣- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه، وليفعل الذى هو خير** » (رواه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور، ومسلم فى كتاب الأيمان، وابن حنبل فى مسنده والترمذى).

٤- عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: أنزلت آية سورة المائدة ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فى قول الرجل: لا والله، وبلى والله (رواه البخارى فى تفسير السورة).

والآية الأولى تنهى المؤمنين أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم، واليمين مؤنثة، وهى الحلف وجمعها أيمان، ومعنى عرضة: حاجز، أى لا تجعلوا اسم الله فى أيمانكم حاجزًا أو مانعًا من أن تقدِّموا برًا، فتحلفوا أنكم لا تأتونه. ويمكن أن تكون عرضة بمعنى معرَّضًا أى لا تجعلوا الحلف بالله معرضًا لمنع فعل بر أو خير. والآية -بذلك- تنهى عن الإسراع فى حلف من شأنه أن يمنع برًا أو خيرًا أو طاعة لله حتى لا يتعرَّض الحالف -إذا راجع نفسه- إلى الحنْث فى يمينه. ويقول الله تعالى فى سورة النور: ﴿وَلا يَأْتَلِ﴾ أى ولا يحلف ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ فى المال ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أى لا يَصلُوا ﴿أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ إن أداهمَ إلى هذا الحلف عمل لهم غير صالح أو إساءة وأذى. وهو غاية الترفق والعطف على من ذكرهم بهذه الآية، وفى الوقت نفسه نهى واضح للمؤمن أن يجعل اليمين بالله عرضة لأن يمسك عن فعل خير. وأسوأ من ذلك أن يحلف الكاذب على فعل شىء لم يفعله بأنه فعله أو يحلف على قول له كاذب بأنه صادق، وأشد من ذلك كله سوءًا حلفه على شهادة زور بأنه صادق وخاصة ما يتصل بالأعراض والأموال. وجعل الرسول ﷺ فى الحديث الأول اليمينَ غموسًا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ويريد بها اليمين التى يقتطع بها الحالف مال امرئ مسلم من أرض أو غير أرض، وسوى بينها فى الإثم وبين الشرك بالله وقتل النفس تعظيمًا لإثمها وحرمته.

والآية الثانية نزلت فى يهود المدينة بدليل ما نعتَهم الله به فى سورة البقرة من مثل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وعهد الله فى الآية هو عهد موسى لهم فى التوراة بأن يعملوا بها، وخالفوها، ويمكن أن تكون الآية عامة لليهود ومن يصنع صنيعهم من المسلمين مخالفين عهدهم لله بالأمانة وما عاهدهم عليه الرسول ﷺ، من عدم التعلق بالمتاع الدنيوى وأن لا يحلفوا كذبًا بأثمان زهيدة، فهؤلاء اليهود ومن يتشبه

بهم ﴿لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أى لا نصيب لهم فيها ولا حظ منها. وفى صحيح مسلم وكتب السنن عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، وعدَّ بينهم المنفق سلعته بالحلف الكاذب، وفى مسند ابن حنبل عن عدى بن عميرة الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حلف بيمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقى الله -عزَّ وجَلَّ- وهو عليه غضبان**». وفى صحيح مسلم عن إياس بن ثعلبة الحارثى قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمين فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة**».

واليمين إنما يكون برب العزة -جَلَّ جلاله- وقد نهى الرسول ﷺ عن الحلف بغير الله وعظَّم ذلك فى الحديث الثانى، فقال: «**إن من حلف بغيره فقد كفر أو أشرك**»، ولعله يقصد ما كان العرب يحلفون به قبل إسلامهم من اللات والعزى فإن ذلك يعد ارتداداً عن الدين وكفراً وشركًا بالله. وفى الحديث أن الرسول ﷺ نهى عن الحلف بالآباء وهو ليس نهى تحريم إنما هو نهى كراهة كما ذهب إلى ذلك المالكية والشافعية، والعامة فى مصر يكثرون من الحلف بحياة الأب وبتربته أو قبره، وهو مكروه، وبالمثل كل حلف بغير الله. وفتح الرسول ﷺ الباب للحالف على فعل شيء لكى يمضى فى تصميمه أو يعدل نهائيًا، ويكفر عنه إذا حنث على نحو ما يوضح ذلك الحديث الثالث، وأن واجب المقسم بربه إن كان المحلوف عليه هو الخير أن يحنث فى يمينه ويأتيه مكفراً عنه.

والله-تبارك اسمه- فى الآية الثالثة لا يؤاخذ الحالف باللغو فى يمينه، بل يعفو عنه، وقيل: هو اليمين فى الهزل، وقيل: فى الغضب، وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والملبس والمشرب مستدلين بقوله تعالى: ﴿**لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**﴾. والصحيح أن اللغو فى اليمين هو اليمين الذى يقوله الشخص دون نية وقصد، وقد فسرته السيدة عائشة فى الحديث الرابع بأنه مثل قول الرجل: لا والله وبلى والله من غير قصد لتحقيق اليمين. إنما الذى يؤاخذ به الشخص ما عقد ووثق به اليمين من النية والقصد كما قال الله فى آية سورة البقرة: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾.

ويقول الله -جَلَّ شأنه فى الآية- إن كفارة اليمين التى صممتم عليها وقصدتموها

إطعام عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى مما تطعمون منه أهلكم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ من إزار أو عباءة أو ثوب ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وقد بطل تحرير الرقاب أو العبيد، فالكفارة إذن بالاختيار بين الإطعام لعشرة مساكين أو كسوتهم ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ عنده ما يطعم به عشرة مساكين أو يكسوهم ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: متتابعات، وقيل: يجوز أن تكون متفرقة. وتلك هى كفارة اليمين الشرعية، وينبغى أن لا تترك بدون تكفير.

والآية الرابعة فى المنافقين الذين يوالون المسلمين فى الظاهر ويهود المدينة فى الباطن، وهم لا مع اليهود ولا مع المؤمنين ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ﴾، وكانوا إذا لقوا الرسول ﷺ والمؤمنين حلفوا لهم أنهم مثلهم مؤمنون، وهم يعلمون أنهم يكذبون فى أيمانهم. ويقول الله فى الآية: إنهم اتخذوها جُنَّةً أى وقاية من مشاعر المسلمين ضدهم ليتمكنوا من صَدِّ الناس عن سبيل الله بما يرمون به الإسلام من تهم باطلة يحلفون عليها بهتانًا، كما يحلفون أنهم مؤمنون صادقون، ويتوعدهم الله بعذاب شديد قائلاً: ﴿فَلَهُمْ﴾ فى مقابلة ما صنعوا من الكذب فى أيمانهم باسم الله العظيم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ شديد.

•••

الخداع - اللعن - السب

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩].

٢ - ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

٤ - ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

الأحاديث:

١ - عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«مَن خَبَّب[1] زوجة امرئ فليس منا»** (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن ماجة).

٢ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن غشَّنا فليس منا»** (رواه مسلم فى حديث بكتاب الإيمان).

٣ - عن أبى مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«سباب المسلم فسوق»** (رواه البخارى فى كتاب الإيمان، ومسلم وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى).

٤ - عن ثابت بن الضحاك الأنصارى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَعن المؤمن كقتله»** (رواه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور).

---

(١) خبب: خدع وأفسد.

الآية الأولى فى المنافقين وخداعهم لله والمؤمنين فى إظهار أنهم يؤمنون بالله ورسوله ويبطنون الكفر. ويمكن أن يفسر خداع الله لهم بأنه إملاؤه لهم وتأجيل عقابهم إلى يوم القيامة، وخداع المؤمنين بأنهم يتقبلون الظاهر منهم وما يقولون من أنهم مؤمنون وهم متأكدون أنهم يخادعونهم. وهذا التفسير على أساس أن فعل يخادع يقتضى أن يكون الخداع بين طرفين. ويمكن أن يكون يخادع بمعنى يخدع ولا يقتضى مخادعة بين طرفين، كما فى مثل عاقبت اللص أى أنهم يخدعون الله والذين آمنوا، ويقول الله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ أى أن خداعهم لا يتعداهم فهم إنما يخدعون أنفسهم.

ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الأول: من خبب أى خدع زوجة شخص وأفسدها على زوجها فليس من المسلمين؛ لأنه أتى فعلاً منكراً أشد الإنكار. والخداع فعل مذموم، وهو إظهار خلاف ما تخفيه، ويكون على صور كثيرة، ومنه التدليس، يقال: دلَّس فى الشىء إذا لم يظهر عيبه، ودلَّس فى البيع للمشترى إذا لم يبين له عيب ما يشتريه. ويستعمله المحدِّثون في الإسناد، يقولون: دلَّس الراوى للحديث، وإذا رواه عن شيخ كبير عاصره ولم يسمعه منه موهمًا أنه سمعه منه. هذه إحدى صورتى التدليس عند المحدثين. والصورة الثانية أن يسمى شيخه باسم لا يعرف به. ونُسبت الصورتان من التدليس إلى جماعة من المحدثين فى بعض ما رووه.

ويحرم الرسول ﷺ فى الحديث الثانى الغش قائلاً: «مَن غَشَّنا فليس منا»، أى أن الغش وهو نقيض النصح ليس من أخلاقنا الإسلامية ولا من سُنتنا، إذ هو خيانة وضرب من الخديعة، بإيصال شر إلى شخص دون علمه، ومن أسوئه الغش فى البيع كخلط الرَّدىء ومزج اللبن بالماء. ويروى أن الرسول ﷺ مرَّ فى السوق على رجل أمامه كومة بُرٍّ أى قمح، فأدخل يده الكريمة فيها، فنال أصابعه بعض البلل، فقال ﷺ: «ما هذا يا صاحب البر» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال ﷺ: «ألا جعلته فوق البر حتى يراه الناس، مَن غشَّنا فليس منا». ولم أرو الحديث بلفظه إنما رويته بمعناه. وواضح أن تحريم الغش لما فيه من خيانة واضحة.

ويقول الله -تقدَّس اسمه- فى الآية الثانية للمؤمنين: إنكم ستسمعون من أهل

الكتاب من اليهود أذى كثيراً بالقول مما كان ينظم شعراؤهم أمثال كعب بن الأشرف، وكان يرثى قتلى قريش فى غزوة بدر، ويؤذى الرسول ﷺ، ويكثر من سبِّ المسلمين. ويقول الله للمؤمنين: إنكم ستسمعون من مشركى قريش وغيرهم ما يؤذيكم، وكانت معارك الهجاء قد اضطرمت بين شعراء مكة قبل فتحها من أمثال ابن الزِّبعرى وأبى عزّة وهبيرة بن أبى وهيب وأبى سفيان بن الحارث، وبين شعراء المدينة من أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وأمر الله المؤمنين فى بقية الآية بالصبر على هذا الأذى قائلاً: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾. وصبروا وفتحت لهم مكة سلمًا واعتنقت الجزيرة العربية جميعها الإسلام.

ومعنى الأذى فى الآية الثالثة مثل معناه فى الآية السابقة أى أذى القول بدليل قول الله فى نهايتها: ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا ﴾ أى قولاً كاذبًا وهم من يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأهاج وسباب لم يكتسبوه أى أنه كذب وافتراء عليهم. ويقول الرسول ﷺ كما فى الحديث الثالث: سباب المسلم فسوق ومعصية كبرى، فينبغى أن يحذر المسلم سب أخيه، حتى لا يقع فى إثم يعاقبه الله عليه عقابًا أليمًا. وعن السيدة عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أىُّ الربا أربى عند الله**» قالوا: الله ورسوله ﷺ: «**أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم**»، ثم تلا الآية المذكورة. وكما نهى الرسول ﷺ المؤمن عن سب أخيه الحى نهاه أيضًا عن سب أخيه الميت قائلاً ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا من عمل**». والله - جَلَّ شأنه يقول فى الآية الرابعة إن الذين يبطلون عهد الله من بعد ميثاقه ولا يوفون به، وعهد الله: ما أوصى بمراعاته وهو أن لا يعبدوا غيره ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ باعتقاد ديانات وشرائع باطلة ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ فى الدنيا والآخرة.

واللعنة فى الآية العذاب والطرد من رحمة الله، ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ دعاء من الله عليهم، وهو دعاء مقدر ومقضى لأن كل شىء بيد الله. ولعن المؤمن لأخيه المؤمن أو لأى شخص: ابن أو غير ابن محرَّم فى الإسلام تحريمًا باتًا، ويقول الرسول ﷺ فى

الحديث الرابع : إن لعن المؤمن كقتله، وهو تعظيم لإثم اللعن إذ يجعله كإثم القتل، حتى لا يلفظ به المسلمون. ويقول فى حديث له : **«لا تلاعنوا بلعنة الله ولا غضبه ولا بالنار»**، ويقول: **«ليس المؤمن بالطعان واللعان»**. وكما حرم الرسول ﷺ لعن الإنسان حرم لعن الحيوان، وقال نضلة بن عبيد الأسلمى : بينما امرأة على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالرسول ﷺ وتضايق الطريق بالقوم فأرادت أن تحث الناقة على سرعة السير فزجرتها، وقالت : اللهم العنها، وسمعها الرسول ﷺ، فقال لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، وأخذوا ما على الناقة من متاع، وتركوها تمشى لا يعرض لها أحد. وإذا كان الرسول ﷺ قد حرم لعن الحيوان رحمة به فإن الإنسان أولى منه بهذا التحريم؛ ولذلك جعله الرسول ﷺ كبيرة يأثم من يلفظه فى مواجهة أى إنسان صغيراً أو كبيراً قريبًا أو بعيدًا إثمًا كبيراً.

●●●

سوء الظن - التجسس

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢].

٢- ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣- ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

٤- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظنَّ فإن الظن أكذب الحديث**» (رواه البخاري في باب ما ينهى عنه من التحاسد، ورواه مسلم بروايات متعددة في كتاب البر والصلة، كما رواه مالك وابن حنبل في مسنده وأبو داود والترمذي).

٢- عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: رأيت الرسول ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**والذي نفس محمد ﷺ بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك: ماله ودمه وأن يُظَنَّ به إلا خيراً**» (رواه ابن ماجة في سننه).

٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أتى برجل، فقيل له: «**هذا تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نهينا عن التجسُّس، ولكن إن ظهر لنا شيء نأخذ به**» (رواه أبو داود).

٤- عن عقبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها**» (رواه ابن حنبل في مسنده وأبو داود والنسائي).

والآية الأولى أدب قرآنى عظيم للمسلمين أن لا يظن بعضهم ببعض ظنونًا سيئة، لأن فى ذلك ما يفضى فى علاقة الرجل بزوجته إلى غيرة الرجل غيرة شديدة عليها، وقد تؤديه الشبهة الكاذبة إلى الطلاق. وسوء الظن بين الرجال قد يؤدى إلى القطيعة بين الصديقين، وقد يؤدى إلى ما هو أسوأ أى إلى العداء الشديد. وقد يكون الظن دينيًا، وهو اعتقادات المشركين والمجوس وعبدة الكواكب وعبدة الأوثان، فكل هؤلاء يتبعون ظنونًا مخطئة كما قال تعالى عنهم فى سورة يونس: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ويقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ كما فى سورة الأنعام، ومعنى يخرصون يخمنون تخمينات وظنونًا باطلة. والله -فى الآية- ينهى عن الظن السوء مطلقًا فى الدين وغير الدين مما يكون بين الأفراد من الأهل والناس، وهو ما نهى عنه الرسول ﷺ فى الحديث الأول، وقال: إنه أكذب الحديث، لأنه اتهام لا يقوم على أساس، والآية والحديث يدعوان إلى صون عرض المسلم ولا يريدان بالظن الظن الشرعى وهو تغليب أحد الرأيين على الآخر، وإنما المراد الاتهام الذى لا يسنده دليل. ويدعو الحديث الثانى إلى أن لا يظن المسلم بأخيه المسلم ظن سوء أبدًا وأن يظن به خيرًا حتى يكون أفراد المسلمين دائمًا إخوانًا لا يظن أحد منهم بأخيه شرًا، إنما يظن به خيرًا دائمًا، ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من فم أخيك المؤمن إلا خيرًا ما دمت تجد لها فى الخير محملاً ويشدد الله فى النهى عن سوء الظن فيقول: إنه إثم أى ذنب يستحق العقوبة عليه. وهو زجر شديد عنه. وينهى الله فى الآية الثانية عن أن يقول مؤمن ما ليس له علم به، كأن يقول: رأيت ولم ير أو سمعت ولم يسمع أو علمت ولم يعلم. ومن ذلك أن يتهم زوجته أو جارته أو جاره بريبة. وهى من أشد الظنون والتهم السيئة المحرمة. ويقول الله تكملة الآية الثانية: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أى إن السمع والبصر والفؤاد تقع على كل منهم مسئولية شديدة فيما يرمى به شخص أخاه بما ليس له علم يقينى به، فإن الله سائله عن ذلك كله.

والله -تقدس اسمه- فى الآية الأولى عقب نهيه عن سوء ظن المسلم بأخيه يَنْهَى عن التجسس، وهو البحث بوسائل خفية عن عيوب شخص ومعرفة عوراته، وهو هتك لحرمات الشخص ومحاولة للاطلاع على ما يخفيه. وهو ما يحرمه الإسلام على المسلم أن يتجسس على أخيه، والإسلام يدعو المسلم إلى الستر دائمًا على المسلم والنهى البات عن التجسس، كما يشهد بذلك ابن مسعود فى الحديث الثالث. ويرفع الرسول ﷺ فى الحديث الرابع من شأن من يستر عورة لأخيه المؤمن حتى ليجعله كأنما استحيا موءودة من قبرها. وبحق جعل الإسلام التجسس إحدى الكبائر المحرمة، فلا يجوز أن يتجسس مسلم على غيره فضلاً عن أنه لا يجوز له التجسس على زوجته ولا على أبنائه وأقربائه. وعليه أن يذكر أصدقاءه ومعارفه بكل خير ويعرف لهم حرماتهم ويصونهم عن أن يذكروا بأى سوء. والتجسس المحرم هو الذى لا يؤدى نفعًا للمسلمين ولا يدفع عنهم أذى وشرًا، بخلاف التجسس على الأعداء وتجسس الشرطة على اللصوص والجناة.

والآية الثالثة تحذير شديد للمسلم، فإن كل ما ينطق به من قول سواء كان خيرًا أو شرًا، وسواء كان ظنَّ خير أو ظن سوء، وسواء كان بحثًا طيبًا عن شخص أو بحثًا عما لا يجب أن يُعرف عنه تجسسًا، كل ذلك يكتبه ملك مُعَد لمراقبته ويؤاخذ به قائله إن كان بغيًا وعدوانًا على مسلم. ويقول الرسول ﷺ برواية ابن حنبل فى مسنده وكتب السنن، عن بلال بن الحارث المزنى: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**».

والآية الرابعة تحذير شديد هى الأخرى للمسلمين أن الله -جل شأنه- يرصد كل ما يأتيه المسلمون من قول أو فعل، وأنه يجازى كلاً بقوله وفعله، وستعرض الخلائق عليه

يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، ويجزى كل إنسان بما قدمت يداه. وبدون ريب تحريم الله -عزَّ شأنه- على المسلم هاتين الصفتين الذميمتين من سوء الظن والتجسس إرشاد أعلى منه لتسود الأخوة بين المسلمين، فلا يظن أخ بأخيه سوءًا ولا يتجنى عليه بأوهام تجول فى خاطره، وأيضًا لا يتجسس ليتعرف على ما يعيب أخاه مما يخفيه ولا يجهر به، فإن فى ذلك هتكًا لحرمته وأخوته وتعرضًا لعقاب أليم من ربه.

●●●

الغيبة - النميمة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

٢- ﴿ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

٣- ﴿ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

٤- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات: ٦].

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله ﷺ أعلم. قال: **ذكرك أخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال رسول الله ﷺ: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه بهته**[١] » (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب).

٢- قال رسول الله ﷺ: «**مَن حمَى مؤمنًا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم**» (رواه ابن حنبل فى مسنده، وأبو داود فى سننه).

٣- عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنّة نَمَّام**» (رواه مسلم فى كتاب الإيمان والترمذى والنسائى وابن حنبل).

---

(١) بهته: كذبت عليه.

٤- عن أسماء بنت يزيد بن السكن: قال الرسول ﷺ: **«ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبُرءاء العنت»** (رواه ابن حنبل في مسنده).

والله -عز شأنه- ينهى في الآية الأولى عن الغيبة، وهي ذكر شخص غائب بما لا يحب أن يُذكر به، وصوّرها الله في صورة شديدة القبح للكف عنها، إذ جعلها مثل أكل لحم الأخ المسلم الميت الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ويقول الله: إنكم تكرهون ذلك طبعًا فينبغي أن تكرهوا مثيلتها من الغيبة شرعًا. وهي تعد جرحًا كبيرًا في أخوة الإسلام، إذ إن صاحبها يصيب أخوةً من يغتابه بطعنة شديدة، ولو أن الذى اغتيب عرف ما يقوله عنه المغتاب لنشبت بينه وبين من يغتابه عداوة خطيرة، فضلاً عن أن المغتاب يشغل نفسه بما لا يعنيه، وأولى أن يشغلها بما يفيده وينفعه. وهي تعد من الكبائر المحرمة، وقد نهى عنها الرسول ﷺ كما في الحديث الأول، ويقول ﷺ للصحابة: من حَمَى مؤمنًا من مغتاب بعث الله إليه ملكًا يوم القيامة يحميه من نار جهنم كما في الحديث الثاني. وله ﷺ أحاديث كثيرة في النهي عنها نهيًا شديدًا كأنه يريد أن يقضي على هذه الخصلة الذميمة قضاء مبرمًا، فلا تعود إلى الظهور أبدًا بين أصحابه، فمن ذلك ما رواه البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ زاجرًا، حتى أسمع النساء في بيوتها فقال: يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته. والرسول يجعل المغتاب منافقًا فقد آمن بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه، ويقول: إن من يتبع عورة أخيه المسلم ليفضحه ويشيع عنه السوء يتصدّى له الله- جلّ جلاله- مدافعًا عنه، ويتبع عورات هذا المغتاب حتى يفضحه فضيحة كبيرة.

●●●

السخرية -الشماتة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ -﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

٢ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

٣- ﴿ فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

٤- ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١].

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» (رواه مسلم في أثناء حديث بكتاب البر والصلة).

٢- عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك**» (رواه الترمذي).

٣- عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (رواه البخاري وأبو داود والنسائي).

٤- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا**» (رواه البخاري في باب ما ينهى عنه من التحاسد. ومالك في موطئه، وابن حنبل في مسنده، وأبو داود والترمذي).

والآية الأولى فى السخرية وخصال ذميمة، والسخرية هى الاستهزاء. ووجَّه الله التحريم إلى الأقوام لأن العشائر فيما يبدو كان يسخر بعضها من بعض احتقاراً واستصغاراً وهى محرمة على الأفراد تحريمها على الأقوام، فلا يسخر أحد من قوم ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا﴾ عند الله ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وأفضل، وبالمثل لا يسخر نساء من نساء عسى أن يكن عند الله خيراً منهن. ولا تسخر امرأة من امرأة مهما كانت فقيرة أو محتاجة، فقد تكون المحتقرة أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من الساخرة بها، كذلك الشأن فى الرجال فلا يسخر أحد من أحد ولا يحتقره بأى صورة من الصور مهما كان فقيراً ومحتاجًا إلى عونه ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ من اللمز وهو القدح والعيب.

وجعل الله -جلَّ شأنه- لمز الشخص كأنه لمزٌ لنفسه، إذ يلمز أخاه المسلم وكأنما يلمز نفسه ويعيبها ويطعن فيها. والله -بذلك- ينفِّر المسلم من عيب أخيه والطعن فيه. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ السيئة، والألقاب منها الحسن مثل الرشيد ومنها السيئ مثل الأحوال. ويقول الله: إن كلاً من السخرية والتنابز بالألقاب واللمز فسوق و(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان)، وهو بذلك يجعل هذه الصفات المذمومة فسوقًا لصاحبها بعد أن أكرمه الله بالإيمان، وهى لذلك من المعاصى التى ينبغى التوبة منها ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم ظلمًا بيِّنًا. ويجعل الرسول ﷺ السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فى الحديث الأول شرًا ما بعده شر قائلاً ﷺ: بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم بإحدى تلك الصفات الذميمة المعيبة.

ويتوعد الله فى الآية الثانية من يحبون شيوع الفاحشة وما يشبهها فى المؤمنين واشتهار.

●●●

الحمد لله - الشكر لله

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١].

٢- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١].

٣- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٤- ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

الأحاديث:

١- عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**» (رواه الترمذي).

٢- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أمر ذي بالٍ لا يُبدأ فيه بلفظ: الحمد لله فهو أقطع**»(١) (رواه أبو داود).

٣- قال رسول الله ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له**» (رواه البخاري).

٤- عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ: كان يقوم (يصلي) من الليل حتى تتفطَّر (تتشقق) قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ قال ﷺ: «**أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً**» (رواه البخاري في باب التهجد، ومسلم في باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة).

والحمد ثناء عام يكون ابتداء، ويكون عن يد أو معروف قدمه شخص لصاحبه فحمده. أما الشكر فلا يكون ابتداء بدون معروف أو جميل قُدِّم لصاحبه بل لا بد أن

يكون ردًا أو جزاء لجميل أو معروف. ويخطئ من يظن أن كلاً منهما يقع مطلقًا موقع الآخر، والحمد -بذلك- أعم من الشكر. والإنسان يحمد الله مرارًا على النعم التى أسبغها عليه، والتى لا يمكن لأحد أن يحصيها أو يستقصيها فى نفسه وسمعه وبصره وعقله وجسده وفى حياته وكل ما يصيبه من رزق فى زراعة أو صناعة أو تجارة وفى كل ما ينعم به فى أسرته من بنين وبنات وفى أمته من أمن ورفاهية وحضارة ومدنية.

والله -تبارك اسمه- يحمد نفسه فى الآية الأولى التى يبتدئ المسلمون بسورتها قرآنه الكريم ويفتتحون بها صلاتهم فى كل ركعة يقومونها. وقرن الله هذا الحمد لنفسه فى تنزيله للقرآن قائلاً فى أول سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وهى أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض إذ أنزل الذكر الحكيم على رسوله محمد ﷺ لهداية البشرية، وأيضًا فإنه قرن هذا الحمد لنفسه فى ابتداء خلقه فى فاتحة سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾. وحمد الله فى كل هذه الآيات مضمن أمر عباده أن يحمدوه ويثنوا عليه، وكأن الله يقول لعباده معها جميعًا قولوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وبالمثل تدعو الآية الثانية إلى تردادها؛ ولذلك يرددها المسلمون فى بقاع الأرض كما فى الحديث الأول دعاء لربهم وثناء على نعمه، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الثانى: إن كل أمر مهم لم يفتتح بكلمة الحمد لله يُعَد أقطع أى أبتر كأنما قُطعت يده ونقصت بركته.

والمسلمون لا يحمدون الله فقط لنعمه الكثيرة التى يضفيها عليهم، بل يحمدون أيضًا حمدًا صادرًا عن إيمان عميق فى أفئدتهم بجلاله وكماله المطلق الذى يتجلى به الكون تلقاء أبصارهم دون أى خلل أو اضطراب وعوج، بل مع النظام والتناسق الدقيقين ومع الجمال

الذى بثّه الله فى السماء وكواكبها المضيئة وفى الأرض وزروعها وحيوانها. وإنه لكون يتجلّى بإبداع الخالق وجلاله وعظمته. وفى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما -كما فى سنن ابن ماجة- أن رسول الله ﷺ - حدثهم أن عبدًا من عباد الله

قال: يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت[1] بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله، فقالا: يا ربَّنا إن عبداً من عبادك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله -وهو أعلم بما قال عبده-: ماذا قال عبدى؟ قالا: قال: لك الحمد يا ربُّ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها. والحديث النبوى يصور ثواب الحمد لله تصويراً رائعاً.

والشكر توأم الحمد، والله فى الآية الثالثة يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أى اذكروا نعمى ومحامدى ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بما أسبغ عليكم منها ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ هذه النعم الكثيرة. ويعد الله وعداً كريمًا فى الآية الرابعة أن شكره على ما يتفضل به من نعمه على خلقه.. يجعله يزيدهم منها نعمًا لا تزال تتجدد مع كل شكر. وللشكر ثلاث صور: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بالجوارح. وشكر الله ينبغى أن يكون بالقلب. لأنه صاحب النعم جميعًا كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ سواء كانت فى السمع والبصر والجسد، أو كانت فى الفكر والعقل، أو كانت فى المطعم والملبس والمسكن، أو كانت فى الزوجة والأولاد، أو فى أى وجه من وجوه حياة الشخص، مما يجعله يشكر ربه من أعمق الأعماق فى قلبه، كما يجعله دائمًا يلهج بشكره، ويردده بلسانه كلما أصابته سراء كما فى الحديث الثالث، بل فى جميع أوقاته. ولا يشكر المسلم ربه بقلبه ولسانه فحسب، بل يشكره أيضًا بأعماله فى العبادة وبالفروض المالية فى الزكاة والصدقة وكل أعمال البر والخير. والحديث الرابع يصور كيف كان الرسول ﷺ يعد العمل فى الطاعات شكراً، فقد ذكرت فيه أم المؤمنين السيدة عائشة -رضى الله عنها- أن الرسول ﷺ كان ما يزال يكثر من صلاته ليلاً حتى تشققت قدماه، فقالت له متعطفة متلطفة: لماذا تشق على نفسك بالصلاة مع ما أصاب قدميك من تشقق، وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر، أى كما جاء فى سورة الفتح، فقال ﷺ لها قولته العظيمة: «أفلا أكون عبداً شكوراً لربى ما أنعم به علىّ». والصلاة بذلك شكر

(١) عضلت: استغلقت.

ومثلها كل أنواع العبادات العملية من صيام وزكاة وحج. وكل عمل خيِّر أو صالح تعمله شكر: فمواساة الفقراء شكر لله، وقضاء حوائج الأهل والإخوان شكر. وينبغي أن نشير إلى أن من أشد ما يجزُّ في نفوس المستحقين للشكر على عمل أدَّوه لأناس رجوهم أن يؤدّوه، فأدوه لهم، أن لا يتقدموا بشكر ولا ما يشبه الشكر، وهو جحود مرير. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، فهو لا يشكر من أحسن إليه، حتى ربه يجحده ويجحد ما تفضل به من النعم، إذ الجحود متأصل في نفسه وهو جحود مقيت للرب ولكل من يؤدي له صنيعة أو جميلاً.

وأنا أحمد الله الذي هداني إلى تأليف هذا الكتاب، وما كنت لأهتدي إلى تأليفه لولا أن هداني الله الذي يسبغ على شخصي الضعيف آلاءه ونعمه دائمًا بمنِّه وفضله وإحسانه.

والعبد لله (صاحب المختصر) كذلك، فلك الحمد يا ربي كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المدينة المنورة، على ساكنها الصلاة والسلام

في ١١ رمضان سنة ١٤٣٢هـ

١١ أغسطس سنة ٢٠١١م

ثم بالإسكندرية ١١ رمضان سنة ١٤٣٧هـ

١٦ يوليو سنة ٢٠١٦م

●●●

كلمة أخيرة..

وننهى الكتاب بكلمة مختصرة إذ رأينا الدكتور شوقى ضيف -رحمه الله تعالى- بكتابه هذا يدعو إلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وقد وفّق فى اختيار العنوان؛ لأن العمل بالكتاب والسنّة هو أقصر طريق لتجديد حضارة الإسلام فى كل عصر ومصر إلى قيام الساعة، فمن أقوال الرسول ﷺ **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنّتى»** متفق عليه.

وكان الرسول ﷺ يقول فى خطبته: **«إن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»**[1].

وفى السنن عن العرباض بن سارية قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال ﷺ: **«أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة..»** وفى رواية **«وكل ضلالة فى النار»**[2].

ويتضح من طريقة العرض والأسلوب والحرص على تفسير الآيات القرآنية... يتضحّ منها حرارة الإيمان والغيرة على الدين والعلم الغزير، ولا غرو فقد حفظ القرآن الكريم وهو فى العاشرة من عمره بتوجيه والده الذى كان متخرجًا من المعهد الدينى، وكان يلقى دروسًا دينية، وحرص على أن يكون ابنه شيخًا[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ابن تيمية مجموعة الرسائل والمسائل جـ١، صـ١٤٣، صححها وأخرج أحاديثها الشيخ رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر ١٣٤٥هـ، وعلّق الشيخ رشيد رضا على (وكل ضلالة فى النار)، بأنها زيادة شاذة ليست فى السنن.

(٣) د. شوقى ضيف (معى) ص ١٤ سلسلة (اقرأ) دار المعارف بمصر، العدد رقم ٤٦٦، ١٩٨٥م.

وقد سجّل فى مذكراته هذه التجربة الفريدة فى حفظ القرآن الكريم، فكتب يقول: (ومن المؤكد أن الناشئة فى جيل الصبى -يعنى نفسه- كانت تتعود بدأبها على حفظ القرآن الكريم فى بواكير حياتها - بذل الجهد الشاق فى التحصيل والدراسة. ولعلّ نبوغ مفكرّينا العظام فى القرن الماضى وشطر كبير من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعودوه فى الكتاتيب من بذل كل طاقتهم فى استظهار الذكر الحكيم، وكان هذا البذل والجهد فى التحصيل يظل ملازمًا لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى يتمّوا تعليمهم الجامعى أو العالى) [1]، وهى نصيحة غالية للأجيال الجديدة أيضًا مع ضرورة إدخال التعديلات على الكتاتيب واستخدام أدوات العصر مع العناية بالمربيّن بدلاً من طريقة الضرب المبرح التى كانت متّبعة حينئذ.

هذا، وقد ذكر فى يومياته التى نشرها بكتاب بعنوان (معى) واقعات كثيرة تصوّر الأحوال الاجتماعية والسياسية فى مصر أثناء فترة شبابه، ومنها ما يعبّر عن رهافة الحس والضيق بالاستبداد والظلم الذى عانى منه الشعب المصرى على يد الإنجليز والقصر، وصدقى الحليف لهما.

من ذلك قوله (وصدقى ومن ورائه القصر والإنجليز يحكمون الشعب بالحديد والنار. لقد داسوا بأقدامهم الحريات الشرعية للشعب وأبنائه الأبرار وألقوا بالعقاد كاتب الأمة الحرّ فى غياهب السجون، لمدة تسعة أشهر لأنه قال فى البرلمان إن الأمّة على استعداد بأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه) [2].

وصوّر نفوذ حزب الوفد برئاسة سعد زغلول، وأنّ الانتماء للحزب ولزعيمه تحوّل فى نفوس بعض أهل الريف البسطاء إلى ما يشبه العقيدة حتى ظنّ بعضهم أنه جزء من الدين الحنيف [3]!

---

(١) نفسه ص ٤٢.

هذا وقد احتوى هذا الكتاب -مع صغر حجمه- على أوصاف دقيقة لأوضاع مصر السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية مما جعل منه مصدراً تاريخياً مهماً- وقد طال عمر الدكتور شوقى ضيف (ولد عام ١٩١٠ وتوفى رحمه الله تعالى عام ٢٠٠٥م).

(٢) (معى) ص٩٧/ ٩٨.

(٣) نفسه ص٩٣/ ٩٤.

ومع تعاطفه هو نفسه مع الحزب إلا أنه اعترض بشدّة عندما قام النحاس بتكوين تشكيلات للشباب موالية سماها (فرق القمصان الزرق) حيث استحالت إلى فرق إرهابية لخصوم الوفد[1].

وفى إحدى صفحات الكتاب، أبدى إعجابه الشديد بالإمام العزّ بن عبد السلام لموقفه من الظاهر بيبرس الذى فرّق جموع التتار فى عين جالوت بفلسطين وكسب لنفسه ولمصر مجداً حربيًا رائعًا، ومع ذلك لم يبايعه ابن عبد السلام إلا بعد تأكّده من أنه تحرّر من العتق فعبّر بذلك بقوله (إنه لم يكن يخشى فى إعلان الحق أحداً مهما تكن قوته وسلطانه)[2].

كذلك يبدو من حرصه على إيجاد الصلة بين الحضارة الإسلامية والكتاب والسنّة معارضته لموجة التغريب التى تزعمها أتاتورك الذى كانت ماضيًا فى تغريب تركيا أو جعلها جزءاً من الغرب متخذاً إلى ذلك كل وسيلة حتى يحدث ثورة اجتماعية كبرى[3] ولا شك أن الدكتور شوقى ضيف باتباعه هذا المنهج الخاص فى عرضه لأسس حضارة الإسلام كان معبّراً كغيره عن معارضة أتاتورك حيث قال (وكان هناك معارضون لا يحبّذون لتركيا هذا الاندفاع الشديد نحو تقليد الغرب) ومحاولة محاكاته فى كل شيء حتى فى الكتابة وحروفها[4].

كذلك عبّر عن انزعاجه الشديد من قرار إلغاء الخلافة الذى أحدث استياء فى العالم الإسلامى كان له أصداؤه فى الصحف المصرية؛ فكثر الحديث عن الخلافة وعواقب إلغائها (ودعا الكثيرون إلى العمل على قيامها، ولم يتراء فى الأفق أى أمل فى نجاح الدعوة؛ إذ كانت البلاد الإسلامية ترزح جميعًا تحت نير الاستعمار الأوربى البغيض)[5].

---

(١) نفسه ص١٢٤ .

(٢) نفسه ص٦٠ .

(٣) نفسه ص١١٥ .

(٤) نفسه ص٨٧ .

(٥) نفسه ص٥٨ .

كذلك عبّر في كتابه عن فخره بالدولة العثمانية فوصفها بأنها دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى)[1].

نرجّح إذن أن الحماس الملتهب لإحياء حضارة الإسلام هي الدافع لتأليف هذا الكتاب، مذكرًا الأمة بأن الطريق ممهّد، وليس علينا إلا اتباع الكتاب والسنّة، فإن العلاقة بين ارتقاء حضارتنا وتدهورها هي علاقة مد وجزر بهذين المصدرين، وهذا ما اكتشفه الدارسون لتاريخنا من علماء الغرب أيضًا، فوضعوا أيديهم على سرها؛ إذ بمعرفة مراكز البحوث الغربية والمستشرقين والمهتمين بمراقبة أحوال العالم الإسلامي- بمعرفتهم جميعًا بأنّ ارتقاء الأمة الإسلامية إلى اتباع عصر النبي ﷺ والخلافة الراشدة -أي العمل بالكتاب والسنة- سيعيد الحضارة الإسلامية من جديد؛ لذلك نرى التحذير من أية حركة إسلامية تجديدية. وعلى سبيل المثال قول المستشرق (لورنس): (إن وجود حركة إسلامية تجديدية متحمسة كالوهابية- نسبة إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب- في الأراضي الإسلامية المقدسة، خطر حقيقي على مصالحنا وأهدافنا؛ لأن أطماعها واسعة إلى حد استثارة فطرة الإيمان في نفوس المسلمين، مما يعني العودة إلى حضارة الإسلام، كما كانت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وسيطرة المسلمين المتحمسين جيلاً بعد جيل على مقادير العالم الإسلامي مما يمهد لسيطرتهم على العالم أجمع)[2].

مواجهة التغريب:

إذنْ علينا أن نضيف غرضًا آخر لهذا الكتاب، فهو بمثابة الرد على المطالبين بتجديد

---

(1) كتاب الحضارة الإسلامية من الكتاب والسنة ص٣٦. وكتب في مذكراته يصف حرص المصريين على متابعة أخبار الحرب العالمية الأولى ووصف حاله بقوله (وكان مثل كل القرية بل مثل كل المصريين حينئذ هواه مع تركيا والألمان) ص٣٤ من كتابه (معي).

(2) طارق سري (المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي) ص٦٢، مكتبة النافذة بالقاهر سنة ٢٠٠٦م.

الخطاب الدينى[1] أى الدعوة إلى التنوير والتقدم والحداثة -وكلها مصطلحات وافدة مع المذاهب الفلسفية الغربية وتحمل فى أحشائها التطوّرات التاريخية للثقافة والعقائد الدينية الأوروبية، ولا صلة لها قط بتاريخنا الثقافى والدينى والتشريعى، كما سيتبيّن من الملاحق التى سنذيّل بها الكتاب.

إن المنهج الذى اتبعه الدكتور شوقى ضيف يضع القضية فى موضعها الصحيح، أى

---

(١) كمثال: يُنظر مقال د. جابر عصفور بعنوان (رجائى عطية وتجديد الفكر الدينى) الأهرام بتاريخ ٢٠١٨/٦/١٥م.

ويُنظر مقاله أيضًا بعنوان (حاجتنا إلى اعتزال معاصر) بالأهرام فى ٢٠١٨/٨/١٠م حيث نعت السلفيين والوهابيين، وكذلك الأزهريين (الأشاعرة) بالظلامية بينما أشاد بأحد كتاب (الأهرام) الذى طالب بتجديد الخطاب الدينى فى إطار (الحداثة والعلمانية).

هذا، مع العلم بأن فرقة (المعتزلة) انقرضت منذ انشق عنها الإمام الأشعرى ونقدها نقد الخبير ببدعها، حيث ظل منتميًا إليها نحو أربعين عامًا، ثم ناصر (قول أصحاب الحديث والسنة)، حيث قال فى النهاية (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، عليه نتوكل، وإليه المصير)[1].

وقال فى كتابه (الإبانة عن أصول الديانة)، فى فصل (إبانة قول الحق والسنّة) (قولنا الذى نقول به، وديانتنا التى ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون بما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن حنبل -نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدّم وجليل معظّم، وكبير مفخّم، وعلى جميع أئمة المسلمين)[2].

وقال فى كتابه (أصول أهل السنة والجماعة المسمّاة برسالة أهل الثغر: فى الباب الثانى (باب ذكر ما أجمع السلف من الأصول التى نبّهوا عليها وأخذوا فى وقت النبى ﷺ).. ووصفها فى الختام بقوله (فهذه الأصول التى مضى الأسلاف عليها واتّبعوا حكم الكتاب والسنّة واقتدى بها الخلف الصالح فى مناقبها)[3]. وحمل على المعتزلة حملة شعواء، فلم تقم للعتزال قائمة بعد ذلك.

---

(١) أبو الحسن الأشعرى (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) ص٢٢٩، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية - بيروت ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.

(٢) الإبانة: تحقيق إسماعيل الأنصارى، مكتبة الأنصار، ط٢، ١٤٢٧-٢٠٠٦.

(٣) أصول أهل السنة، تحقيق د. محمد الجليند ص١٠٥. مطبعة التقدم ١٩٨٧م.

أراد توجيه رسالة لكل مخلص يتمنّى النهضة لأمته وحضارته، فبيّن بوضوح تام أن الطريق الوحيد الضامن لهذا الهدف هو العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وإلاّ فالتدهور والضلال؛ لأن الجرى وراء شعارات حضارات الغرب التى انخدعنا بها منذ عصر الاستعمارَيْن العسكرى والثقافى هى التى أفقدتنا عناصر قوّتنا وعزّتنا، وجعلتنا نسير مغمّضى الأعين وراء أعدائنا وجلاّدينا، ومسخت هويّتنا التى اعتزت بها أجيال المسلمين طوال القرون حيث وعت تحذير الرسول ﷺ من تقليد غيرنا من الأمم، إذ قال: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لتبعتموهم»** قال أبو سعيد الخدرى: قلنا يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال ﷺ «فمن»؟ متفق عليه.

ونرجّح أن ما قام به أتاتورك من السير بتركيا فى طريق الحضارة الغربية، والاندفاع الشديد نحو تقليد الغرب بإحداثه ثورة اجتماعية كبرى.. فأدّت -وياللعار- إلى تحول الدولة العثمانية الإسلامية التى تزعمت العالم نحو ستة قرون.. أدّت بها إلى التقهقر لتصير فى ذيل الأمم، ويكفى ذلك درسًا للأمّة برمّتها[1].

نرجح أن ذلك كان دافعًا للدكتور شوقى ضيف لتأليف الكتاب وفق منهجه المبتكر.. وبخاصة أنه -مع كثرة مؤلفاته ودراساته البلاغية واللغوية والأدبية ونحوها، فقد عنى أيضًا بالدراسات الإسلامية فكتب (الوجيز فى تفسير القرآن الكريم) و(سورة الرحمن وسور قصار) و(عالمية الإسلام) و(معجزات القرآن) و(محمد ﷺ خاتم المرسلين) و(القسم فى القرآن).. وهذا ممّا يدل على نزعة إيمانية عميقة وغيرة شديدة على كل ما يتصل بالقضايا الإسلامية.. والله أعلم.

●●●

(١) وقد أشار فى كتابه (معى) فى أكثر من موضع إلى أتاتورك وثورته (ينظر صفحات ٥٨، ٨٧، ١١٥).
ومما يدل على اهتمامه بهذا الحدث الخطير قوله ص٥٨: (وأحدث ذلك استياءً فى العالم الإسلامى كان له أصداؤه فى الصحف المصرية).

الملاحق

وإتماماً للفائدة رأينا تذييل الكتاب بالملاحق التالية:

١- ملحق عن التنوير.

٢- ملحق عن (التقدّم).

٣- ملحق عن الحداثة.

وهي تتضمّن الرد العقلانى لمن يتّسع صدره لقبول الرأى الآخر.

وبالله التوفيق،،

وصلّ الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

ملحق رقم (١) [التنوير]

- وننقل هنا بعضًا من أفكار عبد الهادى هوفمان الرائعة عن كتابه «بين شتى الجبهات». بافاريا ١٩٩٧[(١)]. وهو المتحدث الرسمى باسم الحزب المسيحى الديمقراطى بألمانيا:

- الإسلام والتنوير:

١- الأساس الأول للخلاف بين المسلم والمواطن الأوربى يكمن فى مفهوم مصطلح التنوير ذاته ؛ فالمسلم يرى أن التنوير بالنسبة له قد تحقق بنزول القرآن وبتحرير المسلم من الجاهلية ، بينما الأوربى الغربى يرى أن التنوير هو التحرير الكبير للإنسان وللعلوم وللسياسة من الوصايا الكنسية التى دامت ١٧٠٠ عام، وكذلك التحرر من تعسف الحكم المستبد. وانطلاقًا من هذين المفهومين ، فإن الإحساس بالحياة لدى الغربى مصبوغ بالتفاؤل ، لخلعه سلطان الكنيسة ، أما المسلم فإن إحساسه بالحياة مصبوغ بالرضا والسعادة بدينه ، فإذا طولب المسلم بأن يشعر بالتنوير شعور الغربى به ، فإنه يجد ذلك غير مفهوم إن لم تكن وقاحة وخروجًا عن القصد.

٢- فإذا كان معنى التنوير الغربى:

- النهوض ضد الكنيسة والمؤسسات الدينية ، فإن الإسلام لا يعرف هذه المؤسسات الدينية كما هو معروف فى النصرانية.

---

(١) نقلاً عن كتاب «سرّ إسلام روّاد الفكر الحر فى أوربا» ص ٨٤/ ٨٧، ٢٠٠٢م، إعداد وجمع محمد عبد العظيم على -دار المنارة- المنصورة - مصر سنة ٢٠٠٢م.

- ولا شك أن عبد الهادى هوفمان قد هدى إلى الحق فى رأيه، ونرى أنه ثمرة تدبره للقرآن الكريم ؛ حيث اطمأن قلبه لمعانى الآيات التى تتحدث عن (النور)، منها قوله تعالى : ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧] .. وقوله تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم: ١] .. وقوله تعالى: ﴿**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [النور: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

- أو اكتشاف السماحة والتسامح، فإن السماحة والتسامح روح الإسلام وجوهره ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

-أو اكتشاف المساواة بين الناس كافة .

فإنها إحدى المسائل الجوهرية التى يحرص عليها الإسلام، فالناس كلهم عبيد سواء أمام الله .

- أو بسط سيادة القانون المدون الذى يمكن الناس من حكم الناس من حكم الناس، أنفسهم بأنفسهم، فإن القرآن دستور جامع لأحكام الله التى تشمل الدنيا والآخرة، والنبى ﷺ قدوة يحتذى بها .

- أو إشاعة الإلحاد والتمكين له فإن الإسلام يرفض هذا لأنه جحود وخيانة لله .

٣- العلمانية:

من العسير على المسلم فهم المطالبة بفصل الدين عن الدولة، إذ ليس فى الإسلام تنصيب رجل دين منصباً مقدساً؛ لأن الله فى عقيدة المسلم هو الخالق البارئ وأقرب إلى المسلم من حبل الوريد. ثم ما عواقب عزل الدين عن الحياة؟ يقول «فولفجانج شويله» عن آثار العلمانية: «لماذا يقل اهتمام الكثيرين فى بلادنا بالحياة الأسرية والرغبة فى الإنجاب عما كان الشأن فى الماضى؟ إننى أظن أن ذلك يرجع إلى نقص فى الاطمئنان إلى الحياة وإلى المخاوف المتزايدة وفقدان الثقة الأساسية فى المستقبل» .

٤- تحرير العلم:

يزعم دعاة التنوير الغربى[1] أن الازدهار العلمى الكبير إنما بدأ بتحرير العلم من

(١) وهكذا يحذرنا من الوقوع فى شباكه إذ أخفق فى تهذيب الإنسان ليصبح مخلوقًا أخلاقيًا بالتربية والتعليم، وهو ما لا يُستغرب من عالم مسلم حريص على أصالة أمته وتحريرها من التبعية والمذلة . . . وفى الوقت نفسه لاحظنا بأسى بالغ أن هناك جهات أجنبية تراقب عن كثب موجة (التنوير)، وتشجعه! (نشرت جريدة «الأهرام» بتاريخ ٢٠١٨/٦/٢٩، خبراً عن التقاء سفير كندا برئيس التحرير تحت عنوان «سفير كندا يشيد بدور الأهرام التنويرى»!!

أغلال الكنيسة، ولكن السؤال هو: هل كان تحريراً من قيود الكنيسة حقًا، أم تحريراً من الموقف العدائى المتأصل فى النصرانية من العلم؟

فقد علمنا القرآن أن الله علم آدم الأسماء كلها -وذلك قبل المعصية- فضلاً عن أن الإسلام يجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، أما النصرانية فإنها هنا بالذات تلح على أن المعصية الأولى إنما حلت بسبب الأكل من شجرة المعرفة.

وكما يقول بولس: إن الرغبة فى العلم «جعل الإنسان يتردى فى الخطيئة...؛ لأن حكمة هذا العالم هى الجهالة».

فليس صدفة أن مسلم الإسلام والنصرانية إزاء تطور العلوم مسلك متباين من الأساس. ونكرر أن النهضة الأوروبية ما كانت لتتحقق لولا نقل أوروبا العلوم التى أنجزها المسلمون فى الأندلس.

٥- بالاحتكام إلى واقع التاريخ:

نسأل: هل استطاع التنوير أن يتلافى حروب الانفصال الأمريكية، والحربين العالميتين، وحرب فيتنام، وحرب البوسنة والهرسك، أم أن الحروب من منجزات التنوير؟

أليس التنوير الغربى خيالاً أو حلمًا لم يتحقق، أو حسبانًا نظريًا لم يتيسر عمليًا سوى تحقيق بعضه، أو ربما لن يتحقق سوى بعضه؟

لقد صار التنوير مرادفًا للتقدم العلمى -التكنولوجى. ولكن الذى أهمل وتخلف عن الركب- وهو مطلب آخر للتنوير- هو تهذيب الإنسان ليصبح مخلوقًا أخلاقيًا بالتربية والتعليم، وتنمية أخلاقه ليتحقق له الإحساس الواعى بالحدود التى يضعها لنفسه؛ ولهذا فإن التدين اليوم بالنصرانية شرط لازم حتى لا يحطم التنوير نفسه بنفسه. وإذا كان السياسى الغربى اليوم يشعر أن دينه مقوم ومصحح لمسيرة التنوير، فكيف يسمح لنفسه بأن يوصى المسلمين بترك الإسلام، وانتهاج طريق الغرب الذى

حكم عليه أبناؤه بالفشل الذريع؟ بينما الإسلام كان وما يزال الإطار الذى يتسع لكافة العلوم والبحوث.

ولنا أن نسأل الغرب: ما الذى أتى به صراع الفكر الأوربى -حقًا- منذ عهود الإغريق حتى اليوم مما لا يجده الفرد والمجتمع فى الإسلام؟ بكل صراحة: لا شىء.

- الإسلام والفن والأوبرا والمسرح:

كثيراً ما سألت نفسى: كيف يتيسر للمسلم الأوربى أن يتفهم أن الإسلام لم يطور كثيراً من الفنون؟ مع كونها عند الغرب لا غنى عنها، ولقد دُفِعْتُ على الإجابة أثناء إقامتى بمكة للحج. وفى صلاة الفجر، تحلقنا الكعبة الشريفةَ وقد غضضنا الأبصار خاشعين، وراح الإمام يتلو القرآن فى الصلاة، ويرتله ترتيلاً.. لقد كان صوته الرزين العميق أحلى صوت من طبقة «باريتون» سمعته فى حياتى.. وَمَا أجمله وَهُوَ ينساب حاملاً إلى قلوبنا كلمات الله.. هنا نسيت أشهر الأوبرات العالمية، ناهيك عَنْ نصوصها الّتى لا طائل وراءها[1].

●●●

(١) ويجب التنبيه إلى أن الموسيقى فى الغرب ترعرعت فى أحضان الكنيسة، وتقام بها الصلوات. يقول المؤرخ الأمريكى ول ديورانت: «ظلت الكنيسة الكاثوليكية الراعى الرئيسى للموسيقى مثل غيرها من الفنون، وتقدمت الموسيقى الكاثوليكية، شمال جبال الألب على الأسس التى وضعتها المدرسة الفلمنكية، وثبت هذا التقليد إيزاك فى النمسا ودى لاسو فى بارفاريا».

كتابه: قصة الحضارة الجزء الخامس من المجلد السادس. ترجمة محمد على أبو درة، جامعة الدول العربية.

ملحق رقم (٢) [التقدّم]

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى (علينا جميعًا أن نمسك بالقلم ونفتح باب الاجتهاد ونفهم التقدّم وندرك أسسه المعرفية وثمنه وثمرته[1]:

ابتداءً يجب أن ندرك أن التقدم نابع من تربة غربية ومرتبط بمرحلة محددة فى التاريخ الغربى، وليس له صلاحية وشرعية تتجاوزان الزمان والمكان. كما يجب أن ندرك أنه هو الركيزة الأساسية للمنظومة المعرفية (المادية) الغربية الحديثة، وهو الإجابة التى تقدمها عن الأسئلة النهائية التى يوجهها الإنسان: من أنا؟ وما الهدف من الوجود فى هذا الكون: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حسب المنظور الإسلامى، أو معرفة الحقيقة والذات وفعل الخير وتحاشى الشر، حسب المنظور الهيومانى الإنسانى الغربى، أو هو الإنتاج والاستهلاك والبيع والشراء وتحقيق الربح واللذة.

ويستند مفهوم التقدم (فى المنظومة الغربية) إلى منطلقات محددة ويتسم بسمات واضحة:

١- يستند مفهوم التقدم (شأنه شأن معظم المفاهيم الفلسفية والمعرفية الغربية الحديثة) إلى مفهوم الطبيعة/ المادة. فالتقدم مثل قوانين الطبيعة عملية حتمية تتم رغم إرادة الأفراد وخارجها ولا يمكن لأحد إيقافها.

٢- يؤدى الإيمان بالتقدم إلى الإيمان بحتمية التغير والصيرورة فى كل المجالات كحقيقة نهائية ومطلقة، ومن ثم يصبح الجديد بالضرورة إيجابيًا والقديم سلبيًا.

٣- والتقدم عملية خطية ذات اتجاه واحد تتم حسب قانون (طبيعى) واحد يتبدى فى كل زمان ومكان وفى جميع المجتمعات وجميع المجالات حسب متتالية واحدة تقريبًا.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى (العالم من منظور غربى) من ص ٧٧ إلى ص ٨٠، باختصار دار الشروق ط١، ٢٠٠١م بالقاهرة.

٤- يفترض مفهوم التقدم وجود تاريخ إنسانى واحد (لا إنسانية مشتركة تتبدى فى تشكيلات حضارية وتاريخية مختلفة ومتنوعة)، ولذا ما يصلح لتشكيل حضارى وتاريخىٍ ما يصلح لكل التشكيلات الأخرى (وهذا ما نسميه «وحدة الوجود التاريخية»).

٥- قد يتم التقدم عبر مراحل متطورة متتالية مختلفة فى بعض التفاصيل والأسباب. ولكن المراحل المختلفة تصل فى نهاية الأمر إلى نفس الهدف وتحقيق نفس الغايات.

٦- تعتبر المجتمعات الغربية، خصوصًا غرب أوربا، هى ذروة هذه العملية التطورية العالمية الطبيعية، ومن ثم فهى النموذج الذى يُحتذى. ومن ثم يتحول الغرب إلى قيمة مطلقة يجب تبنيها ونقطة مرجعية نهائية يجب أن نصل إليها أو على الأقل نقترب منها. ومن ثم إن ازددنا قربًا من الغرب ازددنا تقدمًا، وإن ازددنا بُعْدًا عنه ازددنا تخلفًا.

٧- تستند فكرة التقدم إلى تصور أن المعرفة الإنسانية ستظل تتراكم بشكل مطرد.

٨- مع تزايد التراكم ستزداد المعرفة، ومن ثم سيزداد تحكم الإنسان فى بيئته.

٩- الموارد الطبيعية فى الكون غير محدودة.

١٠- عقل الإنسان هو الآخر غير محدود. ولهذا فهم عادةً ما يتحدثون عن «التقدم اللانهائى».

والآن بعد أن عرفنا المقولات التى يستند إليها التقدم (المادى)، **فلننظر له نظرة نقدية:**

١- ثبت أن كثيرًا من المقولات التى يستند إليها مفهوم التقدم الغربى ليس لها سند من الواقع.. فالموارد الطبيعية محدودة، وعقل الإنسان محدود، والتقدم ليس عملية خطية ذات اتجاه واحد؛ إذ كثيرًا ما يحدث انقطاع ونتائج سلبية غير مقصودة.

٢- عملية التقدم (مثل الطبيعة/ المادة) ليس لها غاية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقى محدد.. فالتقدم (مثل الطبيعة / المادة) مجرد حركة أو عملية. وفى الوجود الإنسانى المتعين، عادةً ما يتقدم المرء نحو شيء ما من مكان إلى آخر، ولكن التقدم

فى المفهوم الغربى (المادى) عملية حركية تعنى الانتقال (الترانسفير) دون تحديد الهدف من الحركة. وقد لخص المفكر الإنجليزى ماثيو أرنولد هذا الجانب من مفهوم التقدم حين قال: «ما وجه التقدم فى الانتقال بسرعة من مدينة قبيحة إلى مدينة أخرى لا تقل عنها قبحًا؟!».

٣- التقدم؛ بذلك يصبح بلا مرجعية أو يصبح مرجعية ذاته، أو الوسيلة التى تحولت إلى غاية، فنحن نتقدم كى نحرز مزيدًا من التقدم (وهى عملية لا نهائية) أى أن التقدم ليس حتميًا وحسب وإنما نهائي أيضًا.

٤- ولكن الحركية ليست محايدة تمامًا ولا بريئة تمامًا، فثمة تحيز كامل للرؤية المادية كامن فى مفهوم التقدم الغربى. ومعيار التقدم فى نهاية الأمر هو زيادة المنفعة وتعظيم اللذة لأكبر عدد ممكن من البشر.. والوحدة البشرية الأساسية هى الإنسان الطبيعى ذو الاحتياجات الطبيعية المادية العامة (ثم أصبح الإنسان الطبيعى الأبيض فى المنظومة الإمبرالية). ولذا نجد أن التقدم لا يكترث (مثل الطبيعة) بالخصوصيات التقليدية (الدينية والإثنية والأخلاقية)، كما نجد أن مقاييس التقدم عادةً مقاييس مادية عامة وعادةً ما تركز هذه المقاييس على أشياء تُقاس، أما ما لا يُقاس فيُستبعد كمؤشر.

* عرضت مشكلة تزايد السكان وتناقص الموارد الطبيعية على لجنة علمية مكونة من مجموعة علماء موضوعيين يؤمنون تمام الإيمان بالتقدم المادى لتدرس المشكلة وتأتى بحل. وبعد عدة أشهر جاءوا بحل ناجح وهو ما سموه بـ«التقزيم» أى معالجة الجنس البشرى وراثيًا بحيث يصغر حجم البشر بالتدرج إلى أن نصبح كلنا أقزامًا لنشغل حيزًا أقل ونستهلك أقل، وهكذا! وهو حل لا شك ذكى، ولكنه يتجاهل أشياء كثيرة مادية ومعنوية بدهية لا تغيب عن أى إنسان عادى، إلا إذا كان عقله ووجدانه مُحاصرين بالنماذج المادية الصارمة!

٥- نظرًا لإيماننا غير النقدى بفكرة التقدم، وانطلاقًا من هذا التبنى الببغائى الأبله لمنظومات الآخر المعرفية يتم نقل التكنولوجيا بشراهة غير عادية ومن دون فهم لارتباط التكنولوجيا بقيم وثقافة البيئة المنتجة لها، ومن دون إدراك أن التكنولوجيا

ليست مجرد آلات ومعدات وإنما هى قدرة توليدية إبداعية لتعديل طرق الإنتاج وتحسين وسائل التعامل مع البيئة لإشباع الحاجات الإنسانية (التى يحددها كل مجتمع يراها وحسب رؤيته للإنسان والكون)، ومن ثم غير قابلة للاستيراد ولا للنقل إلا فى حدود معينة وحسب شروط مختلفة. . ومفهوم الناتج القومى الإجمالى يعبِّر عادة عن هذا المفهوم المادى للتقدم وعن التحيز للنموذج المعرفى المادى الذى يستبعد الاعتبارات الاجتماعية والبيئية والأخلاقية والنفسية. ومعظم المفاهيم المرتبطة بمفهوم التقدم مثل «رفع مستوى المعيشة» و«تحسين الدخل القومى». . إلخ مرتبطة بمفهوم التقدم والنموذج المعرفى الغربى.

٦- إذا كان التقدم المادى حتميًا، يتبع متتالية واحدة، لا غاية له ولا هدف إلا تراكم السلع والخبرات المادية، فإنه بهذا المعنى مفهوم رجعى مُغرق فى الرجعية وعنصرى مُغرق فى العنصرية، بل معاد للإنسان والإنسانية؛ فهو ينكر مقدرة الإنسان على التجاوز واتباع مسارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان والهوية. ويتبدى هذا الجانب من مفهوم التقدم المادى الحتمى، أحادى الخط، فى نجاح الدول الغربية فى توظيفه فى خدمة الأيديولوجية الإمبريالية والعنصرية والتى أثمرت الداروينية الاجتماعية التى تؤكد أن الجنس الأبيض هو الذى أحرز قمة التقدم، مما يسبغ عليه حقوقًا مطلقة فيصبح من حقه أن يستولى على أى بقعة فى العالم ويوظف سكانها «المختلَفين» (الذين قد يكون لهم تراث حضارىٌ مركبٌ وعظيمٌ، ولكنه من منظور غربى لا يستحق البقاء)، بل يصبح من حقه إبادتهم. وقد انطلق الإنسان الغربي فى تجربته الإمبريالية استنادًا إلى هذا المفهوم المادى للتقدم، فخرَّب ما خرَّب ودمَّر ما دمَّر. وقد ظهر ما يسمى بالاشتراكية الإمبريالية، التى كانت ترى أن الإمبريالية الغربية تقوم بتدمير بنى التخلف فى الشرق وتخلق ظروفًا مواتية للاستنارة والتقدم. ولهذا السبب رحب ماركس باحتلال إنجلترا للهند ورحب إنجلز باحتلال فرنسا للجزائر. وفى نفس الإطار ظهرت الصهيونية التى جاءت إلى الشرق العربى ممثلة للتقدم الغربى، وادعت أنها جففت المستنقعات وأدت إلى اخضرار الصحراء (مع أن المزارعين الفلسطينيين كانوا من أنشط المزارعين، وكانوا قادرين على زراعة

كل قطعة من الأرض). كما ظهرت الصهيونية الاشتراكية، صهيونية العمال والفلاحين اليهود الثوريين الذين أعلنوا أن الأرض لمن يزرعها، فسرقوا الأرض وقاموا بزراعتها، كما أعلنوا أنهم سيقضون على طبقة الأفندية المتخلفة، فقاموا بطرد الشعب الفلسطيني بأسره من ديار، تنفيذاً لمخططهم التقدمي الثوري.

●●●

ملحق رقم (٣) [الحداثة]

يقول الشاعر نزار قبانى (ترددّت كثيراً فى استعمال -الاغتصاب الثقافى-، لكنّنى لم أجد أدق منه فى التعبير عن هذا العدوان السّادى الذى يُمارس علينا باسم التحديث والمعاصرة. والاغتصاب أنواع: منه ما هو جزئي كاغتصاب محفظة أو خاتم سوليتير، أو دفتر شيكات. . . وهذا النوع من الاغتصاب الصغير لا يشكلّ كارثة؛ لأنه قابل للتعويض مع مرور الزمن.

أما الاغتصاب الكبير الذى لا يمكن إصلاحه أو ترميمه أو تعويضه، فهو أن تغتصب من إنسان اللغة التى يتكلم بها، وتاريخه الذى يسكن فيه، وذاكرته الذى يختزن فيها طفولته وشبابه وكهولته، وثقافته التى تشكّلت على مرّ السنين. . صفحة صفحة. . وقطرة قطرة)[١].

ويرى الأستاذ محمد القوصى أن خصوم الحضارة العربية الإسلامية فى مطلع القرن العشرين كانوا يسموّن أنفسهم (الليبراليّين) وهم السلف الطالح لليبراليّين الجدد، وهؤلاء وأولئك من المنبهرين بالثقافة الغربية. . والمبّشرين بها، فليس عجبًا أن يصبح (دعاة الحداثة والتنوير) امتداداً طبيعيًا وورثة لأسلافهم. . . وهم يتفقون فى الوسائل والأهداف. . . مثل الهجوم على اللغة العربية، والتخلص من التراث. . ومناوأة الدعاة والمخلصين. . والدعوة إلى استيراد الفلسفات والنظريات والمذاهب الغربية وتبّنيها[٢].

هذا وقد تتّبع فى دراسته بعض أولئك الشخصيات، والمجلات المشبوهة، والجوائز الأدبية والثقافية فى العالم العربى حيث اكتشف صلاتها بجهة أجنبية، وهى تعمل ضد هويّة الأمة ووجودها الحضارى[٣].

---

(١) محمد عبد الشافى القوصى (الصفحات السود لمدرسة التغريب والحداثة والتنوير) ض١٢١.
ط مدبولى الصغير - المهندسين بالقاهرة سنة ٢٠٠٧م.

(٢) المصدر نفسه ص١٦٠.

(٣) المصدر نفسه ص٢٤٩.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الوحي إلى رسول الله ﷺ	١٣
الأحـاديث	١٣
السنة النبـوية	١٥
الإسلام – الإيمان	١٨
الصلاة– الزكاة	٢٣
الصيام – الحج	٢٩
آيات الله الكونية	٣٣
عـالميـة الإسلام	٣٥
الشورى – الإجماع	٤١
الاجـتـهـاد	٤٥
اليُسر	٤٩
التـوسط	٥٣
الحرية الدينية – التسامح	٥٧
العدل	٦٠
الـعـلـم	٦٤
العقـلانيّة	٦٨
إبطال الخرافة والسحر والطِّيرَة والكهانة	٧٣
القضـاء– القدر	٧٧

التقوى.................... ٨١
التوكل.................... ٨٤
الخوف - الخشية.................... ٨٦
التوبة.................... ٩٠
الغفران.................... ٩٣
آداب السلام - المصافحة.................... ٩٦
الاستئذان - آداب المجالس.................... ١٠٠
الأمر بالمعروف - النهى عن المنكر.................... ١٠٣
بر الوالدين والأقارب.................... ١٠٧
حقوق المرأة.................... ١١١
الإخاء.................... ١١٧
المساواة.................... ١٢١
العمل.................... ١٢٥
الصدقة.................... ١٢٩
الأمانة.................... ١٣٣
الوفاء بالعهد.................... ١٣٦
الحق.................... ١٣٩
الجهاد ضد الأعداء.................... ١٤٤
العفو.................... ١٤٨
الرفق.................... ١٥٢
المواساة - الإيثار.................... ١٥٦
الرحمة بالإنسان - وبالحيوان.................... ١٥٨
إكرام اليتيم.................... ١٥٩

إكرام الجار والضيف ١٦١
عيادة المرضى - تشييع الجنازات مع الصلاة ١٦٥
فعل الخير ١٦٩
الإخلاص مع النية ١٧٢
العـــزة ١٧٥
الصدق - النُّصْح ١٧٩
التواضع - الحياء ١٨١
العفاف ١٨٣
الحلم ١٨٧
الصبر ١٨٩
كتمان السر - الستر على ذنوب المسلمين ١٩١
القناعة ١٩٤
الرضا بالرزق ١٩٨
العمل الصالح ٢٠٢
المحظورات الحلال - الحرام ٢٠٦
الزنى ٢٠٩
الربا ٢١١
الخمر - الميسر ٢١٣
الظلم ٢١٥
الكبر - العُجْبُ ٢١٧
شهادة الزور ٢١٩
الكذب ٢٢٥
اليمين الكاذبة - العفو عن اللغو في اليمين ٢٢٩

الخداع- اللعن- السبّ. ٢٣٣
سوء الظن- التجسس. ٢٣٧
الغيبة- النَّميمة. ٢٤١
السخرية - الشماتة. ٢٤٣
الحمد لله- الشكر لله. ٢٤٥
الملاحق. ٢٥٥
الفهرس. ٢٦٧

●●●

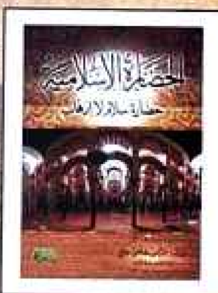


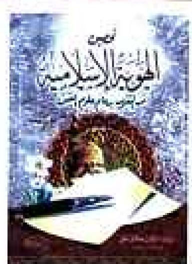
هذا الكتاب

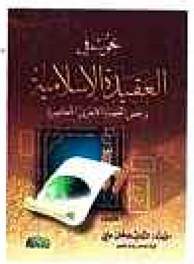
قال الدكتور شـوقى ضيـف (نحن فى أمس الحاجة لنهوض عقدى واخـلاقى ونفسى وعلمـى ، أى فهم عقيـدة التوحيـد الإسلامية واستيعابها بكل أطرافها كما وردت فى حديث الرسول ﷺ

الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً, أَرْفَعُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ, وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ, وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ

راود مسلم فى الصحيح













٣شارع منشا محرم بك الإسكندرية ت/ ٣٩٠٧٩٩٨

E-mail : eldarelarabia900@gmail.com